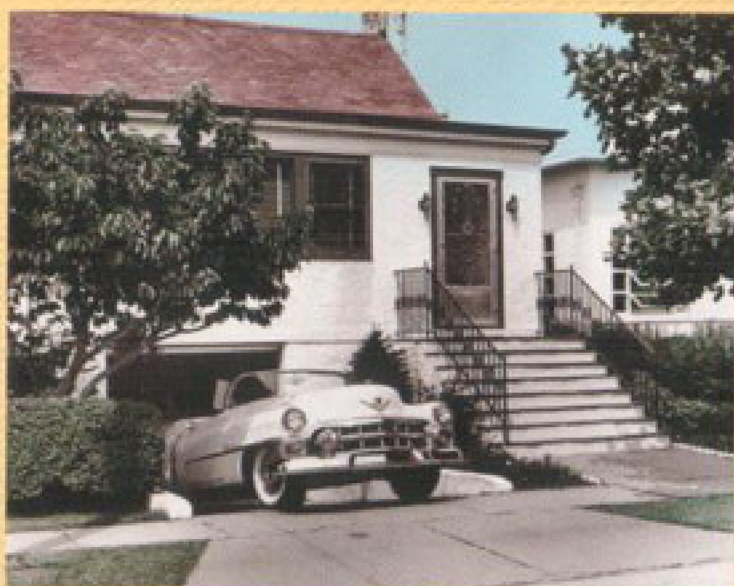
1

# دانيال ستيل

# DANIELLE STEEL



# الهدية

# THE GIFT



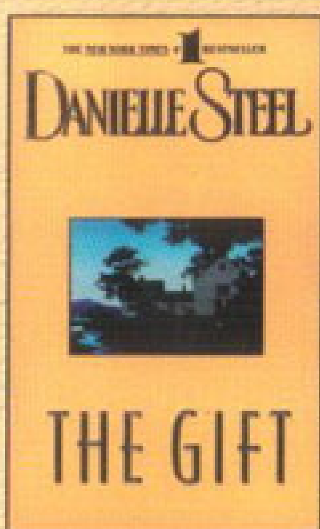


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

في أحد الأيام من شهر حزيران، هبطت شابة ترتدي ثوباً صيفياً من إحدى الحافلات القادمة من شيكاغو إلى مدينة صغيرة في الغرب الأمريكي الأوسط. لم يكن في نيتها البقاء في تلك المدينة، فقد كانت مجرد عابرة سبيل، لكن لتوقفها في هذه المدينة سبب معيّن، وهو جزء من قصة مشوّقة لن تستطيع نسيانها أبداً.

الزمان: خمسينيات القرن الماضي، حين كانت الحياة أشدّ بساطة، وحين كان الناس لا يزالون يؤمنون بالأحلام، وحين كانت العائلة هي كل شيء.. تقريباً.

المكان: مدينة صغيرة في الغرب الأمريكي الأوسط فيها مدرسة ثانوية وصالة للتزلج ودار للسينما. وفي شارع تحفّه الأشجار في قلب أمريكا، هناك ستنطلق سلسلة متوالية من الأحداث غير الاعتيادية. وشيئاً فشيئاً سوف يتبيّن أن السعادة والمسرة الظاهرة ليست سوى قناعاً يخفي الكثير من الغايات والأطماع. وهكذا سيتفرّق شمل عائلة سعيدة بسبب الموت غير المفهوم لأحد الأطفال، وسيبدأ زواج سعيد بالانهيار. ثم تصل الغريبة، وهي امرأة سوف تؤثر في حياة الكثير من الأشخاص، قبل أن تمضي في سبيلها عائدة من حيث أتت. ستلتقي تلك المرأة بأحد الشبان وسيقعان في الحب. وحبّهما هذا، الطاهر والمليء بالأمل، سيساعد في إنقاذ أحلام عائلة، وستتغيّر حياة جميع أفراد تلك العائلة إلى الأبد بسبب الهدية الثمينة التي ستمنحها لهم.




رواية «الهدية»، وهي الثالثة والثلاثين ضمن سلسلة أعمال دانيال ستيل والتي حظيت برواج واسع، عبارة عن قصة مدهشة رُويت ببساطة وقوّة مذهلة. وهي تكشف عن علاقة إنسانية مؤثرة ستجعلك غير قادر على التوقف عن قراءتها. وهي تروي حقائق آسرة وجميلة حول الجوانب غير المتوقعة (والعجيبة) في الحياة.

ISBN 978-9953-87-705-1




جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت

نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

# الهدية

THE GIFT

# الهدية

# THE GIFT

دانيال ستيل
DANIELLE STEEL



ترجمة

تيا معوض

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Gift

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من المؤلفة

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينها وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.



ردمك 978-9953-87-705-1

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

# الفصل الأول

أحــبت آنــي ويتاكــر كل شيء في ذكرى الميلاد. أحبت الطقس، والأشــجار المــضاءة بــشكل ساطع أمام منازل الجميع، وأشكال الرجال المرســومة بأشــرطة المــصابيح الــضوئية على سطوح المنازل. أحبت الأغانــي، وانتظــرت قــدوم سانتا، ثم ذهبت للتزلج، وتناولت الشوكولاته الــساخنة، وحــضّرت الفوشــار مع أمها، وجلست بعد ذلك تنظر بعينين واســعتين إلــى مدى جمال شجرتهم المضاءة بالكامل. تركتها أمها تجلس هناك، أمام وهج الأضواء، وكان وجه الفتاة البالغة من العمر خمس سنوات مليئاً بالدهشة.

كانــت إليــزابيت ويتاكر في الواحدة والأربعين من عمرها حين ولدت آنــي، وكان حملها بمثابة مفاجأة. فقد تخلّت إليزابيت منذ زمن طويل عن حلم إنجــاب طفــل آخر. جرّبت وزوجها لأعوام عدة قبلاً. كان تومي في العاشرة حيــنها، واقتنعا أخيراً بالاكتفاء بولد واحد. كان تومي ولداً رائعاً، ولطالما شعر جــون وإليزابيت بأنهما محظوظان لأنه ابنهما. لعب كرة القدم، والبيسبول مع العــصبة الــصغيرة، وكان النجم في فريق الهوكي على الجليد كل شتاء. كان ولــداً جيداً، يفعل كل ما هو مطلوب منه، ويبلي بلاءً حسناً في المدرسة، وكان حــنوناً على والديه، مع شقاوة كافية فيه لطمأنتهما بأنه ولد طبيعي. لم يكن أبداً الــولد المثالي، ولكنه كان ولداً جيداً. هو صاحب شعر أشقر مثل ليز، وعينين زرقاوين مثل والده. ويمتلك حس دعابة وذكاء كبيرين، وبعد الصدمة الأولية، بدا أنه يتكيف مع فكرة وجود طفلة شقيقة له.

خلال الأعوام الخمسة والنصف الماضية، منذ ولادتها، كان يراقب آني وهي تكبر. إنها فتاة صغيرة شقية مع ابتسامة عريضة، وضحكة ترنّ في أرجاء المنزل كلما التقت وتومي معاً. كانت تنتظر بقلق عودته من المدرسة إلى المنزل كل يوم، ثم يجلسان لتناول الحلويات، وشرب الحليب في المطبخ. انتقلت ليز إلى التعليم البديل، بدلاً من العمل بدوام كامل بعدما أنجبت آني. قالت إنها تريد الاستمتاع بكل دقيقة مع طفلتها الأخيرة. وقد فعلت. إنهما معاً على الدوام.

وجدت ليز الوقت حتى للقيام بعمل تطوعي في دار الحضانة لمدة سنتين، وتساعد الآن في برنامج الفنون في الحضانة التي تذهب إليها آني. يخبزان الحلويات والخبز والبسكويت معاً في فترات بعد الظهر، أو تقرأ لها ليز لساعات طويلة فيما تجلسان معاً في المطبخ الكبير المريح. حياتهم مكان آمن، حيث يشعرون هم الأربعة بالأمان من أنواع التغييرات التي تحصل للآخرين. كان جون يهتم جيداً بهم. أدار أكبر متجر للبيع بالجملة في الولاية، ووفر عيشاً كريماً ومحترماً لهم جميعاً. حقق نجاحاً كبيراً في وقت قصير، علماً أن العمل كان لوالده وجدّه من قبله. إنهم يملكون منزلاً جميلاً في أفضل ناحية من البلدة. ليسوا أغنياء أبداً، لكنهم في منأى عن رياح التغيير الباردة التي طالت المزارعين والأشخاص العاملين في مجالات تتأثر سلباً في أغلب الأحيان بالعصر والتيارات السائدة. يحتاج الجميع إلى طعام جيد، ولطالما وفّره جون ويتاكر لهم. إنه رجل حنون ومحبّ، ويأمل أن يدخل تومي إلى العمل نفسه يوماً ما أيضاً. لكن في البداية، يريده أن يرتاد الجامعة. وكذلك آني، يريدها أن تكون ذكية ومثقفة تماماً مثل أمها. أرادت آني أن تكون معلمة، مثل أمها، لكن جون حلم بأن تصبح طبيبة أو محامية. في العام 1952، كانت هذه أحلاماً كبيرة، لكن جون ادّخر مبلغاً محترماً لتعليم آني. أما المال اللازم لتعليم تومي في الجامعة فقد ادّخره منذ سنوات، ما يعني أن طريقهما مؤمّنة من الناحية المادية إلى الجامعة. إنه رجل يعتقد بالأحلام. لطالما قال إن ما من شيء لا



يمكنك فعله إذا أردته بشدة، ورغبت بالعمل بكد كبير لبلوغه. لطالما كان عاملاً كادحاً. ولطالما كانت ليز مصدر عون كبيراً بالنسبة إليه، لكنه سعيد الآن ببقائها في المنزل. يحب العودة إلى المنزل في وقت متأخر من بعد الظهر، لرؤيتها جالسة مع آني، أو مشاهدتهما تلعبان بالدمى في غرفة آني. يمتلئ قلبه بالحنان لمجرد رؤيتهما. إنه في التاسعة والأربعين من عمره، وهو رجل سعيد. لديه زوجة رائعة، وولدان مذهلان.

"أين الجميع؟"، نادى بعد ظهر ذلك اليوم فيما دخل وهو ينفض الثلج عن قبعته ومعطفه، ويدفع الحيوان الأليف بعيداً، فيما لوّح له الحيوان بذنبه، ودار حول ما يمكن وصفه ببرك الماء التي تركها على الأرض حوله. إنه حيوان أليف إيرلندي كبير، أطلقوا عليه اسم بيس، تيمناً بزوجة الرئيس. حاولت ليز القول في البداية إن هذا يقلّل من احترام السيدة ترومان، لكن الاسم بدا ملائماً للحيوان الأليف، والتصق به، ويبدو أن أحداً لا يتذكر الآن كيف حصل الحيوان الأليف على هذا الاسم.

"نحن هنا"، صرخت ليز، فدخل جون إلى غرفة الجلوس ليجدهما تعلّقان دمى كعك الزنجبيل على الشجرة. قامتا بتزيينها طوال فترة بعد الظهر، وحضّرت آني السلاسل الورقية فيما كان الكعك في الفرن.

"مرحبا، بابا، أليس هذا جميلاً؟".

"بلى". ابتسم لها، ثم رفعها بين ذراعيه بسهولة. إنه رجل قوي، أسود الشعر، حتى الآن، بالرغم من أنه اقترب من سن الخمسين. كما أنه يملك عينين زرقاوين ساطعتين، أورثهما لولديه. كانت عينا ليز بنية اللون، وأحياناً تبدو بلون البندق. لكن شعر آني أبيض تقريباً لكثرة ما هو فاتح. وفيما ابتسمت لعيني والدها، وفركت أنفها الصغير بمرح على أنفه، بدت مثل ملاك. أجلسها قربه، ثم مدّ جسمه إلى الأمام لتقبيل زوجته، فيما تبادلا نظرة حنونة.

"كيف كان يومك؟"، سألته بحنان. إنهما متزوجان منذ اثنين وعشرين عاماً، وفي معظم الأوقات، حين لم تضايقهما شدائد الحياة، كانا مغرمين

وعاشقين كل يوم أكثر من الذي سبقه. تزوجا بعد عامين من تخرج ليز من الجامعة. كانت معلمة حينها، وتوجب الانتظار سبع سنوات لولادة تومي. كادا يفقدان الأمل، ولم يجد الدكتور تومبسون العجوز أبداً سبباً لعجزها عن الحمل أو متابعته. أجهضت ثلاث مرات قبل ولادة تومي، وبدا مثل أعجوبة لهما حين ولد أخيراً. وكانت الأعجوبة أكبر حين ولدت آني بعد عشر سنوات. اعترفا صراحة أنهما محظوظان، وأعطاهما الولدان كل السعادة التي أملا بها وتوقعاها.

"أحضرت البرتقال من فلوريدا اليوم"، قال جون وهو يجلس حاملاً غليونه. ثمة نار في الموقد، وفاحت في المنزل رائحة كعك الزنجبيل والفوشار. "سأحضر البعض منها إلى المنزل غداً".

"أحب البرتقال!". صفقت آني، ثم جلست على حضنه، بينما وضع بيس قوائمه على ركبتي جون، وحاول الانضمام إليهما. دفع جون بيس بعيداً برفق، ونزلت ليز عن السلّم لتقبيله مجدداً، وإعطائه كوباً من الشراب الساخن.

"يبدو العرض جيداً جداً لا يمكن رفضه". ابتسم، ثم لحق بها إلى المطبخ بعد برهة، وهو يتأمل بصمت طلتها الرشيقة. كان يمسك بيد آني، وبعد لحظات قليلة، أغلق الباب الأمامي، ودخل تومي، بأنفه الوردي ووجنتيه الحمراوين، حاملاً مزلاجي الجليد.

"ممم... رائحة طيبة... مرحبا، ماما... مرحبا بابا... هاي، أيتها الشقية ماذا فعلت اليوم؟ هل أكلت كل كعك أمك؟". داعب شعرها، وغمرها بشدة ما جعل وجهها يترطب بفعل وجهه. الطقس بارد جداً في الخارج، والثلج يتساقط بكثافة.

"حضّرت الكعك مع ماما... وتناولت فقط أربع قطع"، قالت بدقة فيما ضحكا. إنها ظريفة جداً بحيث يصعب على أي كان مقاومتها، على الأقل على شقيقها الكبير أو والديها المولعين بها. لكنها لم تكن فتاة مدللة. كانت فقط محبوبة جداً، وظهر ذلك في سهولة تعاطيها مع العالم



ومواجهة كل تحدٍّ. إنها تحب الجميع، تحب الضحك، تحب اللعب، تحب الركض في الهواء ليطير شعرها خلفها. تحب اللعب مع بيس... وإنما تحب اللّعب أكثر مع أخيها الكبير. نظرت إليه الآن بإعجاب شديد، وأخذت منه مزلاجي الجليد العتيقين. "هل نستطيع الذهاب للتزلج غداً، تومي؟". ثمة بركة مجاورة، كان يأخذها إليها غالباً في صباحات أيام السبت.

"إذا توقف الثلج عن التساقط. فإذا استمر تَساقُط الثلج، فلن تتمكني حتى من العثور على البركة"، قال هذا بينما كان يأكل قطعة من كعك أمه اللذيذ. إنه كعك شهي جداً، ولم يستطع تومي التفكير إلا في مذاقه اللذيذ، فيما نزعت أمه مئزرها عنها بعناية. كانت ترتدي قميصاً أبيض وتنورة رمادية، ولطالما سُرّ جون بملاحظة أنها لا تزال تملك الطلة نفسها التي كانت عليها حين التقاها للمرة الأولى في الثانوية. كانت في الصف الأول ثانوي وهو في السنة الجامعية الأخيرة، وأحرجه لوقت طويل الاعتراف بأنه مغرم بفتاة صغيرة جداً، لكن الجميع عرفوا الحقيقة في النهاية. مازحوه في البداية، لكن بعد فترة، سلّم الجميع بهذه العلاقة. ذهب للعمل مع والده في السنة التالية، وأمضت هي سبع سنوات أخرى لإنهاء الثانوية والجامعة، ومن ثم عملت سنتين إضافيتين كمعلمة. انتظرها لوقت طويل، لكنه لم يشك أبداً لدقيقة واحدة في جدوى ذلك. فكل ما أراداه أو تمنياه تحقق لهما ببطء، مثل ولديهما. لكن كل الأشياء الجيدة في حياتهما استحقت عناء الانتظار. إنهما سعيدان الآن، فلديهما كل ما يريدانه.

"لديّ مباراة بعد ظهر يوم غد"، ذكر تومي بطريقة عفوية فيما التهم قطعتين إضافيتين من الكعك.

"اليوم الذي يسبق ليلة الميلاد؟"، سألت أمه، متفاجئة. "عليك التفكير في أن الناس لديهم أشياء أخرى لفعلها". كانوا يذهبون دوماً إلى مبارياته، إلا إذا حصل شيء مهم فعلاً يمنعهم من ذلك. يلعب جون الهوكي على

الجليد أيضاً، وكرة القدم. يحب ذلك أيضاً. كانت ليز غير مشجعة كثيراً، إذ لـم تـشأ أن يصاب تومي بأي أذًى في أثناء ممارسته لهذين النوعين من الرياضــة. فقد اثنان من الأولاد أسنانهما في مباريات الهوكي على الجليد على مرّ السنوات، لكن تومي حذر، ومحظوظ جداً. لا عظام مكسورة، لا إصابات أساسية، وإنما فقط بعض الالتواءات والرضوض التي يقول والده إنها جزء من المرح.

"بـالله عليك إنه صبي، ولا يمكنك لفه في بطانية صوفية إلى الأبد". لكنها اعترفت سراً لنفسها في بعض الأحيان بأنها تحب ذلك. ولداها غاليان جـداً علـيها، ولا تريد أبداً أن يحصل أي شيء سيئ لهما، أو لجون. إنها امرأة تتعلق بنعمها.

"هل كان اليوم آخر يوم دراسي لك قبل الميلاد؟"، سألته آني باهتمام، وأومـأ لها برأسه مع ابتسامة عريضة. لديه الكثير من المشاريع للعطلة، والعديد منها لها علاقة بفتاة اسمها إميلي أثارت إعجابه منذ مناسبة الشكر. انـتقلت إلـى غرينيل هذه السنة. أمها ممرضة ووالدها طبيب. جاؤوا من شـيكاغو، وهـي ظـريفة كثيراً. ظريفة كفاية بالنسبة إلى تومي حيث إنه دعاها إلى العديد من مباريات الهوكي. لكنه لم يصل إلى أبعد من ذلك بعد. سـيطلب منها الذهاب معه إلى السينما في الأسبوع المقبل، وربما يمضي معها بعض الوقت ليلة رأس السنة، لكنه لم يملك الشجاعة بعد لسؤالها.

تعـرف آنـي أنه معجب بإميلي. لقد رأته يحدّق إليها في أحد الأيام حـين ذهـبا إلى البركة، والتقاها. كانت تتزلج هناك مع بعض أصدقائها وواحـدة من أخواتها. رأت آني أنها جيدة، لكنها لم تفهم سبب افتتان تومي بها. هي صاحبة شعر داكن طويل ولامع، وهي بارعة كثيراً في التزلج. لم تقل له الكثير، وإنما بقيت تحدق إليهما، وفيما كانا مغادرَين، وجّهت إطراء مفرطاً إلى آني.

"فعلت ذلك لأنها تستلطفك"، شرحت له بطريقة بديهية، فيما عادا إلى المنزل، وكان تومي يحمل مزلاجي آني.



"مـــا الذي يدفعك لقول ذلك؟"، سأل وهو يحاول أن يبدو غير مبالٍ، لكنه بدا بالفعل غريباً وعصبياً.

"بقيت تحدق إليك طوال الوقت فيما كنت تتزلج". حرّكت آني شعرها الأشقر الطويل فوق كتفيها.

"ماذا تقصدين بتحدق إليك؟".

"تعــرف مـــا أعنيه. أنت تعرف أنها مجنونة بك. لهذا السبب، كانت لطـيفة معـــي. لديها أخت صغيرة أيضاً، ولم تكن أبداً لطيفة معها هكذا. أخبرتك، إنها تستلطفك".

"تعرفين الكثير آني ويتاكر. ألا يفترض بك اللعب مع الدمى أو شيء مـــا؟". حاول أن يبدو غير متأثر بما قالته، ثم ذكّر نفسه بغباء نظرته إلى أخته البالغة من العمر خمسة أعوام ونصف العام.

"أنت تستلطفها فعلاً، أليس كذلك؟"، أصبحت تزعجه الآن، وضحكت عالياً فيما سألته.

"لمـــاذا لا تهتمين بشؤونك؟". بدا صارماً معها، وهذا أمر نادر، ولم تعره آني انتباهها وتابعت ملاحظاتها وأسئلتها.

"أظن أن أختها الأكبر أكثر ظرفاً".

"سأتذكر ذلك، في حال أردت الخروج مع فتاة كبيرة".

"ما المشكلة في الفتيات الكبيرات؟"، بدت آني متعجبة من الفرق.

"لا شيء، سوى أن عمرها سبعة عشر عاماً"، شرح لها، فأومأت آني برأسها.

"إنها كبيرة جداً. أظن أنه لا بأس بإميلي".

"شكراً".

"أهــلاً بـــك"، قالـــت بجديـــة، فـــيما وصلا إلى المنزل، ودخلا لتناول الشوكولاته الساخنة، وللتنعّم بالدفء. بالرغم من تعليقاتها عن الفتيات في حياته، يحب فعلاً التواجد معها. لطالما جعلته آني يشعر أنه محبوب كثيراً ومهم جداً. إنها تحبه كثيراً، ولا تساوم أبداً في ذلك. إنها تعشقه. وهو يحبها أيضاً.

جلست على حضنه تلك الليلة قبل أن تخلد إلى النوم، وقرأ لها قصصها المفضلة. قرأ لها أقصر قصة مرتين، ثم نقلتها أمها إلى السرير، وجلس يتحدث مع والده. تحدثا عن انتخاب آيزنهاور في الشهر السابق، والتغييرات التي قد تحصل. ثم تحدثا، مثلما يفعلان دوماً، عن العمل. يريده والده أن يحصل على شهادة في الزراعة، ويتخصص في الاقتصاد. إنهما يعتقدان بالأمور الأساسية، وإنما المهمة، مثل العائلة، والأولاد، وقدسية الزواج، والصراحة، والتعاون مع الأصدقاء. إنهما محبوبان ومحترمان كثيراً في المجتمع. ولطالما قال الناس عن جون ويتاكر إنه زوج جيد، ورجل مهذب، وصاحب عمل منصف.

خرج تومي للسهر مع بعض أصدقائه تلك الليلة. كان الطقس سيئاً جداً لدرجة أنه لم يطلب استعارة السيارة، وإنما مشى إلى منزل أقرب صديق له، ثم عاد إلى المنزل في الحادية عشرة والنصف ليلاً. فوالداه لا يقلقان أبداً عليه. ارتكب حماقة واحدة أو اثنتين في عمر الخامسة عشرة، واقتصرت الحالتان على شرب الكثير من الشراب والتقيؤ في السيارة بينما كان والده يعيده إلى المنزل. لم يُسرّ والداه، لكن لم يُجنّ جنونهما أيضاً. إنه ولد جيد، ويعرفان أن كل الأولاد يفعلون هذه الأمور. لقد فعلها جون أيضاً، وبعض الأمور الأسوأ، خصوصاً حين كانت ليز بعيدة في الجامعة. تمازحه بشأن ذلك أحياناً، وهو يصرّ على أنه كان نموذج السلوك الحسن، فترفع له حاجبها ثم تقبّله عادة.

خلدوا إلى النوم باكراً تلك الليلة أيضاً، وفي صباح اليوم التالي، عندما نظروا إلى الخارج عبر النوافذ، بدا المشهد مثل بطاقة الميلاد. كان كل شيء أبيض وجميلاً، وفي الثامنة والنصف صباحاً أصبحت آني خارجاً مع تومي، الذي كان يساعدها على بناء رجل ثلج. استخدمت قبعة الهوكي المفضلة لدى تومي لوضعها على رأس رجل الثلج، وشرح لها أنه *سيستعيرها* بعد الظهر للمباراة، وقالت آني إنها ستبلغه إذا كان في وسعه استعمالها. دفعها في الثلج حينها، واستلقيا هناك، على ظهريهما، يلوّحان بأذرعهما وأرجلهما.



ذهبوا جميعاً لحضور مباراة تومي بعد ظهر ذلك اليوم، وبالرغم من أن فريقه خسر، لكنّ معنوياته كانت مرتفعة بعد ذلك. جاءت إميلي لمشاهدته أيضاً، بالرغم من أنها كانت محاطة بمجموعة من الأصدقاء، وزعمت أنهم أرادوا جميعاً المجيء فصودف فقط أن انضمت إليهم. كانت ترتدي تنورة ذات نقوش مربعة وتنتعل جزمة فروسية، فيما كان شعرها الداكن الطويل مربوطاً إلى الخلف في جديلة منسدلة على ظهرها، وقالت آني إنها تضع مساحيق التجميل.

"كيف تعرفين؟". بدا متفاجئاً ومسروراً فيما غادرت العائلة كلها حلبة التزلج في المدرسة، وعادوا مشياً إلى المنزل. غادرت إميلي قبلاً مع مجموعة صديقاتها المقهقهات.

"أضع مساحيق التجميل الخاصة بأمي أحياناً"، قالت آني بطريقة بديهية، فابتسم الرجلان، ونظرا إلى القزمة الصغيرة التي تمشي قربهما.

"ماما لا تضع مساحيق التجميل"، قال تومي بحزم.

"بلى، تفعل. تضع البودرة ولوناً على وجنتيها، وتضع أحياناً أحمر الشفاه".

"حقاً؟". بدا تومي متفاجئاً. يعرف أن أمه جميلة المظهر، لكنه لم يشك أبداً في أن هناك أي دور مصطنع أو أنها تضع مساحيق التجميل.

"تضع أحياناً مادة سوداء اللون على أهدابها أيضاً، لكنها تجعلك تبكي إذا استعلمتها"، شرحت آني، وضحكت ليز.

"إنها تجعلني أبكي أنا أيضاً، ولهذا السبب لا أستعملها أبداً".

تحدثوا بعدها عن المباراة، وأشياء أخرى، وخرج تومي مع أصدقائه مجدداً، وجاءت رفيقة من صفه للاهتمام بآني تلك الليلة، ليتمكن والداها من الذهاب إلى احتفال الميلاد في منزل أحد الجيران.

عادا إلى المنزل في تمام العاشرة مساء، وخلدا إلى النوم في منتصف الليل، وكانت آني نائمة في سريرها حين عادا إلى المنزل. لكنها استيقظت في فجر اليوم التالي، وكانت متحمسة كثيراً للميلاد. إنها ليلة الميلاد، وكل

ما استطاعت التفكير فيه هو ما طلبته من سانتا. أرادت دمية السيدة ألكسندر، ولم تكن واثقة تماماً من أنها ستحصل على واحدة. وأرادت مزلاجين جديدين أيضاً، ودراجة، لكنها عرفت أنه يستحسن الحصول على الدراجة في الربيع، بمناسبة ذكرى ميلادها.

بدا أن هناك ألف شيء لإنجازه هذا اليوم أيضاً، مجموعة من التحضيرات للميلاد. يتوقعون زيارة بعض الأصدقاء لهم خلال فترة بعد الظهر، وتحضّر أمها بعض المأكولات. وسيذهبون إلى احتفال منتصف الليل. إنه أحد الطقوس التي تحبها آني، بالرغم من أنها لا تفهمه تماماً. إلا أنها تحب الذهاب معهم إلى دار العبادة، في وقت متأخر من الليل، والجلوس بين أهلها، والنوم نوماً خفيفاً، فيما تصغي إلى الأناشيد، وتشمّ رائحة البخور.

قالت ليز بهدوء لآني، وهي تشكر الله على نِعمه مجدداً: "أحبك، آني".

"وأنا أيضاً أحبك"، همست آني.

ذهبت معهم إلى الاحتفال تلك الليلة، مثلما تفعل دوماً، ونامت فيما كانت جالسة بشكل مريح بين أهلها. الجو حميم ورائع هنا. دار العبادة دافئة، ودفعتها الموسيقى للنوم.

كانت الساعة تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل حين عادوا إلى المنزل تلك الليلة، وبدت آني نائمة أكثر مما هي مستيقظة حين وُضعت في السرير. وحين دخل تومي لتقبيلها، كانت نائمة تماماً وتشخر قليلاً. شعر أنها ساخنة قليلاً، حين قبّل رأسها، لكنه لم يهتم كثيراً للأمر. لم يخبر حتى أمه. بدت هادئة جداً بحيث لم يفكّر في أي خطب.

إلا أنها نامت حتى وقت متأخر من صباح الميلاد للمرة الأولى، وبدت مصابة بالدوار قليلاً حين استيقظت. وضعت ليز طبق الجزر والملح للأيائل، والحلويات لسانتا في الليلة الفائتة لأن آني كانت تشعر بالنعاس ولم تستطع فعل ذلك. حين استيقظت. كانت ناعسة أكثر من المعتاد، وقالت إنها



تعاني من صداع، لكنها غير مصابة بالزكام، وظنت ليز أنها تعاني من حالة أنفلونزا خفيفة. كان البرد قارساً جداً في الآونة الأخيرة، وتعرضت للبرد ربما حين لعبت بالثلج مع تومي قبل يومين. لكنها بدت بخير عندما حان وقت الغداء. وفرحت كثيراً بدمية السيدة ألكسندر التي أحضرها لها سانتا، والألعاب الأخرى، والمزلاجين الجديدين. خرجت مع تومي ولعبت لمدة ساعة، وحين عادت لشرب الشوكولاته الساخنة بعد ظهر ذلك اليوم، كانت وجنتاها حمراوين، وبدت بصحة ممتازة.

"إذاً أيتها الأميرة"، ابتسم لها والدها بسعادة، وهو ينفخ غليونه. قدّمت له ليز غليوناً جديداً من هولندا، وحاملاً محفوراً باليد لغليونه القديم. "هل كان سانتا جيداً معك؟".

"لا يمكن أن يكون جيداً أكثر من ذلك". ابتسمت ابتسامة عريضة. "دميتي الجديدة رائعة جداً بابا". ابتسمت له وكأنها تعرف تقريباً من قدّمها لها، لكنها لا تعرف طبعاً. عملوا جميعاً بكدّ لإبقاء الأسطورة مستمرة معها، بالرغم من أن عدداً قليلاً من أصدقائها يعرف ذلك. لكن ليز أصرّت على أنّ سانتا يأتي لزيارة كل الأولاد الجيدين، وحتى بعض الأولاد غير الجيدين، على أمل أن يصبحوا أفضل. لكن لا مجال للتشكيك في النوع الذي تنتمي إليه آني. إنها الفضلى، بالنسبة إليهم، وبالنسبة إلى كل من عرفها.

جاء أصدقاءٌ لزيارتهم بعد ظهر ذلك اليوم؛ ثلاث عائلات تعيش في الجوار واثنان من المدراء يعملان مع جون مع زوجتيهما وأولادهما. امتلأ المنزل سريعاً بالضحك والألعاب. جاء بعض الشباب من عمر تومي أيضاً، وأظهر لهم صنّارة الصيد الجديدة. بالكاد يستطيع انتظار حلول فصل الربيع لاستعمالها.

كان بعد ظهر يوم ممتع ودافئ، تناولوا عشاء هادئاً تلك الليلة، بعدما رحل الجميع. فقد حضّرت ليز حساء الحبش، وتناولوا ما تبقى من طعام الغداء، وبعض الحلويات التي أحضرها الزوّار معهم.

"لا أظن أنني سأتمكن من الأكل مجدداً قبل شهر"، قال جون هذا وهو يرتدّ إلى الخلف في كرسيه، فيما ابتسمت زوجته، ثم لاحظت أن آني تبدو شاحبة وجامدة، وكانت هناك بقعتان ساطعتان على وجنتيها، بدتا مثل البودرة الحمراء التي تحب اللعب بها.

"هل لعبتِ بموادّ تبرجي مجدداً؟"، سألت ليز مع نظرة قلق خفيفة ممزوجة بالمزاح.

"لا... ضاعت في الثلج... ثم...". بدت مرتبكة، ثم نظرت إلى ليز، متفاجئة، كما لو أنها غير واثقة مما قالته للتو، وأخافها الأمر.

"هل أنت بخير حبيبتي؟". انحنت ليز برفق للمس جبينها، وكان ساخناً جداً. بدت سعيدة جداً بعد ظهر ذلك اليوم، ولعبت بدميتها الجديدة ومع أصدقائها، وكانت تركض في غرفة الجلوس أو المطبخ كلما صادفتها ليز.

"هل تشعرين أنك مريضة؟".

"نوعاً ما". هزّت آني كتفيها، وبدت فجأة صغيرة جداً فيما قالت ذلك، فشدتها ليز إلى حضنها، وأمسكت بها. وبمجرد إمساكها هكذا، لاحظت أن حرارة آني مرتفعة جداً. وضعت يدها على جبينها مجدداً، وفكّرت في الاتصال بالطبيب.

"أكره إزعاجه ليلة الميلاد"، قالت ليز بطريقة شاردة. وكان الطقس بارداً جداً. ثمة عاصفة آتية من الشمال، وقالوا إن الثلج سيتساقط مجدداً قبل الصباح.

"ستكون بخير بعد ليلة نوم جيدة"، قال جون بهدوء. كان بطبيعته أقل قلقاً من ليز. "إنه مجرد حماس كبير بالنسبة إلى شخص صغير". لقد كانوا متحمسين جداً طوال أيام، برؤية الأصدقاء، ومباراة تومي، وليلة الميلاد، وكل تحضيرات الميلاد. ورأت ليز أنه محق. هذا كثير لتتحمله فتاة صغيرة. "ما رأيك في الذهاب إلى السرير على كتفي بابا؟". أحبّت الفكرة، لكن عندما حاول رفعها إلى الأعلى، صرخت بقوة وقالت إن عنقها يؤلمها.

"ما هذا برأيك؟"، سألته ليز، فيما خرج من غرفة نوم آني.



"مجرد زكام. كل من في العمل عانوا من الزكام طوال أسابيع، وأنا واثق من أن كل الأولاد مصابون بالزكام في المدرسة. ستكون بخير"، طمأن زوجته، وربّت على كتفها. وعرفت أنه محق، لكنها تخاف دوماً من أمور مثل شلل الأطفال وداء السل. "إنها بخير"، قال جون لليز مجدداً، وهو يعرف كم تميل إلى القلق بإفراط. "أعدك".

ذهبت حينها لتقبيل آني بنفسها، وشعرت بالتحسن حين رأتها. كانت عيناها تلمعان، بالرغم من أن جبينها بقي ساخناً جداً، ولا تزال شاحبة، بدت متماسكة تماماً. ربما هي متعبة ومتحمسة بإفراط. وهو محق. تعاني من الزكام أو من جرثومة أنفلونزا بسيطة.

"نامي جيداً، وإذا شعرت بالمرض، فتعالي إلينا"، قالت لها ليز فيما وضعتها جيداً في سريرها وقبلتها. "أحبك كثيراً كثيراً حبيبتي... وشكراً على الصورة الجميلة التي رسمتها لي ولبابا لمناسبة الميلاد". رسمت لجون منفضة لغليونه أيضاً، ولوّنتها باللون الأخضر الساطع، لأنه لونه المفضل حسبما قالت.

بدا وكأن آني نامت قبل أن تغادر ليز الغرفة. بعدما انتهت من غسل الأطباق، عادت وتفقّدتها. أصبحت آني أكثر سخونة حينها، وكانت تتململ وتتأوه في نومها، لكنها لم تستيقظ حين لمستها ليز. إنها العاشرة مساء، وقررت ليز أنه من الضروري الاتصال بالطبيب.

كان في المنزل، وشرحت له ليز أن آني تعاني من الحمّى. لم تشأ إيقاظها لتتأكّد ما إذا كانت حرارتها مرتفعة، لكن حرارتها كانت مئة درجة ودرجة فهرنهايت حين خلدت إلى السرير، وهذا ليس خطيراً. ذكرت له تصلّب العنق، وقال لها إن الأوجاع والآلام مألوفة مع الأنفلونزا. وافق جون الرأي بأنها متعبة كثيراً، وربما أصيبت بالزكام خلال عطلة نهاية الأسبوع.

"أحضريها صباح غد، ليز، إذا انخفضت الحرارة، وإلا سآتي بنفسي لرؤيتها. اتصلي بي حين تستيقظ. لكنها ستكون بخير. عاينتُ عشرات

حالات الزكام السيئ مع الحرارة المرتفعة. ليست خطيرة أبداً، لكنها مزعجة جداً حين تدوم طويلاً. أبقيها دافئة، وقد تنخفض الحرارة قبل الصباح".

"شكراً لك والت". والتر ستون هو طبيب العائلة حتى قبل ولادة تومي، وكان صديقاً جيداً. وكما هي الحال دوماً، شعرت بالطمأنينة ما إن اتصلت به. يبدو أن الأمر غير مهم.

جلست وجون في غرفة الجلوس لوقت طويل تلك الليلة، يتحدثان عن أصدقائهما، وحياتهما، ووالديهما، وكم هما محظوظان، وكم مرّت سنوات على لقائهما الأول، وكم هما سعيدان. إنه وقت للمراجعة والامتنان.

تفقّدت آني مجدداً قبل خلودهما إلى النوم، لم تكن حرارتها قد ارتفعت أكثر، لا بل إنها بدت أقل تململاً. استلقت من دون حراك، تتنفس ببطء. نام بيس قرب سريرها، مثلما يفعل غالباً. ولم تتحرك الطفلة ولا بيس حين غادرت ليز الغرفة، وعادت إلى غرفة نومها.

"كيف حالها؟"، سألها جون فيما اندسّ في السرير.

"إنها بخير"، ابتسمت ليز. "أعرف. أنا أقلق كثيراً. هذا خارج عن إرادتي".

"وهذا جزء من سبب حبي لك. تهتمين بنا جميعاً. لا أعرف ماذا فعلت لأكون محظوظاً هكذا".

"كنت ذكياً فقط حسبما أظن، لتجعلني أحبك وأنا في الرابعة عشرة من عمري". لم تعرف أو تحب رجلاً آخر قبله أو بعده. وفي الأعوام الاثنين والثلاثين التي مرت على معرفتها به، ازداد حبها له، وتحول إلى شغف.

"تعرفين أنك لا تبدين أكبر ممن هنّ في عمر الرابعة عشرة الآن"، قال بخجل تقريباً، وشدّها إليه برفق في السرير. "أحبك ليز"، همس بالقرب من عنقها، وقبّلها بشغف.

استلقيا معاً لوقت طويل، ثم ناما أخيراً، راضيين. حياتهما هي حياة مليئة بالأشياء الجيدة التي أسساها معاً على مرّ السنوات. حياتهما هي حب



يحترمانه ويقدّرانه. وكانت ليز تفكّر فيه فيما خلدت إلى النوم بين ذراعيه. أمسكها بالقرب منه، واستلقى قربها، وطوّق ذراعيه بشدة حول خصرها، وكان وجهه غارقاً في شعرها الأشقر الناعم، وناما معاً بسلام حتى الصباح.

اطمأنت على آني ما إن استيقظت في صباح اليوم التالي. كانت ليز ترتدي ثوب نومها وتلفه حول خصرها فيما دخلت إلى غرفة آني، ورأتها هناك، لا تزال نائمة. لم تبدُ مريضة، لكن ما إن اقتربت ليز، لاحظت أنها شاحبة جداً، وبالكاد تتنفس. خفق قلب ليز فجأة بقوة فيما هزّتها قليلاً، وانتظرتها حتى تتململ، لكن لم يصدر سوى تأوه خفيف، ولم تستيقظ على لمسة أمها، ولا حتى حين هزتها ليز بقوة، وبدأت تناديها باسمها بصوت مرتفع. سمعها تومي قبل جون، وركض لرؤية ما يحصل.

"ما المشكلة، ماما؟". بدا وكأنه أحس بشيء ما لحظة سماعها. لا يزال يرتدي لباس النوم، وبدا أيضاً نصف نائم، وكان شعره مبعثراً.

"لا أعرف. اطلب من بابا الاتصال بالدكتور ستون. لا أستطيع إيقاظ آني". وبدأت بالبكاء.

وضعت وجهها قرب وجه طفلتها، وأحسّت أنها تتنفس، لكن آني كانت فاقدة الوعي، ولاحظت فوراً أن حرارتها ارتفعت كثيراً عما كانت عليه في الليلة الفائتة. لم تجرؤ ليز حتى على تركها لوحدها لإحضار ميزان الحرارة من الحمام."بسرعة!"، نادته بعدما خرج، ثم حاولت مساعدتها على الجلوس. تحركت قليلاً هذه المرة، وبكت بكاء خفيفاً، لكنها لم تتحدث أو تفتح عينيها أو تستيقظ أبداً. بدت وكأنها غير مدركة لما يحصل حولها، جلست ليز هناك، وأمسكت بها وهي تبكي بهدوء. "أرجوك، طفلتي... أرجوك استيقظي... هيا... أحبك... آني، أرجوك...". كانت تبكي حين دخل جون مسرعاً إلى الغرفة بعد برهة، وتومي مباشرة خلفه.

"قال والت إنه سيحضر فوراً. ماذا حصل؟". بدا خائفاً هو الآخر، لكنه لم يشأ الاعتراف أمام ليز أنه قلق. وكان تومي يبكي بهدوء خلف كتف والده.

"لا أعرف... أظن أن حرارتها مرتفعة كثيراً... لا أستطيع إيقاظها... آه يا الله... آه جون... أرجوك...". كانت تبكي بقوة، وتتشبث بفتاتها الصغيرة، ممسكة بها فيما جلست هناك، تهزّها، لكن آني لم تتأوه حتى هذه المرة. استلقت من دون حراك بين ذراعي أمها، بينما الآخران يراقبانها.

"ستكون بخير. يتعرض الأولاد لمثل هذه الأمور، ثم يصبحون بخير بعد ساعتين. تعرفين ذلك". حاول جون إخفاء حقيقة ذعره.

"لا تخبرني بما أعرفه. أعرف أنها مريضة جداً، وهذا كل ما أعرفه"، صرخت ليز بعصبية في وجه زوجها.

"قال والت إنه سيأخذها إلى المستشفى إذا اضطر إلى ذلك". لكن بدا جلياً لهم جميعاً أنه سيفعل ذلك. "لماذا لا ترتدين ثيابك"، اقترح جون برفق. "سأراقبها".

"لن أتركها"، قالت ليز بحزم. وضعت آني على السرير مجدداً، وداعبت شعرها، فيما راقب تومي أخته مذعوراً. بدت شبه ميتة إذ كانت شاحبة جداً، وما لم تنظر إليها عن كثب، لا يمكنك معرفة ما إذا كانت تتنفس أم لا. يصعب التصديق أنها ستستيقظ في أي لحظة، لتضحك وتقهقه، لكنه أراد بالرغم من ذلك التصديق أن هذا سيحصل.

"كيف مرضت بهذه السرعة؟ كانت بخير الليلة الماضية"، قال تومي وهو يبدو مصدوماً ومرتبكاً.

"كانت مريضة، لكنني ظننتُ أن الأمر غير مهم". حدّقت ليز فجأة إلى جون، كما لو أنها غلطته لأنها لم تطلب من الطبيب الحضور الليلة الفائتة. شعرت بالقرف الآن لأنهما أمضيا وقتاً ممتعاً معاً فيما كانت آني تغرق في الغيبوبة في غرفة نومها. "كان يجدر بي إحضار والت الليلة الماضية".

"لم تعرفي أبداً أنها ستصبح هكذا"، طمأنها جون، ولم تقل هي أي شيء.

ثم سمعاه يطرق على الباب. ركض جون لفتح الباب، وإدخال الطبيب. الطقس بارد جداً في الخارج، لقد وصلت العاصفة التي تم الحديث



عنها. الثلج يتساقط، وعمّت الكآبة العالم في الخارج كما عمّت غرفة نوم آني.

"ماذا حصل؟"، سأل الطبيب جون فيما توجه بسرعة إلى غرفة نومها.

"لا أعرف. تقول ليز إن حرارتها ارتفعت كثيراً، ونعجز عن إيقاظها". أصبحا عند باب الغرفة حينها، وبالكاد انتبه إلى ليز أو ابنهما، تقدم خطوتين نحو سرير آني، وتحسسها، وحاول تحريك رأسها، وتحقق من عينيها. استمع إلى صدرها، وتحقق من بعض الانفعالات اللاإرادية بصمت تام، ثم استدار، ونظر إليهما بتعبير متألم.

"أودّ اصطحابها إلى المستشفى وإجراء فحص لنخاعها الشوكي. أظن أنه التهاب السحايا".

"آه، يا الله". لم تكن ليز واثقة من مضاعفات ذلك، لكنها واثقة من أن الأخبار ليست جيدة، لا سيما مع مظهر آني. "هل ستكون بخير؟" بالكاد همست ليز الكلمات فيما أمسكت بذراع جون، وتم لبرهة نسيان تومي، الذي وقف يبكي عند باب الغرفة، يراقب أخته التي يحبّها. استطاعت ليز سماع قلبها يخفق بقوة فيما انتظرت جواب الطبيب. إنه صديقهما منذ وقت طويل، حتى إنه كان رفيقهما في المدرسة، لكنه بدا الآن مثل العدو، فيما يقيّم مصير آني ويخبرهما.

"لا أعرف"، قال بصراحة. "إنها فتاة صغيرة مريضة جداً. أودّ أخذها إلى المستشفى على الفور. هل يأتي أحد منكما معي؟".

"سنذهب كلانا"، قال جون بحزم. "أعطنا ثانية واحدة فقط لنرتدي ثيابنا. تومي، ابقَ أنت مع الطبيب وآني".

"أنا... بابا...". كانت كلماته مخنوقة، والدموع تنساب بسرعة أكبر مما يستطيع وقفها. "أنا أيضاً أريد الذهاب... عليّ التواجد هناك". كان جون على وشك مناقشته، ثم أومأ برأسه. لقد فهم. عرف ما تعنيه بالنسبة إليه، وبالنسبة إليهم جميعاً. لا يستطيعون خسارتها.

"ارتدِ ثيابك". ثم استدار إلى الطبيب وقال له: "سنكون جاهزين في غضون دقيقة".

في غرفة نومهما، كانت ليز ترتدي ثيابها. لقد ارتدت المشدّ والجورب. ومن ثم ارتدت تنورة قديمة، وكنزة، وانتعلت جزمة، ومررت المشط في شعرها، وأمسكت بحقيبتها ومعطفها، وهرعت إلى غرفة نوم آني.

"كيف حالها؟"، سألت بنفس منقطع فيما أسرعت إلى الغرفة.

"لا تغيير"، قال الطبيب بهدوء. كان يتحقق من أعضائها الحيوية باستمرار. انخفض ضغط دمها كثيراً، وأصبح نبضها ضعيفاً، وبدأت تغرق أكثر فأكثر في الغيبوبة. أراد نقلها إلى المستشفى فوراً، لكنه عرف جيداً أيضاً أنه حتى في المستشفى، لا يستطيعون فعل الكثير لالتهاب السحايا.

بعد لحظة، ظهر جون أيضاً وقد بدا وكأنه ارتدى ثيابه بطريقة عشوائية، فيما ظهر تومي ببدلة الهوكي. إنها أول شيء وقع بين يديه في خزانته.

"فلنذهب"، قال جون وهو يرفع آني عن السرير، فيما لفّتها ليز ببطانيتين سميكتين. كان الرأس الصغير ساخناً جداً بحيث بدا وكأنه مصباح ضوئي. وبدت شفتاها زرقاوين قليلاً. ركضوا إلى سيارة الطبيب، وصعد جون إلى المقعد الخلفي وهو يحمل آني. جلست ليز قربه، فيما جلس تومي على المقعد الأمامي قرب الطبيب. تململت آني لبرهة حينها، لكنها لم تصدر أي صوت آخر فيما توجّهوا إلى المستشفى، وكانوا جميعاً صامتين. بقيت ليز تنظر إليها، وتمشط الشعر الأشقر بعيداً عن وجهها. قبّلت جبينها مرة أو مرتين، وأرعبتها حرارة طفلتها فيما لامستها شفتاها.

حملها جون إلى غرفة الطوارئ، وكانت الممرضات في انتظارهم. اتصل والت بالمستشفى قبل أن يغادروا المنزل، ووقفت ليز قرب آني،



تمسك بيدها، وترتجف فيما أجروا فحص النخاع الشوكي. طلبوا منها مغادرة الغرفة، لكنها رفضت ترك ابنتها.

"سأبقى هنا معها"، قالت بحزم. تبادلت الممرضات نظرات سريعة في ما بينهن، وأومأ الطبيب برأسه.

في نهاية فترة بعد الظهر، عرفوا حقيقة ما شك فيه وهو أن آني تعاني من التهاب السحايا. لقد ارتفعت حرارتها أكثر فأكثر بعد الظهر. وصلت إلى مئة وست درجات فهرنهايت، ولم تفلح أبداً جهودهم في خفضها بأي طريقة كانت. استلقت على سرير في المستشفى، في قسم الأطفال، والستارة مغلقة حولها، فيما راقبها والداها وأخوها، وتأوهت قليلاً بين الحين والآخر، لكنها لم تستيقظ أبداً أو تتحرك. وحين فحصها الطبيب، كان عنقها متصلباً تماماً. عرف أنها لن تعيش طويلاً إلا إذا انخفضت الحرارة، أو استعادت وعيها، لكن ما من شيء يستطيعون فعله لإعادتها إلى الحياة أو جعلها تتغلب على المرض. الأمر كله بيد الله. لقد جاءت إليهم بمثابة هدية قبل خمسة أعوام ونصف، ولم تجلب لهم شيئاً سوى الحب والفرح، والآن لا يستطيعون فعل أي شيء للحؤول دون خسارتهم للهدية، باستثناء التضرع والأمل، وتوسلها لعدم تركهم. لكن بدا أنها لا تسمع أي شيء أبداً، فيما وقفت أمها قربها، وقبّلت وجهها، وربّتت على يدها الصغيرة المشتعلة حرارة. تناوب جون وتومي على الإمساك باليد الأخرى، ثم غادرا الغرفة للمشي في الردهة والبكاء. لم يشعر أي منهما بمثل هذا العجز قبلاً. لكن ليز رفضت الاستسلام، أو الخضوع من دون كفاح. شعرت وكأن ترك طفلتها لبرهة واحدة قد يجعلها تخسر المعركة. لن تسمح لها بالغرق في الظلمة بصمت، بل ستتشبث بها، وتثابر، وتحارب للحفاظ عليها.

"نحبك، صغيرتي... نحبك جميعاً كثيراً... بابا وتومي وأنا... عليك أن تستيقظي... عليك أن تفتحي عينيك... هيا، صغيرتي... هيا... أعرف أنك تستطيعين فعل ذلك. ستكونين بخير... إنها مجرد

جرثومة سخيفة تحاول جعلك مريضة ولن نسمح لها، أليس كذلك؟... هيا آني... هيا صغيرتي... أرجوك...". تحدثت إليها لساعات طويلة من دون كلل، وحتى في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، رفضت تركها. قبلت أخيراً كرسياً، وجلست عليه، فيما لا تزال تمسك بيد آني، وجلست أحياناً بصمت، فيما تحدثت إليها أحياناً أخرى، واضطر جون أحياناً إلى مغادرة الغرفة لأنه لم يستطع تحمل ذلك. بحلول موعد العشاء، أبعدت الممرضات تومي لأنه كان منهاراً جداً بحيث لم يعد في وسعه التحمل، وهو يراقب أمه تتوسلها لتفتح عينيها، فيما أخته الصغيرة التي يحبها كثيراً مستلقية من دون حراك. لاحظ تأثير المسألة في والده، وفي أمه، وكان كل ذلك كثيراً جداً عليه. وقف هناك وبكى بقوة، ولم تملك ليز القوة لمواساته. عانقته لبرهة، ثم أخذته الممرضات بعيداً. تحتاج إليها آني كثيراً. لا تستطيع ليز تركها للذهاب إلى تومي. ستتحدث إليه لاحقاً.

كان قد غادر الغرفة قبل ساعة تقريباً، حين أصدرت آني صوت تأوه خفيفاً، ثم تحرك جفناها قليلاً. بدا لبرهة وكأنها ستفتح عينيها، لكنها لم تفعل. تأوهت بدلاً من ذلك مرة جديدة، وإنما شدّت هذه المرة برفق على يد أمها، ثم فتحت عينيها، ونظرت إلى أمها كما لو أنها كانت نائمة طوال اليوم.

"آني؟"، قالت ليز بهمس، وهي مذهولة تماماً بما رأته. أشارت إلى جون للاقتراب منهما. كان قد عاد إلى الغرفة ويقف قرب الباب. "مرحبا، صغيرتي... أنا وبابا هنا، ونحن نحبك كثيراً". ووقف كل واحد منهما بالقرب من أحد طرفي وسادتها. لم تستطع تحريك رأسها نحو أي منهما، لكن بدا جلياً أنها تستطيع رؤيتهما بوضوح. بدت ناعسة، وأغلقت عينيها لبرهة مجدداً، ثم فتحتهما ببطء، وابتسمت.

"أحبكما"، قالت بصوت خافت جداً بحيث استطاعت بالكاد سماعها.

"تومي؟...".



"إنه هنا أيضاً". كان هناك سيل من الدموع على وجنتي ليز فيما أجابتها، وقبّلت جبينها برفق فيما بكى جون أيضاً، ولم يعد محرجاً أبداً من أن تراه هكذا. إنهما يحبانها كثيراً. سيفعل أي شيء لجعلها تتخطى هذه المحنة.

"أحب تومي..."، قالت بصوت خافت مجدداً: "... أحبكم..." ثم ابتسمت بوضوح، وهي تبدو أكثر جمالاً من أي وقت كان. بدت مثل الطفلة المثالية، مستلقية هناك، شقراء ذات عينين زرقاوين، ووجنتين صغيرتين ممتلئتين يحب الجميع تقبيلهما. كانت تبتسم لهما كما لو أنها تعرف سراً يجهلانه. دخل تومي إلى الغرفة حينها، ورآها أيضاً. نظرت نحوه، وابتسمت له مباشرة. ظن أن هذا يعني تحسن حالتها مجدداً، وبدأ يبكي بارتياح لأنهم لن يخسروها. ثم، وكأنها توجه الحديث إليهم جميعاً، قالت ببساطة: "... شكراً..." بهمس خفيف جداً. أغلقت عينيها حينها، مع ابتسامة، ثم عادت للنوم مجدداً بعد برهة، مرهقة من الإجهاد. كان تومي فرحاً بما رآه فيما غادر الغرفة مجدداً، لكن ليز عرفت أن الأمر مختلف. أحسّت بوجود خطب ما، وأن الأمر ليس فعلاً مثلما يبدو. وفيما راقبتها، أحست بها تبتعد. الهدية التي جاءت ذهبت مجدداً. تمت سرقتها منهم. حصلوا عليها لفترة وجيزة جداً، بحيث بدا الوقت وكأنه لحظات. جلست ليز تمسك بيدها، وتراقبها، فيما كان جون يدخل ويخرج. كان تومي نائماً على كرسي في الممر حينها. وكانت الساعة قرابة منتصف الليل حين رحلت عنهم أخيراً. لم تفتح عينيها أبداً مجدداً. لم تستيقظ أبداً. قالت ما أرادت إخبارهم به... أخبرت كل واحد منهم كم تحبه... حتى إنها شكرتهم... شكراً لكم... على السنوات الخمس الجميلة... على السنوات الخمس القصيرة... شكراً على الحياة الذهبية الصغيرة التي حصلنا عليها جميعاً لوقت قصير جداً. كان جون وليز معها حين ماتت، كلاهما كانا يمسكان بيد من يديها الصغيرتين، من دون أن يقولا لها الكثير، باستثناء شكرها على كل ما أعطتهما إيّاه.

لقد عرفا أنهما لا يستطيعان منعها من تركهما، وإنما أرادا ببساطة التواجد هناك حين تتركهما.

"أحبك"، همست لها ليز للمرة الأخيرة، فيما لفظت أنفاسها الأخيرة... "أحبك...". كان مجرد صدى. أُخذت الهدية منهما. آني ويتاكر أصبحت روحاً. ونام أخوها في الممر، يتذكرها... يفكّر فيها... يحبها... مثلما فعلوا جميعاً... يتذكر ما حصل قبل أيام قليلة.





# الفصل الثاني

كانت الجنازة مليئة بالألم والأحزان، ومن نوع الكوابيس التي تعاني منها الأمهات. كانت قبل يومين من ليلة رأس السنة، وجاء كل الأصدقاء، والأولاد، والأهل، وأساتذتها من دار الحضانة والمدرسة، وشركاء جون في العمل وموظفيه، والأساتذة الذين تعمل ليز معهم. كان والتر ستون حاضراً أيضاً. أخبرهم في جلسة هادئة أنه يلوم نفسه على عدم حضوره في الليلة التي اتصلت به ليز. افترض أنه مجرد زكام أو أنفلونزا، ولم يكن يجدر به افتراض ذلك. اعترف أيضاً أنه حتى لو جاء، لما استطاع تغيير أي شيء. فالإحصائيات تشير إلى أن التهاب السحايا مميت عند الأطفال الصغار في كل الحالات. ألحّ عليه جون وليز بلطافة لعدم لوم نفسه، بالرغم من أن ليز لامت نفسها لعدم الإلحاح عليه للحضور إلى المنزل تلك الليلة، ولام جون نفسه أيضاً لأنه أخبر ليز أن الأمر غير مهم. وكان تومي غير واثق من سبب شعوره هكذا، لكنه لام نفسه على موتها أيضاً. كان يمكن أن يحدث فرقاً. لكن أياً منهم لم يفعل ذلك.

كانت آني، مثلما قال رجل الدين ذلك اليوم، هدية لهم جميعاً لوقت قصير؛ صديقة صغيرة جاءت لتعلمهم الحب وتقرّبهم من بعضهم. وقد فعلت ذلك. تذكر كل شخص جلس هناك الابتسامة البريئة، والعينين الزرقاوين الكبيرتين، والوجه الصغير الساطع الذي جعل الجميع يضحكون أو يبتسمون، أو يحبونها. لم يشك أحد أبداً في أنها كانت بمثابة هدية حب لهم. السؤال هو كيف سيعيشون الآن من دونها. بدا لهم جميعاً وكأن موت

طفلة هو بمثابة تأنيب على الخطايا الذاتية، وتذكير للجميع بإمكانية خسارة الحياة في أي لحظة. إنها خسارة كل شيء، الأمل والحياة والمستقبل. إنها خسارة الدفء وكل الأشياء العزيزة. ولم يكن هناك أبداً أشخاص حزينون أكثر من ليز وجون وتومي ويتاكر في ذلك الصباح البارد جداً من شهر ديسمبر. وقفوا متجمدين برداً أمام قبرها، بين أصدقائهم، عاجزين عن إبعاد أنفسهم عنها، عاجزين عن تركها لوحدها هناك.

"لا أستطيع"، قالت ليز بصوت مخنوق لجون بعدما انتهى الدفن، وعرف فوراً ما تعنيه فأمسك بذراعها، وهو يخشى أن تصاب بانهيار عصبي. كانوا قريبين من ذلك طوال أيام، وبدت ليز أسوأ حالاً الآن. "لا أستطيع تركها هنا... لا أستطيع...". كانت تبكي بقوة، وبالرغم من مقاومتها، شدّها بالقرب منه.

"إنها ليست هنا، لقد ذهبت... إنها بخير الآن".

"ليست بخير. إنها لي... أريدها مجدداً"، قالت وهي تبكي، فيما انسحب الأصدقاء بعيداً بطريقة غريبة، وهم يجهلون كيفية مساعدتها. ما من شيء يستطيع أحد قوله أو فعله، لا شيء لتخفيف الألم أو جعل الوضع أفضل. وقف تومي هناك يراقبهما، يتألم في داخله، ويبكي آني.

"هل أنت بخير، بنيّ؟"، سأله مدرب الهوكي، فيما وقف قربه، وهو يمسح الدموع عن وجنتيه من دون أن يحاول حتى إخفاءها. بدأ تومي يومئ بالإيجاب، ثم هزّ رأسه لقول لا، وانهار بين ذراعي الرجل ليبكي. "أعرف... أعرف... لقد خسرت أختي حين كنتُ في الحادية والعشرين، وكان عمرها خمسة عشر عاماً... الأمر مؤلم جداً... إنه مؤلم فعلاً. تشبث فقط بالذكريات... كانت فتاة ظريفة جداً"، قال وهو يبكي مع تومي. "تشبث بكل ذلك بنيّ. ستعود إليكم على شكل نِعَم صغيرة في حياتكم. تحدث إليها أحياناً حين تكون لوحدك... ستسمعك... ستسمعها... لن تخسرها أبداً". نظر إليه تومي باستغراب لدقيقة، متسائلاً ما إذا كان مجنوناً، ثم أومأ برأسه. لقد نجح والده أخيراً في إبعاد أمه عن القبر، وإن بصعوبة كبيرة.



بالكاد استطاعت المشي حين عادوا إلى السيارة، وبدا والده شاحباً جداً فيما قاد السيارة للعودة إلى المنزل، ولم ينطق أي منهم بكلمة واحدة.

جاء الناس طوال فترة بعد الظهر، وأحضروا لهم الطعام. اكتفى بعضهم بترك الطعام أو الأزهار على الدرج الأمامي للمنزل، خشية إزعاجهم أو مواجهتهم. لكن بدا أن هناك دفقاً مستمراً من الأشخاص في المنزل، فيما بقي آخرون بعيداً، كما لو أنهم شعروا أنهم إذا لمسوا آل ويتاكر، قد يحصل لهم الأمر نفسه أيضاً. كما لو أن المأساة معدية.

جلس جون وليز في غرفة الجلوس، وكانا مرهقين ومنهارين، يحاولان الترحيب بأصدقائهما، وشعرا بالارتياح حين تأخر الوقت كثيراً في الليل بحيث استطاعا إقفال الباب الأمامي والتوقف عن الإجابة على الهاتف. وفي خضم كل ذلك، جلس تومي في غرفته ولم يقابل أحداً. مرّ أمام غرفتها مرة أو مرتين، لكنه لم يستطع تحمل الأمر. أخيراً، أغلق الباب كي لا يراها. كل ما يتذكره الآن هو كيف بدت ذلك الصباح، مريضة جداً، شاحبة جداً، ومن دون حياة قبل ساعات قليلة من رحيلها. يصعب التذكر الآن كيف بدت حين كانت بصحة جيدة، حين كانت تمازحه أو تضحك. فجأة، كل ما استطاع رؤيته هو وجهها في سرير المستشفى، تلك الدقائق الأخيرة حين قالت "شكراً..." ثم ماتت. كان مطارَداً بكلماتها، بوجهها، بأسباب موتها. لماذا ماتت؟ لماذا حصل ذلك؟ لماذا لم يمت هو بدلاً من آني؟ لكنه لم يخبر أحداً بشعوره، ولم يقل أي شيء لأي كان. في الواقع، آل ويتاكر لم يتحدثوا مع بعضهم طوال بقية الأسبوع. تحدثوا فقط إلى أصدقائهم حين اضطروا إلى فعل ذلك، وفي حالته هو، لم يفعل.

حلّت ليلة رأس السنة، وذهبت مثل أي يوم آخر في السنة، ومرّ يوم رأس السنة من دون أن يلاحظه أحد. بعد يومين، عاد تومي إلى المدرسة، ولم يقل له أحد أي شيء. عرف الجميع بما حصل. كان مدرّب الهوكي لطيفاً معه، لكنه لم يذكر له أبداً أخته مجدداً. لم يتحدث أحد مع تومي عن الموضوع، وبقي ملازماً لحزنه. فجأة، ذكّره كل شيء بما خسره، ولم

يستطع تحمل ذلك. كره الألم المستمر، وكره نظرة الشفقة في عيون الجميع. ربما ظنوا أنه غريب. لم يقولوا له أي شيء. تركوه لوحده، وهكذا بقي. وكذلك فعل والداه. بعد الدفق الأولي للزوار، توقفا عن رؤية أصدقائهما. توقفا تقريباً عن رؤية بعضهما. لم يعد تومي يأكل معهما. لم يستطع تحمل الجلوس أمام طاولة المطبخ من دون آني، ولم يستطع تحمل فكرة العودة إلى المنزل بعد الظهر وعدم تشارك الحليب والحلويات معها. لم يتحمل فكرة تواجده في منزله من دونها. لذا، كان يتأخر في التمارين الرياضية قدر المستطاع، ومن ثم يتناول العشاء الذي تتركه له أمه في المطبخ. في معظم الأوقات، كان يتناوله وهو واقف، قرب الموقد، ثم يرمي نصفه في القمامة. وفي بقية الأوقات، كان يأخذ حفنة من الحلويات إلى غرفته مع كوب من الحليب، ويستغني عن وجبة العشاء تماماً. بدا وكأن أمه لم تعد تتناول الطعام أبداً، وأصبح والده يعود إلى المنزل في وقت متأخر من العمل، ولا يشعر بالجوع هو الآخر. بدت وجبات العشاء الحقيقية شيئاً من الماضي بالنسبة إليهم جميعاً، إذ باتوا يخشون ويتجنبون قضاء الوقت معاً. بدوا وكأنهم يعرفون جميعاً أنهم إذا تواجدوا هم الثلاثة معاً، سيكون غياب الرابع مؤلماً على نحو لا يطاق. لذا، اختبأوا، كل منهم لوحده، اختبأوا من أنفسهم، ومن بعضهم.

ذكّرهم كل شيء بها. أيقظ كل شيء الألم داخلهم مثل عصب خافق هدأ لثانية واحدة فقط، فيما كان الألم الناجم عنه لا يطاق بقية الوقت.

لاحظ مدرّبه ما يحصل له، وذكر أحد أساتذته الأمر مباشرة قبل عطلة الربيع. للمرة الأولى طوال سنواته المدرسية، تراجعت علاماته، وبدا أنه لم يعد يهتم بأي شيء على الإطلاق.

"فتى آل ويتاكر في حال سيئة"، علّقت أستاذة المدنيات أمام أستاذة الرياضيات في أحد الأيام في كافيتريا المدرسة. "أردت الاتصال بأمه الأسبوع الماضي، ثم رأيتها في وسط المدينة. بدت في حال أسوأ منه. أظن أنهم واجهوا جميعاً ظروفاً صعبة حين ماتت الابنة الصغيرة في الشتاء الماضي".



"ومن لا يفعل؟"، قالت أستاذة الرياضيات بطريقة متعاطفة. فهي تملك أولاداً، ولا تتخيل كيف استطاعت الأم تحمل الصدمة. "ما مدى سوء الأمر؟ هل يرسب في كل المواد؟".

قالت بصراحة: "ليس بعد، لكنه على وشك فعل ذلك، كان أحد أفضل تلامذتي. أعرف تشبُّث والديه القوي بالتعليم. تحدث والده حتى عن إرساله إلى إحدى جامعات رابطة اللبلاب، إذا أراد ذلك، كانت علاماته تؤهله لذلك لكن لا شك في أن الأمر مختلف الآن".

"لا شك في أنه سيستطيع السيطرة على الأمور، لم تمضِ على مصيبته سوى أشهر ثلاثة فقط. امنحي الولد فرصة. أظن أنه علينا تركه لوحده، هو ووالديه، ورؤية نتائجه نهاية السنة الدراسية. نستطيع دوماً الاتصال بهم إذا تدهور وضعه كثيراً، وأخفق في امتحان أو شيء ما".

"أكره رؤية وضعه يتدهور هكذا".

"ربما لا يملك أي خيار. عليه الآن ربما الكفاح للتغلب على ما حصل. قد يكون هذا أكثر أهمية. يصعب عليّ الاعتراف بذلك أحياناً، لكن ثمة أشياء في الحياة أكثر أهمية من الدراسات الاجتماعية والهندسية. فلنمنح الولد فرصة ليلتقط أنفاسه، ويستعيد توازنه".

"لم يمضِ سوى ثلاثة أشهر على الأمر"، ذكّرتها المعلمة الأخرى. شارف شهر مارس على الانتهاء. مضى على وجود آيزنهاور شهرين في البيت الأبيض، وتم اختبار لقاح شلل الأطفال بنجاح، وأنجبت لوسيل بال أخيراً طفلها الذي جرى الكلام عنه كثيراً. العالم يتحرك بسرعة، لكن ليس بالنسبة إلى تومي ويتاكر. لقد توقفت حياته مع موت آني.

"اسمعي، قد أحتاج إلى عمر كامل لتخطي مثل هذه الأزمة، لو كانت طفلتي"، قالت المعلمة الأكثر تعاطفاً بين الاثنتين.

"أعرف". صمتت المعلمتان، وهما تفكران في عائلتيهما، واتفقتا عند الانتهاء من تناول وجبة الغداء على ترك تومي وشأنه لبعض الوقت الإضافي. لكن الجميع لاحظ ذلك. بدا أنه غير مهتم بأي شيء. حتى إنه قرر عدم لعب

كرة السلة أو البيسبول هذا الربيع، بالرغم من أن المدرب حاول إقناعه. وفي المنزل، كانت غرفته في حالة من الفوضى العارمة، وواجباته غير منجزة أبداً، وللمرة الأولى في حياته، أصبح دائم الشجار مع والديه.

لكنهما كانا في شجار مع بعضهما أيضاً. بدا وكأن أمه وأباه يتجادلان باستمرار، ويلوم دوماً أحدهما الآخر على شيء ما. لم يملأ السيارة بالوقود، أو يخرجا النفايات، أو يخرجا الحيوان الأليف، أو يدفعا الفواتير، أو يرسلا الشيكات، أو يشتريا القهوة، أو يجيبا على رسالة. كلها أشياء غير مهمة، لكنهما كانا يتجادلان طوال الوقت. لم يعد والده يتواجد في المنزل. لم تعد أمه تبتسم أبداً. ولم يعد أحد يوجه إليه كلمة واحدة. لم يعودا حزينين، وإنما فقط غاضبين. كانا غاضبين، من بعضهما، ومن العالم، ومن الحياة. لكن أحداً لم يقل ذلك يوماً. كانا فقط يصرخان ويتذمران من كل شيء آخر، مثل الكلفة العالية لفاتورة الكهرباء.

لذا، كان من الأسهل على تومي البقاء بعيداً عنهما. كان يتجول خارجاً في الحديقة معظم الأوقات، يجلس تحت الدرج الخلفي ويفكر، وقد بدأ يدخن السجائر. حتى إنه شرب مرة أو مرتين. وكان يجلس أحياناً في الخارج، تحت الدرج الخلفي، تحت المطر اللامنتهي الذي انهمر عليهم طوال الشهر، ويشرب ويدخن السجائر. شعر أنه نضج كثيراً، حتى إنه ابتسم ذات مرة، حين فكّر أن آني كانت ستغضب كثيراً لو رأته هكذا. لكنها لا تستطيع، ولم يعد والداه يهتمان، ولذلك لا يهم ما يفعله. بالإضافة إلى ذلك، أصبح عمره الآن ستة عشر عاماً. أصبح ناضجاً.

"لا أهتم أبداً إذا كان عمرك ستة عشر عاماً، ماريبيث روبرتسون"، قال والدها، في ليلة من شهر مارس في أوناوا، آيوا، على مسافة مئتين وخمسين ميلاً تقريباً من حيث جلس تومي ثملاً بفعل الشراب تحت الدرج الخلفي لمنزله، ينظر إلى أزهار أمه التي قضت عليها العاصفة. "لن تخرجي في هذا الفستان الرقيق، وأنت تضعين محتويات متجر كامل من مساحيق التجميل. اذهبي واغسلي وجهك، وانزعي هذا الفستان عنك".



"بابا، إنها مناسبة رقصة الربيع. تتبرّج جميع الفتيات ويرتدين الفساتين الجميلة". الفتاة التي رافقها شقيقها الأكبر إلى الحفلة قبل عامين كانت في مثل عمرها، وبدت أكثر مبالغة منها بمساحيقها وثوبها، ولم يعارض والدها أبداً. لكنها تكون صديقة راين، وهذا مختلف طبعاً. يستطيع راين فعل أي شيء. إنه صبي، لكن ماريبيث ليست كذلك.

"إذا أردت الخروج، عليك ارتداء فستان محتشم، أو يمكنك البقاء في المنزل والاستماع إلى الراديو مع أمك". الإغراء للمكوث في المنزل كبير جداً، لكن حفلة تخرّجها لن تتكرّر أبداً. أغرتها فكرة عدم الذهاب على الإطلاق، خصوصاً إذا توجب عليها ارتداء فستان يجعلها تبدو مثل ناذرة عفة، لكنها لا تريد البقاء في المنزل أيضاً. لقد استعارت فستاناً من الأخت الكبيرة لصديقتها، وكان الفستان فضفاضاً قليلاً عليها، لكنها رأت أنه جميل جداً. إنه مصنوع من قماش التافتا الأزرق، وقد آلم الحذاء المصبوغ باللون نفسه الذي انتعلته قدميها لأنه أصغر بمقاس واحد من مقاس قدميها، لكنه يستحق الألم. الفستان من دون كمين، وله سترة بوليرو صغيرة فوقه، لكن ياقته المنخفضة جداً أظهرت أعلى صدرها، وعرفت أن هذا هو سبب معارضة والدها.

"بابا، سأبقي السترة عليّ. أعدك".

"مع سترة أو من دون سترة، يمكنك ارتداء هذا الفستان هنا في المنزل مع أمك. إذا ذهبت إلى الحفلة الراقصة، عليك العثور على شيء آخر، وإلا انسي أمر الحفلة. وبصراحة، لن أمانع إذا فعلت ذلك. تبدو كل تلك الفتيات مثل بنات السوء في تلك الفساتين المكشوفة. لست بحاجة إلى عرض جسمك للفت انتباه شاب، ماريبيث. من الأفضل أن تتعلمي ذلك باكراً، وإلا ستجلبين إلى المنزل أسوأ نوع من الرجال. تذكري كلماتي"، قال بصرامة، فأشاحت شقيقتها الصغرى نويل بناظريها. إنها فقط في الثالثة عشرة من عمرها وأكثر تمرداً مما حلمت به ماريبيث. ماريبيث فتاة جيدة، وكذلك نويل، لكنها أرادت حماساً في الحياة أكثر من ماريبيث. حتى

في عمر الثالثة عشرة، ترقص عيناها كلما صفّر لها شاب. في عمر السادسة عشرة، كانت ماريبيث أكثر خجلاً، وأكثر حذراً بشأن تحدي والدها.

في النهاية، ذهبت ماريبيث إلى غرفتها، واستلقت على سريرها تبكي، لكن أمها جاءت وساعدتها على العثور على شيء لارتدائه. لا تملك الكثير، لكنها تملك فستاناً كحلياً جميلاً مع ياقة بيضاء وكمين طويلين عرفت مارغريت روبرتسون أن زوجها سيعتبره ملائماً. لكن لمجرد رؤية الفستان، تلألأت الدموع في عينيّ ماريبيث. إنه بشع.

"ماما. سأبدو مثل ناذرة عفة. سيضحك الجميع عليّ في النادي الرياضي". بدت محطمة الفؤاد حين رأت الفستان الذي اختارته لها أمها. إنه فستان لطالما كرهته.

"لن يرتدي الجميع مثل هذه الفساتين، ماريبيث"، قالت هذا مشيرةً إلى الفستان الأزرق المستعار. عليها الاعتراف أنه فستان جميل، لكنه أخافها قليلاً هي الأخرى. جعل ماريبيث تبدو مثل امرأة. في عمر السادسة عشرة، حظيت بنعمة، أو نقمة، بالصدر الممتلئ، والوركين الصغيرين، والخصر النحيل، والساقين الطويلتين. حتى في الثياب العادية، يصعب إخفاء جمالها. إنها أطول من معظم صديقاتها، وقد نمت في سن مبكرة جداً.

لقد تطلّب إقناعها بارتداء الفستان ساعة كاملةً، وفي ذلك الحين كان والدها جالساً في غرفة الجلوس، يستجوب رفيقها من دون شفقة أو رحمة. إنه شاب بالكاد تعرفه ماريبيث، وبدا عصبياً جداً عندما سأله السيد روبرتسون عن نوع العمل الذي يريد ممارسته حين ينهي المدرسة، واعترف أنه لم يقرر بعد. شرح له السيد روبرتسون حينها أن العمل القاسي مفيد للرجل الشاب، وأنه لا ضير أبداً أيضاً في الذهاب إلى الجيش. كان ديفيد أوكونور يوافقه الرأي بعصبية، مع نظرة يأس متزايدة، إلى أن جاءت ماريبيث أخيراً على مضض إلى الغرفة، وهي ترتدي الفستان



المريع، وتضع قلادة أمها اللؤلؤية لإكساب الفستان قليلاً من الحيوية. انتعلت حذاء كحلياً مسطحاً، بدلاً من حذاء الساتان ذي الكعب العالي الذي تمنت انتعاله، لكنها توجهت نحو ديفيد في أي حال، وحاولت أن تقنع نفسها أن الأمر غير مهم. عرفت أنها تبدو مريعة، وأن الفستان الداكن يتناقض بشكل مريع مع شعرها الأحمر الساطع، مما جعلها أكثر بؤساً. لم تشعر يوماً أنها أكثر بشاعة، فيما قالت مرحبا لديفيد.

"تبدين جميلة فعلاً"، قال ديفيد بنبرة غير مقتنعة، وهو يرتدي البدلة الرسمية التي تعود لأخيه الكبير، والتي كانت أكبر بمقاسات عدة من مقاسه، فيما سلّمها باقة زهر صغيرة، لكن يديه كانتا ترتجفان بقوة لتدبيس الباقة على الفستان، فساعدته أمها.

"استمتعا بوقتكما"، قالت أمها بهدوء، وهي تشعر بأسف عليها. على أي حال، رأت أنه كان يجدر بها السماح لها بارتداء الفستان الأزرق. بدا جميلاً جداً عليها، وجعلها ناضجة. لكن لا جدوى من النقاش مع بيرت إذا حسم أمره. وعرفت كم يقلق على ابنتيه. أُجبرت اثنتان من شقيقاته على الزواج قبل أعوام عدة، ولطالما قال لمارغريت إنه مهما كلّف الأمر، لن يسمح بحصول ذلك لابنتيه. ستكونان فتاتين جيدتين، وتتزوجان برجلين جيدين. لن تكون هناك فضائح في منزله، ولا خروج عشوائي من المنزل، ولا يساوم أبداً في ذلك. وحده راين يستطيع فعل ما يريده. إنه صبي في النهاية. أصبح عمره الآن ثمانية عشر عاماً، ويعمل مع بيرت في عمله. يملك بيرت روبرتسون أنجح مرأب لتصليح السيارات في أوناوا، ويتقاضى ثلاثة دولارات في الساعة، وهو فخور بذلك.

أحب راين العمل معه، وزعم أنه ميكانيكي جيد مثل والده. يتفقان جيداً مع بعضهما، وفي بعض عطلات نهاية الأسبوع، يذهبان معاً لصيد الأسماك أو العصافير، فيما تبقى مارغريت في المنزل مع الفتاتين، وتذهب إلى السينما معهما، أو تنجز بعض أعمال الخياطة. لم تعمل أبداً، وكان بيرت فخوراً بذلك أيضاً. إنه ليس رجلاً غنياً، لكنه يستطيع رفع رأسه أمام

كل أهالي البلدة، ولن تأتي فتاة لتغير ذلك باستعارة فستان والذهاب إلى مناسبة رقصة الربيع وهي تبدو مثل **قنبلة**... . إنها فتاة جميلة، لكن هذا سبب كافٍ لترويضها، والحرص على ألا يُجنّ جنونها مثلما حصل مع أختيه.

تزوج بفتاة عادية، مارغريت أوبراين، أرادت أن تصبح ناذرة عفة قبل أن يلتقي بها. وكانت زوجة جيدة له طوال عشرين عاماً تقريباً. لكنه لم يكن ليتزوجها أبداً لو بدت غريبة الأطوار، مثلما حاولت ماريبيث فعله للتو، ولم تجادله كثيراً، مثلما تفعل نويل. استنتج قبل أعوام عدة أن تربية ابن أسهل كثيراً من تربية ابنة، بالرغم من أن ماريبيث لم تسبب له أبداً أي مشكلة. إلا أنها تملك أفكاراً غريبة عن النساء وما يستطعن ولا يستطعن فعله، وعن الذهاب إلى المدرسة، وحتى الجامعة. لقد ملأ أساتذتها رأسها بأفكار عن مدى ذكائها. ولا خطب أبداً في أن تتلقى الفتاة التعليم، إلى حدٍّ ما، يقول بيرت، طالما أنها تعرف متى تتوقف، ومتى تستعمله. قال بيرت دوماً إنه لا حاجة إلى أن ترتاد الفتاة الجامعة لتتعلم كيفية تغيير حفّاض. إلا أن القليل من التعليم مفيد، لكن بعض أفكارها المجنونة غريبة جداً عليه. النساء الطبيبات، والنساء المهندسات، والنساء المحاميات، وحتى الممرضات، بدا الأمر صعب الفهم بالنسبة إلى بيرت. ما الذي تتحدث عنه؟ يتساءل عن ذلك أحياناً. يفترض بالفتيات أن يتصرفن بتهذيب كي لا يدمرن حياتهن، أو حياة أي شخص آخر، ثم يفترض بهن الزواج وإنجاب الأولاد، بقدر ما يستطيع رجالهن تحمل أعباء المسؤولية. ثم يفترض بهن الاعتناء بأزواجهن وأولادهن، ومنزلهن، وعدم التسبّب بالمشاكل لأي كان. أخبر راين ذلك، وحذره ألا يتزوج بفتاة غريبة الأطوار، وألا يجعل أي فتاة تحمل إذا كان لا يريد الزواج بها. لكن الفتاتين قصة أخرى تماماً. يفترض بهما التصرف بشكل جيد... وعدم الذهاب نصف عاريتين إلى حفلة راقصة، أو التسبّب بالجنون لعائلتهما بأفكارهما الغريبة حول النساء. يتساءل أحياناً ما إذا كانت الأفلام التي تشاهدانها مع مارغريت تعطيهما





أفكاراً مجنونة. لا شك في أن مارغريت ليست هي المسؤولة. إنها امرأة هادئة ولم تسبب له يوماً أي مشكلة في أي شيء. باستثناء ماريبيث. إنها قصة مختلفة تماماً. إنها فتاة جيدة، لكن لطالما ظن بيرت أن أفكارها العصرية ستسبب لها الكثير من المشاكل.

وصل ديفيد وماريبيث إلى الحفلة الراقصة بعد تأخر أكثر من ساعة، وبدا أن الجميع يستمتعون بوقت جيد من دونهما. بالرغم من أنه لا يفترض بهم الشرب في الحفلة الراقصة، بدا بعض الشباب في صفها ثملين، وكذلك بعض الفتيات، ولاحظت عدداً من الثنائيات الجالسين في السيارات المركونة حين وصلا، لكنها حاولت عدم الانتباه إليهم. من المحرج رؤيتهم وهي بصحبة ديفيد. بالكاد تعرفه، وليسا فعلاً صديقين حقيقيين، لكن لم يسألها أي شخص آخر للذهاب معه إلى الحفلة، وأرادت الذهاب، لتتمكن من رؤية ما يحصل هناك، والتواجد هناك، ومعرفة الأجواء. سئمت من ابتعادها عن كل شيء. لا تشارك أبداً في أي شيء. إنها دوماً مختلفة. طوال سنوات عدة، كانت الأولى في صفها، وكرهها بعض الأولاد الآخرين على ذلك، فيما تجاهلها الباقون.

ويحرجها والداها دوماً حين يأتيان إلى المدرسة. أمها خجولة جداً، ووالدها متبجّح جداً ويأمر الجميع بما يجب عليهم فعله، خصوصاً أمها. لا تستطيع أبداً مواجهته. إنها تخاف منه، وتوافق على كل شيء يقوله، حتى عندما يكون مخطئاً على نحو جليّ. وكان يتحدث بصوت عالٍ عن كل آرائه، التي يملك الملايين منها، ومعظمها عن النساء، ودورهنّ في الحياة، وأهمية الرجال، وعدم أهمية التعليم. لطالما اعتبر نفسه مثالاً. إنه يتيم من بافلو، ونجح في الحياة بالرغم من أنه توقف عن متابعة دراسته مذ كان في الصف السادس. برأيه، لا يحتاج أحد إلى شيء أكثر من ذلك، وإذا كان شقيقها قد تكبّد عناء إنهاء الثانوية، فإنها أعجوبة. كان تلميذاً مريعاً، وتم طرده عدّة مرّات بسبب سلوكه، لكن بما أن الأمر يتعلق براين وليس بالفتاتين، رأى الوالد أن الأمر مسلٍّ. كان في وسع راين أن يكون من

رجال المارينز، ويذهب إلى كوريا، لو لم يتم تصنيفه في الدرجة الرابعة بسبب قدميه المسطحتين وركبته التي كسرها في أثناء لعب كرة القدم. لا تملك هي ورابن الكثير لقوله لبعضهما. يصعب عليها دوماً التخيل أنهما ينتميان إلى العائلة نفسها، وأنهما وُلدا في الكوكب نفسه.

كان وسيم المظهر وفظاً، وليس ذكياً جداً، بحيث يصعب التصديق حتى إنهما قريبان. "بماذا تهتم؟"، سألته ذات مرة وهي تحاول أن تعرف من يكون، وبمن هي على صلة قربى، ونظر إليها بدهشة، متسائلاً عن سبب طرحها للسؤال.

"سيارات، فتيات... شراب... قضاء وقت جيد... يتحدث البابا عن العمل طوال الوقت. لا بأس في ذلك حسبما أظن... طالما أنني أعمل في السيارات، ولست مضطراً إلى العمل في مصرف أو شركة تأمين أو ما شابه. أظن أنني محظوظ بعملي مع بابا".

"أظن ذلك"، قالت بهدوء، وأومأت برأسها، ونظرت إليه بعينيها الكبيرتين الخضراوين، محاولة احترامه. "هل أردت يوماً شيئاً أكثر من ذلك؟".

"مثل ماذا؟". بدا مرتبكاً من السؤال.

"مثل أي شيء. أكثر من مجرد العمل مع بابا. مثل الذهاب إلى شيكاغو، أو نيويورك، أو الحصول على مهنة أفضل... أو ارتياد الجامعة...". هذه هي أحلامها. أرادت الكثير، ولا تملك أحداً لتشاركه أفكارها. حتى الفتيات في صفها مختلفات عنها. لم يفهم أحد يوماً سبب اهتمامها بالعلامات أو الدراسة. وما الفرق في ذلك؟ من يهتم؟ إنها تهتم. لكن نتيجة ذلك، لا تملك أصدقاء، وعليها الذهاب إلى الحفلات الراقصة مع شبان مثل ديفيد.

لكنها لا تزال تملك أحلامها. لا يستطيع أحد سرقتها منها. ولا حتى والدها. أرادت مارييث مهنة، ومكاناً أفضل للعيش، ووظيفة مثيرة، وتعليماً عالياً إذا استطاعت توفير تكاليف ذلك، وفي النهاية، زوجاً تحبه



وتحترمه. لا تستطيع تخيل الحياة مع شخص لا يعجبها. لا تستطيع تخيل حياة مثل حياة أمها، متزوجة برجل لا ينتبه إليها أبداً، ولا يستمع أبداً إلى أفكارها، ولا يهتم لما تفكر فيه. تريد أكثر من ذلك. تملك الكثير من الأحلام، والكثير من الأفكار التي يعتبرها الجميع أفكاراً مجنونة، باستثناء أساتذتها الذين يعرفون كم هي استثنائية ويريدون مساعدتها على التحرر من القيود الاجتماعية المفروضة عليها. عرفوا كم هو مهم بالنسبة إليها أن تحصل يوماً ما على تعليم عالٍ. لكن المرة الوحيدة التي عبّرت فيها عن آرائها قليلاً كانت حين كتبت مقالات في إحدى موادّ صفوفها، وتم مدحها على أفكارها... ولكن لفترة قصيرة فقط. لم تتحدث مع أي كان بشأن تلك الأفكار.

"هل تريدين بعض الشراب؟"، سألها ديفيد.

"ماذا؟...". كان عقلها قد سافر مسافة مليون ميل بعيداً. "أنا آسفة... كنت أفكر في شيء آخر... أنا آسفة لأن والدي ثرثر كثيراً الليلة أمامك. لقد تشاجرنا بشأن فستاني، واضطررتُ إلى تبديله". شعرت بغرابة أكبر فيما قالت ذلك.

"إنه جميل جداً"، قال بعصبية، وهو يكذب بوضوح. لم يكن جميلاً البتة، وهي تعرف ذلك. الفستان الكحلي عتيق وبسيط جداً، واحتاجت إلى الكثير من الشجاعة لارتدائه. لكنها معتادة على أن تكون مختلفة ومحط سخرية. أو هكذا يفترض بها. إنها دوماً الشخص الأكثر غرابة، ولطالما كانت كذلك. ولهذا السبب، شعر ديفيد أوكونور بالارتياح حين طلب منها مرافقته إلى الحفلة الراقصة. عرف أن أحداً غيره لن يفعل ذلك. إنها جميلة، لكنها غريبة، والجميع يقول ذلك. إنها طويلة جداً، وذات شعر أحمر ساطع ووجه رائع، لكنها لا تهتم سوى بالمدرسة، ولم تخرج أبداً في مواعيد عاطفية. لم يسألها أحد ذلك. تصوّر أنها ستوافق وكان محقاً. هو لا يمارس الرياضة، وقصير القامة، يواجه مشاكل مريعة بسبب مظهره الخارجي. فأي فتاة يستطيع التقرب منها سوى مارييث روبرتسون؟ إنها

الخيار الوحيد باستثناء بعض الفتيات البشعات جداً اللواتي لم يشأ مرافقتهن. في الواقع، إنه يستلطف ماريبيث. لكنه لا يستلطف والدها. لقد جعله الرجل العجوز يتصبب عرقاً فيما كان ينتظرها. تساءل ما إذا كان سيبقى عالقاً هناك طوال الليل، إلى أن ظهرت أخيراً في الفستان الكحلي مع الياقة البيضاء. وبدت جميلة. يمكن ملاحظة طلتها الرائعة، حتى في الفستان البشع. وأي فرق سيحدثه على أي حال؟ إنه متحمس للرقص معها.

"هل تريدين بعض الشراب؟"، سألها مجدداً، وأومأت برأسها. لا تريد، لكنها لم تعرف ماذا تقول له غير ذلك. أسفت الآن لأنها جاءت. إنه غبي جداً، ولن يدعوها أي شاب آخر للرقص معه، وبدت مغفلة في الفستان الكحلي. كان يجدر بها البقاء في المنزل والاستماع إلى الراديو مع أمها، مثلما هددها والدها.

"سأعود فوراً"، طمأنها ديفيد، واختفى، فيما راقبت الآخرين وهم يرقصون. بدت معظم الفتيات جميلات بالنسبة إليها، بفساتينهن الملونة والمزركشة، وتنانيرهن الواسعة، والسترات القصيرة. ملابسهنّ جميلة مثل الفستان الذي كادت ترتديه لكن والدها لم يسمح لها بذلك.

بدا وكأن عصوراً مرت قبل أن يظهر ديفيد مجدداً، وحين ظهر، كان يبتسم. بدا وكأنه يملك سراً حماسياً، وما إن تذوقت الشراب، عرفت لماذا يبدو سعيداً هكذا. ثمة طعم غريب فيه يدعو للسرور، وتصوّرت أن أحداً أضاف الكحول إليه.

"ماذا وضعت معه؟"...

"فقط القليل من العصير المرح"، قال مبتسماً، وبدا فجأة أقصر وأسوأ بكثير مما بدا عليه حين طلب منها مرافقته إلى الحفلة. إنه مغفل حقيقي، وكانت الطريقة التي ينظر بها إليها مقرفة فعلاً.

"لا أريد أن أثمل"، قالت بطريقة بديهية، وهي تشعر بالأسف لأنها جاءت، خصوصاً معه. وكالعادة، شعرت أنها مثل السمكة خارج الماء.

"هيا، ماريبيث، تحلي بروح رياضية. لن تثملي. تناولي القليل منه فقط. سيجعلك تشعرين بالارتياح".



نظرت إليه حينها عن كثب، وأدركت أنه كان يشرب حين ذهب لإحضار مشروبهما. "كم تناولت لغاية الآن؟".

"أحضر تلامذة الصف الثاني ثانوي بعض قناني الشراب معهم وخبأوها، فضلاً عن ذلك يملك كانينغهام القليل من الشراب الروسي".

"رائع! كم هذا مذهل!".

"نعم، أليس كذلك؟". ابتسم بسعادة، وهو مسرور لأنها لم تعارض، ولم يفهم أبداً نبرة صوتها. كانت تنظر إليه بقرف، لكنه لم يلاحظ ذلك على ما يبدو.

"سأعود"، قالت ببرود، وبدت أكبر منه بسنوات. جعلها طولها وسلوكها تبدو أكبر من عمرها في معظم الأوقات، وحين وقفت بالقرب منه، بدت مثل عملاق، بالرغم من أن طولها خمس أقدام وثُمن القدم فقط، لكن ديفيد أقصر بنحو أربعة أو خمسة إنشات.

"إلى أين أنت ذاهبة؟". بدا قلقاً. فهما لم يرقصا بعد.

"إلى مرحاض السيدات"، قالت ببرود.

"سمعت أنه يوجد شراب هناك أيضاً".

"سأحضر لك بعضاً منه"، قالت هذا واختفت بين الحشود. كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحن "في المساء البارد البارد البارد"، وكان الشباب يرقصون وأجسادهم قريبة بعضها من بعض، ولم تشعر إلا بالحزن حين خرجت من النادي، ومرّت أمام مجموعة من الشبان الذين كانوا يحاولون بوضوح إخفاء قنينة. لكنهم لم يستطيعوا إخفاء تأثيراتها، وعلى مسافة بضع أقدام أخرى، كان اثنان منهم يتقيأان على الحائط. لكنها معتادة على ذلك من شقيقها. مشت بعيداً قدر المستطاع، وذهبت للجلوس على مقعد خشبي في الجهة الأخرى من النادي الرياضي، لجمع أفكارها وتمضية القليل من الوقت قبل أن تعود إلى ديفيد. إنه يثمل بوضوح، وهي لا تستمتع بوقتها. يجدر بها ربما الذهاب سيراً إلى المنزل ونسيان كل الأمر. شكّت في أن يلاحظ ديفيد غيابها بعد تناوله بعض الكؤوس الإضافية.

جلست على المقعد لوقت طويل، وشعرت بالبرد من هواء الليل، لكنها لم تكترث فعلاً. من الجيد الجلوس هنا، بعيداً عنهم جميعاً، ديفيد، وزملاء صفها، والأشخاص الذين لا تعرفهم، والذين يشربون ويتقيأون. من الجيد الابتعاد عن أهلها أيضاً. تمنت لدقيقة أن تستطيع الجلوس هنا إلى الأبد. أرجعت رأسها إلى الخلف على المقعد وأغمضت عينيها، ومدّت ساقيها إلى الأمام، كما لو أنها تطير في الهواء البارد، وتحلم.

"هل شربت الكثير؟"، سألها صوت ناعم قربها، وقفزت في مكانها حين سمعت ذلك. نظرت إلى الأعلى، ورأت وجهاً مألوفاً. إنه في الصف الثالث ثانوي، ونجم كرة قدم، ولا يعرف أبداً من تكون. لم تستوعب ماذا يفعل هنا، أو لماذا أراد التحدث إليها. ظن ربما أنها شخص آخر. جلست وهزّت رأسها، متوقعة منه متابعة سيره وتركها لوحدها.

"لا. وإنما الكثير من الأشخاص. الكثير من كل شيء، حسبما أظن".

"نعم، وأنا أيضاً"، قال، وجلس قربها، من دون دعوة، واستحال عليها عدم الملاحظة كم هو وسيم، حتى تحت ضوء القمر. "أكره الحشود".

"يصعب تصديق ذلك"، قالت وهي تبدو مسرورة، وتشعر بارتياح غريب معه، بالرغم من أنه بطل في الثانوية. لكن كل شيء غير حقيقي هنا، الجلوس خارج النادي، على مقعد خشبي في الظلام. "أنت محاط دوماً بالأشخاص".

"وأنت؟ كيف تعرفين من أكون؟". بدا محتاراً، وكان فاتن المظهر. "من أنت؟".

"أنا سندريلا. تحولت سيارة البويك خاصتي للتو إلى يقطينة، وأصبح صديقي ثملاً، وخرجت إلى هنا أبحث عن حذائي الضائع. هل رأيته؟".

"ربما. صفيه لي. كيف أعرف أنك فعلاً سندريلا؟". استلطفها، وتساءل كيف لم يلاحظها من قبل. كانت ترتدي فستاناً بشعاً، لكنها تملك وجهاً رائعاً، وطلة بهيّة، وحس دعابة جيداً. "هل أنت في الثالث ثانوي؟". بدا مهتماً فجأة، بالرغم من أن جميع من في المدرسة يعرفون أنه يخرج



مع ديبي فلاورز منذ كانا في الأول ثانوي. سرت إشاعات أيضاً أنهما سيتزوجان بعد التخرج.

"أنا في الأول ثانوي"، قالت مع ابتسامة خجولة، وصراحة مفاجئة، بالرغم من أنها أمام فارس الأحلام.

"لهذا السبب ربما لم ألاحظك قبلاً"، قال بصراحة. "لكنك تبدين أكبر سناً".

"شكراً، أظن ذلك". ابتسمت له، وهي تفكر أنه يجدر بها العودة إلى ديفيد، أو الشروع في السير نحو المنزل. لن تبقى جالسة هنا لوحدها مع شاب في الثالث ثانوي. لكنها شعرت هنا بالأمان.

"اسمي بول براون. ما اسمك، أيتها السندريلا؟".

"ماريبيث روبرتسون". ابتسمت ووقفت.

"إلى أين أنت ذاهبة؟". إنه طويل القامة، وذو شعر داكن وابتسامة ساحرة، وقد بدا خائب الأمل.

"أريد العودة إلى المنزل".

"لوحدك؟". أومأت برأسها. "هل تريدين أن أوصلك؟".

"أنا بخير، شكراً". لم تصدق أنها ترفض الركوب في السيارة مع بول براون، نجم الثالث ثانوي. من يصدق ذلك؟ ابتسمت ابتسامة عريضة، وهي تفكّر في ذلك، وفي أنه إنجاز.

"هيا، سأوصلك إلى النادي على الأقل. هل ستخبرين صديقك أنك مغادرة؟".

"يجدر بي ذلك، حسبما أظن". عادا معاً إلى المدخل الرئيسي للنادي، مثل صديقين قديمين، وما إن اقتربا، حتى رأت ديفيد، الثمل جداً، وهو يتشارك قنينة مع نصف دزينة من الأصدقاء. ثمة مراقبون في الداخل، لكن بالرغم من ذلك، بدا أن الشباب يفعلون ما يريدونه. "لا أظن أنني بحاجة إلى إخباره بأي شيء"، قالت ماريبيث بصوت خافت، وتوقفت طويلاً قبل أن يصلا إليه، ثم نظرت إلى بول مع ابتسامة. إنه أطول منها بكثير.

"شكراً على رفقتك. سأذهب الآن إلى المنزل". كانت الأمسية تبديداً كاملاً لوقتها. أمضت وقتاً سيئاً، باستثناء التحدث إلى بول براون.

"لن أسمح لك بالعودة إلى المنزل لوحدك. هيا، دعيني أوصلك، أو هل تخافين من أن تتحول سيارتي إلى يقطينة أيضاً؟".

"لا أظن ذلك. ألست الأمير الوسيم؟"، سألته بمزاح، لكنها شعرت بعد ذلك بالإحراج. إنه فعلاً الأمير الوسيم، وعرفت أنه لم يكن يجدر بها قول ذلك.

"حقاً؟"، سأل وهو يبدو وسيماً ومرتبكاً جداً فيما ساعدها على الصعود إلى سيارته. إنها سيارة بيل آير موديل 1951، جديدة تماماً، مع إطارات الكروم الجديدة، فيما داخلها منجّد بالجلد الأحمر.

"أحب يقطينتك بول"، مازحته، وضحك، ثم أعطته عنوانها، واقترح عليها الذهاب لتناول برغر وميلكتشايك.

"ما كنت لتستمتعي هكذا. بدا صديقك مثل أحمق... آسف، لم يكن يجدر بي قول ذلك ربما... لكنه لم يفعل لك الكثير الليلة. أراهن حتى أنكما لم ترقصا. لذا، يمكنك الخروج والاستمتاع قليلاً وأنت في طريقك إلى المنزل. ما رأيك؟ لا يزال الوقت باكراً". كان الوقت باكراً فعلاً، وليست مضطرة إلى العودة إلى المنزل قبل منتصف الليل.

"حسناً"، قالت بحذر، وهي تريد أن تكون معه، ومتأثرة بصحبته أكثر مما تريد الاعتراف بذلك. يستحيل عليها عدم فعل ذلك. "هل جئتَ لوحدك الليلة؟"، سألته، متسائلة عما حصل لديبي.

"نعم. أنا حرّ مجدداً". شك من طريقة سؤال ماريبيث في أنها تعرف قصته مع ديبي. الجميع في المدرسة يعرفون. لكنهما انفصلا قبل يومين، لأن ديبي اكتشفت أنه خرج مع فتاة أخرى في عطلة الميلاد، لكنه لم يشرح ذلك. "أظن أن هذا لحسن حظي، أليس كذلك ماريبيث؟". ابتسم بطريقة ساحرة، وطرح عليها أسئلة عن نفسها، فيما توجها إلى مطعم ويلي، المطعم الذي يذهب إليه كل الشباب في كل ساعات النهار والليل. وحين



وصلا إلى هناك، كانت الموسيقى تصدح عالياً، وكان المكان مكتظاً بالناس. بدا أنه يوجد شباب هنا أكثر من الحفلة الراقصة، وأدركت فجأة وأكثر من أي وقت مضى فظاعة الفستان البشع الذي أجبرها والداها على ارتدائه، ومن يكون رفيقها. شعرت فجأة ببهجة وكأنها تدرك للمرة الأولى أنها في السادسة عشرة من عمرها. كان بول في الثامنة عشرة تقريباً. لكنه بدا وكأنه أحسّ بخجلها فيما عرّفها إلى كل أصدقائه. رفع بعضهم حواجبهم متسائلين، وهم يرغبون بأن يعرفوا من تكون، لكن بدا أن أحداً لم يعارض انضمامها إليهم. كانوا لطفاء كثيراً معها، لأنها ضيفة بول، وأمضت وقتاً جيداً وهي تضحك وتتحدث. تناولت معه تشيزبرغر، وميلكتشايك، ورقصا على أنغام مجموعة من الأغاني التي كانت تصدح، بما في ذلك بعض الرقصات الرومنسية، مما أحرجها، لكنه لم يسمح لها بالابتعاد، وأمسكها بالقرب منه فيما رقصا، ثم نظر إليها وابتسم برفق.

"أين كنت خلال الأعوام الأربعة الماضية، أيتها الفتاة الصغيرة؟"، قال، بصوت خشن، وابتسمت له.

"أظن أنك كنت مشغولاً جداً لتلاحظ أين كنت"، قالت بصراحة، وأحبّ ذلك فيها.

"أظن أنك محقة، وكنت أحمق. لا بد من أن هذه الليلة هي ليلة حظي". شدّها بالقرب منه مجدداً. ثمة شيء فيها يثيره ربما هو شيء في نظرتها إليه، وطريقة استجابتها له. ثمة شيء مبهر وقوي وشجاع جداً فيها، كما لو أنها لا تخاف أي شيء. عرف أنها مجرد فتاة صغيرة، ويفترض بفتاة في الصف الأول ثانوي أن تخجل من شاب في الثالث ثانوي، لكنها لم تفعل. لم تخف منه، ولا من قول ما تفكر فيه، وأحب ذلك فيها. انفصاله عن ديبي حطّم غروره، وكانت ماريبيث البلسم الذي يحتاج إليه.

عادا إلى سيارته، واستدار للنظر إليها. لا يريد اصطحابها إلى المنزل. أحب التواجد معها. أحب كل شيء فيها. وبالنسبة إليها، كان مجرد التواجد معه تجربة جديدة ومثيرة.

"هل تريدين الذهاب في نزهة صغيرة؟ إنها فقط الساعة الحادية عشرة". تركا حفلة الرقص باكراً، وأمضيا الكثير من الوقت في التحدث والرقص في مطعم ويلي.

"ربما يجدر بي الذهاب إلى المنزل"، قالت بحذر، فيما شغّل محرك السيارة، لكنه انطلق في اتجاه الحديقة العامة بدلاً من التوجه إلى منزلها. لم يقلقها الأمر، لكنها لم تشأ البقاء خارج المنزل لوقت متأخر جداً. شعرت معه بالأمان. لقد كان رجلاً نبيلاً طوال الليل، أكثر بكثير من ديفيد.

"جولة صغيرة، ثم أصطحبك إلى المنزل، أعدك. لا أريد أن تنتهي الليلة. لقد كانت مميزة بالنسبة إليّ"، قال بصراحة، وأحست رأسها يمتلئ بالإثارة. بول براون؟ ماذا لو كان هذا حقيقياً؟ ماذا لو خرج معها بدلاً من ديبي فلاورز؟ لا تستطيع تصديق ذلك. "أمضيت وقتاً رائعاً ماريبيث".

"وأنا أيضاً. أكثر بكثير من الوقت الذي أمضيته في الحفلة الراقصة"، قالت ضاحكة. تحدثا لبضع دقائق بعد ذلك، إلى أن وصل إلى منطقة نائية قرب بحيرة، فأوقف السيارة، واستدار لمواجهتها.

"أنت فتاة مميزة"، قال لها، ولم تشك ماريبيث أبداً في أنه يعني ذلك فعلاً. فتح صندوق السيارة الأمامي حينها، وأخرج منه قنينة صغيرة من الشراب وقدمها لها. "هل تودين الشرب قليلاً؟".

"لا، شكراً. أنا لا أشرب".

"وكيف ذلك؟". بدا متفاجئاً.

"لا أحبه". رأى أن هذا غريب، لكنه قدّم القنينة لها على أي حال. بدأت ترفض، لكن حين أصرّ كثيراً، شربت قليلاً من الشراب كي لا تجرح مشاعره. السائل الشفاف أحرق حنجرتها وعينيها فيما نزل إلى معدتها، ثم أحست بالكثير من الحرارة في فمها، وشعرت أنها تتورد، فيما انحنى فوقها وشدّها بين ذراعيه...

"هل فعلت... أنت... وديبي...". عرفت حتى قبل أن تلفظ الكلمات أن هذا السؤال غبي، وابتسم لها، ونظر إليها لبرهة كأنه شقيقها الكبير.



"أنت صغيرة، ألست كذلك؟ دعيني أحزر، كم عمرك؟".

"بلغت السادسة عشرة قبل أسبوعين".

"حسناً، أنت الآن فتاة كبيرة". نزع سترته ووضعها حول كتفيها حين رأى أنها ترتجف. إنها في صدمة بسبب ما فعلاه، ثم عرفت أنه يجدر بها طرح سؤال عليه.

قال القليل فيما أوصلها إلى المنزل، وبدا وكأنه ينظر حوله حين توقفا أمام منزلها، ثم استدار نحوها وقبّلها. "شكراً، ماريبيث. أمضيت أمسية رائعة". توقعت نوعاً ما أن يكون ما حصل أكثر من مجرد أمسية رائعة، لكنها لا تملك الحق في توقع المزيد منه، وهي تعرف ذلك. لقد أخطأت في فعل ذلك معه في أول ليلة التقت به، وعرفت أنها ستكون محظوظة إذا تطورت العلاقة إلى شيء أكثر. وقد أخبرها أنه يحبها.

"أمضيت أمسية رائعة أيضاً"، قالت بحذر وتهذيب. "أراك في المدرسة"، قالت بأمل. أعطته سترته، وخرجت من السيارة مسرعة نحو الدرج الأمامي لمنزلها. كان الباب مفتوحاً، فدخلت. لا تزال هناك دقيقتان لحلول منتصف الليل. وشعرت بالامتنان لأن الجميع خلدوا إلى النوم. ليست مضطرة إلى شرح أي شيء، أو الإجابة عن أي أسئلة. نظفت نفسها قدر المستطاع، وشعرت بالامتنان لعدم وجود شخص آخر ليراها، ونقعت فستانها في الماء ثم علّقته، محاولة عدم البكاء. تستطيع القول إن أحدهم رمى الشراب عليها، أو تقيأ.

ارتدت لباس نومها، وهي ترتعد من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وأسرعت إلى السرير، وهي تشعر بالقرف، واستلقت هناك في الظلمة، في الغرفة نفسها مع نويل، تفكر في كل ما حصل. حاولت أن تطمئن نفسها بأن هذه قد تكون بداية علاقة مهمة في حياتها. لكنها لم تكن واثقة مما يعنيه كل ذلك، أو من جدية بول براون تجاهها. كانت حريصة كفاية على التفكير في ما إذا كان جدياً في ما قاله. أملت أن يكون كذلك، لكنها سمعت قصص فتيات أخريات سلكن الطريق نفسه، ثم تم رميهن على

يــد الــشباب الذين أجبروهن على فعل ذلك. لكن بول لم يجبرها على أي شــيء. هــذا هو الجزء المخيف. أرادت فعل ذلك معه. هذا ما يصدم في الأمــر. إنها ليست آسفة الآن، إنها خائفة فقط مما قد يحصل. استلقت على السرير، مذعورة، لساعات، تدعو كي لا تحمل.

سألتها أمها إذا كانت قد أمضت وقتاً جيداً في صباح اليوم التالي في أثــناء تناول الفطور، وقالت لها نعم. المضحك هو أن أحداً لم يشك في أي شــيء، فــيما توقعت ماريبيث أن يرى الجميع أنها أصبحت فجأة شخصاً مختلفاً، نتيجة الشعور الذي في داخلها. إنها الآن امرأة ناضجة، وقد فعلتها، وهــي مغرمة بالشاب الأكثر وسامة في كل المدرسة. يصعب التصديق أن أحداً لم يلاحظ شيئاً.

كان راين في مزاج سيئ، وتشاجرت نويل مع أمها بسبب شيء فعلته اللــيلة الماضــية. ذهــب والدها إلى المرأب، بالرغم من أنه نهار عطلة، وقالــت أمهــا إنها تعاني من صداع. لكل واحد منهم حياته الخاصة، ولم يلاحــظ أحد أن ماريبيث تحولت من شرنقة إلى فراشة، وكانت السندريلا لفارس الأحلام.

بــدت وكأنها تطير في الهواء طوال نهاية الأسبوع، لكنها عادت إلى الأرض بقوة يوم الاثنين، حين رأت بول يمشي في المدرسة ويضع ذراعــه حــول ديبــي فلاورز. وبحلول الظهر، عرف الجميع القصة. تشاجر هو وديبي لأن أحداً قال لها إنه خرج مع فتاة أخرى خلال عطلة المــيلاد ولــم تستطع ديبي تحمل ذلك. لا يعرف أحد من تكون، لكنهم يعــرفون الآن أن ديبي كانت غاضبة جداً، ويوم الأحد، عالجا الأمور وعــادا مجــدداً إلــى بعضهما. شعرت ماريبيث أن قلبها يتحطم على الأرض، ولم تره وجهاً لوجه إلا يوم الأربعاء. كان لطيفاً معها، وتوقف لقول شيء ما لها، فيما حاولت إبعاد وجهها عنه حين كانت تضع شيئاً في خزانتها. أملت ألا يراها، لكنه كان يبحث عنها منذ أيام، وسرّ لأنه عثر عليها.



"هل نستطيع الذهاب والتحدث في مكان ما؟"، سألها بصوت منخفض مليء بالعاطفة الصرفة.

"لا أســتطيع... أنــا آســفة... تأخرت على صفي... ربما في وقت لاحق".

"لا تفعلــي معــي ذلك". أمسك ذراعها برفق. "اسمعي. أنا آسف لما حصل... أقصد ذلك فعلاً... فعلاً... لم أشأ فعل ذلك إلا حين... آسف... إنها مجنونة، لكننا مع بعضنا منذ وقت طويل. لم أشأ جعلك تتألمين". كادت تبكــي حــين لاحظت أنه يقصد ذلك فعلاً. لماذا هو رجل جيد؟ لكن الأمر كان أسوأ لو لم يكن كذلك.

"لا تقلق بشأن ذلك. أنا بخير".

"لا، لست كذلك"، قال بتعاسة، وهو يشعر بالذنب تجاهها.

"بلى أنا بخير"، قالت، ثم انهمرت الدموع فجأة من عينيها، وتمنت لو أن كل شيء مختلف. "اسمع، انسَ الأمر".

"تذكــري فقط أنني موجود إذا احتجتِ إليّ". تساءلت لماذا قال ذلك، وأمضت الشهر التالي وهي تحاول نسيانه. كانت تصادفه في كل مكان، في الممــرات، وخــارج النادي الرياضي. فجأة، بدا وكأنها لا تستطيع تفاديه. وفي بداية شهر مايو، بعد ستة أسابيع من الحفلة الراقصة، أعلن هو وديبي أنهما مخطوبان وسيتزوجان في شهر يوليو، بعد التخرج. وفي اليوم نفسه، اكتشفت ماريبيث أنها حامل.

تأخرت الدورة الشهرية أسبوعين فقط، لكنها تتقيأ باستمرار، وأصبح كل جسمها مختلفاً. بدا ثدياها فجأة ضخمين وكانا متورمين ويؤلمانها، وبدأ خــصرها يتمدد بين ليلة وضحاها، وفي كل لحظة من اليوم، كانت تشعر بغثــيان كبيــر. لم تصدق أن جسمها يمكن أن يتغير بهذه السرعة. عرفت أنها لن تستطيع إخفاء الأمر إلى الأبد.

لــم تعرف ما يجب عليها فعله، أو من تخبر، أو إلى أين تذهب، ولم تــشأ إخــبار بول. لكن أخيراً في نهاية شهر مايو، ذهبت إلى طبيب أمها

وتوسلته لعدم إخبار أهلها. بكت كثيراً حتى وافق، على مضض، وأكّد لها أنها حامل. توقع أن تكون حاملاً منذ شهرين. تمدّدت على الكرسي الخاص بالفحص، تتشبث بالشرشف، فيما الدموع تنهمر على وجنتيها، وسألها الطبيب عما تنوي القيام به.

"هل تعرفين من هو والد الطفل؟" سألها، وبدت ماريبيث مصدومة بالسؤال.

"طبعاً"، قالت وهي تشعر بالخجل والألم. لا توجد طريقة سهلة للخروج من هذه المعضلة.

"هل سيتزوج بك؟". هزّت رأسها، وبدا شعرها الأحمر مثل النار المستعرة، وعيناها مثل محيطين أخضرين. لم تستوعب بعد التأثير الكامل لذلك، بالرغم من أن فكرة إجبار بول على الزواج بها، حتى لو استطاعت، مغرية جداً.

"إنه مخطوب من فتاة أخرى"، قالت بصراحة وأومأ الطبيب برأسه.

"قد يغير مشاريعه نظراً إلى الظروف. يفعل الرجال ذلك". ابتسم بحزن. شعر بالأسف عليها. إنها فتاة لطيفة، ولا شك في أن هذا سيغير حياتها إلى الأبد.

"لن يغير مشاريعه"، قالت ماريبيث بهدوء. بالرغم من أنه قال لها إنه سيكون متوافراً إذا احتاجت إليه. حسناً، إنها بحاجة إليه الآن. لكن هذا لا يعني أنه سيتزوجها لمجرد أنها حامل منه.

"ماذا ستقولين لأهلك، ماريبيث؟"، سأل بحزن، وأغمضت عينيها وهي تشعر بالرعب لمجرد التفكير في كيفية إخبار والدها.

"لا أعرف بعد".

"هل تودّين أن أتحدث أنا معهما؟". إنه عرض لطيف، لكنها لم تتخيل السماح له بإخبارهما نيابة عنها. عرفت أنها ستضطر هي إلى فعل ذلك عاجلاً أم آجلاً.



"ماذا عن... ماذا عن التخلص منه؟"، سألت بشجاعة. لم تكن واثقة تماماً من كيفية القيام بذلك، سوى أنها تعرف أن بعض النساء يتخلصن من أطفالهن. سمعت أمها وعمتها تناقشان الأمر ذات مرة، وتهامستا كلمة "إجهاض". قالت أمها إن المرأة كادت تموت، لكن ماريبيث عرفت أن هذا أفضل من مواجهة والدها.

إلا أن الطبيب قطّب حاجبيه على الفور. "هذا مكلف وخطر وغير قانوني. ولا أريد سماع كلمة أخرى منك عن هذا الموضوع أيتها الشابة. في عمرك، أفضل حل هو إنجاب الطفل وعرضه للتبني. هذا ما تفعله معظم الفتيات في مثل عمرك. يفترض أن يولد الطفل في شهر ديسمبر. يمكنك الذهاب إلى مقر ناذرات العفة ما إن يظهر الحمل عليك، والبقاء هناك حتى إنجاب الطفل".

"تقصد التخلي عنه؟". جعل الأمر يبدو بسيطاً جداً، وشكت نوعاً ما في أن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك، وأن هناك أموراً أكثر من تلك التي يتحدث عنها.

"هذا صحيح"، قال وهو يشعر بالأسف عليها. إنها شابة وساذجة جداً. لكنها تملك جسم امرأة مكتملاً، وقد أوقعها ذلك في المشاكل. "لست مضطرة إلى الاختباء قبل فترة. لن يظهر الحمل عليك ربما قبل شهر يوليو أو أغسطس، أو ربما بعد ذلك. لكن عليك إخبار والديك". أومأت ماريبيث برأسها، وهي تشعر بالخدر، لكن ماذا ستقول لهما؟ أنها أقامت علاقة مع شاب لا تعرفه على المقعد الأمامي لسيارته ليلة الحفلة الراقصة، وأنه لن يتزوجها؟ قد ترغب أمها أيضاً بالاحتفاظ بالطفل. لا تستطيع تخيل أي شيء من ذلك، أو إخبارهما، فارتدت ثيابها مجدداً وغادرت العيادة. وعدها بعدم قول أي شيء لوالديها، حتى تفعل هي، وصدّقته.

بحثت عن بول في المدرسة بعد ظهر ذلك اليوم. التخرج بعد أسبوعين، وعرفت أنه لا يجوز فرض أي ضغط عليه. إنها غلطتها بقدر ما هي غلطته، أو هكذا تظن، لكنها لم تنسَ ما قاله لها.

جعلـــته يـــسير قربها ببطء حول ملعب المدرسة، وجلسا على المقعد الخـــشبي خلـــف الـــنادي الرياضـــي، حيث التقيا للمرة الأولى ليلة الحفلة الراقصة، وأخبرته.

"آه، اللعـــنة. لـــست كذلك". أصدر تنهيدة طويلة وبطيئة، وبدا تعيساً جداً.

"بلـــى. أنا آسفة، بول. لا أعرف حتى لماذا أخبرك. فكرتُ فقط أنه علـــيك أن تعرف". أومأ برأسه، وهو عاجز عن قول أي شيء في الوقت الحاضر.

"سأتزوج خلال ستة أسابيع. ستقتلني ديبي إذا عرفت. أخبرتها أن كل ما سمعته عنك مجرد أكاذيب وإشاعات".

"مـــاذا سمعت؟". بدت ماريبيث فضولية، ومحتارة لأن ديبي سمعت شيئاً عنها.

"إننـــي خرجت معك تلك الليلة. أخبرها كل من رآنا في مطعم ويلي. كـــنا منفصلين. هذا منطقي. أخبرتها أن المسألة لم تكن مهمة ولا تعني أي شيء". لكن آلمها سماعه يقول ذلك. ديبي هي الشخص الذي يهمه، وليس هي.

"وهـــل كان يعني ذلك أي شيء؟"، سألت ماريبيث تحديداً. أرادت أن تعرف. لديها الحق الآن في أن تعرف. ستنجب طفله.

نظر إليها ملياً لبعض الوقت، ثم أومأ برأسه. "عنى الأمر شيئاً حينها. ربمـــا لـــيس بقـــدر مـــا بدا، لكنه كان شيئاً. ظننت أنك مذهلة. لكن ديبي طاردتنـــي طـــوال نهاية الأسبوع وبكت. قالت إنني أعاملها مثل القذارة، وأكذب عليها، وأدين لها بشيء أكثر من ذلك بعد ثلاث سنوات، ولذلك قلت لها إنني سأتزوجها بعد التخرج".

"هـــل هذا ما تريده؟"، سألت ماريبيث، وهي تحدق إليه، متسائلة من يكون، وما يريده فعلاً. لا تظن فعلاً أن ديبي ملائمة له، وتساءلت إذا كان يعرف ذلك.



"لا أعرف ما أريده. لكنني أعرف أنني لا أريد طفلاً".

"ولا أنا". إنها واثقة من ذلك. لم تكن واثقة من أنها تريد واحداً، لكنها لا تـــريد الآن واحداً بكل تأكيد، وخصوصاً منه. مهما كان وسيماً، بدا لها جلياً فيما جلسا هناك أنه لا يحبها. لا تريد إجباره على الزواج بها، حتى لو وافق على ذلك، وهي أكيدة من أنه لن يفعل هذا. لكنها لا تريد رجلاً يكذب بـــشأنها، أو يدّعـــي أنه لم يخرج أبداً معها ولا يهتم بها. تريد شخصاً، في الـــنهاية، يكـــون فخوراً بحبها، وينجب طفلاً منها. ليس شخصاً أجبر على الزواج بها.

"لماذا لا تتخلصين منه؟"، سأل بصوت هادئ، ونظرت إليه ماريبيث بحزن.

"هـــل تقـــصد التخلـــي عنه؟". هذا ما كانت تنوي فعله، وما اقترحه الطبيب عليها.

"لا. أقـــصد الإجهاض. أعرف فتاة في الثالث ثانوي فعلت ذلك العام الماضـــي. أســـتطيع سؤالها. أستطيع ربما منحك بعض المال. هذا مكلف جداً".

"لا، لا أريد ذلك بول". لم يشجعها الطبيب على التفكير أكثر في هذا الخـــيار. وشـــعرت بعدم الارتياح هي أيضاً، بالرغم من أنها تعرف القليل فقط، لأن التخلص منه قد يعني جريمة.

"هـــل ستحتفظين به؟"، سألها وهو يبدو مذعوراً. ماذا ستقول ديبي؟ ستقتله.

"لا، سأتخلى عنه"، قالت له. فكّرت كثيراً في ذلك. وبدا لها الحل الوحيد. "يقول الطبيب إنني أستطيع العيش مع نادرات العفة حين يظهر الحمل عليّ، ثم أعطـــيه لهنّ ليتم تبنيه من قبل أحد". ثم استدارت، وطرحت عليه سؤالاً غريباً: "هـــل تـــودّ رؤيته؟". لكنه هزّ رأسه، ثم استدار بعيداً. كره الشعور الذي ولّدته فـــيه، العجز والخوف والغضب. عرف أنه لم يكن على مستوى توقعاتها. لكنه لا يملك الشجاعة لتحمل مسؤوليته تجاهها. ولا يريد خسارة ديبي.

"أنا آسف، ماريبيث. أشعر أنني أحمق كبير". أرادت القول له إنه كذلك فعلاً، لكنها لم تستطع. أرادت القول له إنها تفهمه، لكنها لم تستطع فعل ذلك أيضاً، لأنها لا تفهمه. لا تفهم أي شيء. ماذا حصل لهما، ولماذا فعلا ذلك، ولماذا حملت، ولماذا سيتزوج من ديبي بدلاً منها، ولماذا ستختبئ مع ناذرات العفة وتنجب طفله. كل شيء خارج عن السيطرة.

جلسا بصمت لبعض الوقت بعد ذلك، ثم غادر، وعرفت أنها لن تتحدث إليه أبداً مجدداً. رأته مرة واحدة فقط، في اليوم الذي سبق ليلة التخرج، ولم يقل لها أي شيء. نظر إليها فقط، ثم استدار بعيداً، وعادت إلى المدرسة لوحدها، فيما الدموع منسابة على وجنتيها، وهي لا ترغب بإنجاب طفله. كل ذلك غير عادل، وبدأت تشعر بالمزيد من القرف كل يوم.

في الأسبوع الذي تلا انتهاء المدرسة، كانت راكعة فوق كرسي الحمام في أحد الأيام، تتقيأ، ونسيت إغلاق الباب وراءها، حين مرّ شقيقها ورآها.

"آسف، أختي... آه يا الله... هل أنت مريضة؟". بدا راين فوراً قلقاً عليها، ثم وبلمح البصر، حدّق إليها فيما كانت تتقيأ مجدداً وفهم. "اللعنة، أنت حامل". إنه بيان، وليس سؤال.

استلقت هناك، ورأسها متكئ على كرسي الحمام لوقت طويل، ثم وقفت أخيراً، وكان لا يزال يحدق إليها، ووجهه خالٍ من أي تعاطف وإنما مليء فقط بالاتهام. "سيقتلك بابا".

"وما الذي يجعلك واثقاً أنني حامل؟". حاولت التلاعب به، لكنه يعرفها جيداً.

"من الفاعل؟".

"ليس هذا من شأنك"، قالت فيما غمرها مجدداً إحساس بالغثيان، بسبب الخوف هذه المرة.

"من الأفضل أن تطلبي منه شراء بدلة جيدة، أو البدء بالركض. سيقتله أبي إذا لم يتصرف معك كما يجب".



"شكراً على النصيحة"، قالت ومشت ببطء خارج الحمام. لكنها عرفت الآن أن أيامها أصبحت معدودة. وكانت محقة.

أخبر راين والدها بعد ظهر ذلك اليوم، وجاء إلى المنزل بغضب كبير وكاد يخلع باب غرفة نومها. كانت مستلقية هناك على السرير، فيما نويل تستمع إلى الموسيقى وتقلّم أظافرها وتضع عليها الطلاء. سحب ماريبيث إلى غرفة الجلوس، ونادى أمها بصوت عالٍ. كانت ماريبيث تحاول التفكير في ما ستقوله لهم، لكنها ليست مضطرة الآن. فقد فعل راين ذلك نيابة عنها.

كانت أمها تبكي حين خرجت من غرفتها، وبدا راين متجهماً، كما لو أنه أخطأ هو أيضاً. طلب والدهما من نويل البقاء في غرفتها. وكان مثل ثور هائج يذرع غرفة الجلوس ذرعاً، وأخبر ماريبيث أنها مثل عمتيها، وتصرفت مثل ساقطة، وألحقت العار بهم جميعاً. ثم أراد أن يعرف مَن الفاعل. إلا أنها كانت مستعدة لذلك. لا تهتم لما سيفعلونه بها. لن تخبرهم.

رأت أن بول مثير ورائع، وكانت تودّ أن تغرم به، وتريد أن يغرم بها هو أيضاً. لكنه ليس مغرماً بها، وسيتزوج بفتاة أخرى. لا تريد أن تبدأ حياتها هكذا، في عمر السادسة عشرة، وتدمرها تماماً. تفضل إنجاب الطفل ومن ثم التخلي عنه. ولا يمكنهم إجبارها على إخبارهم.

"من الفاعل؟"، صرخ والدها في وجهها مجدداً. "لن أسمح لك بالخروج من هذه الغرفة ما لم تخبريني".

"إذاً، سنبقى هنا لوقت طويل"، قالت بهدوء. لقد فكّرت ملياً منذ أن اكتشفت أن والدها حتى لا يخيفها. بالإضافة إلى ذلك، لقد حصل الأسوأ الآن. إنها حامل. وهم يعرفون. ماذا يستطيعون أن يفعلوا بها؟

"لماذا لا تقولين لنا من يكون؟ هل هو أستاذ؟ شاب؟ رجل متزوج؟ أحد أصدقاء شقيقك؟ من هو؟".

"لا يهم. لن يتزوجني"، قالت بهدوء، وهي متفاجئة بوقوفها في وجه الإعصار الذي جسده والدها.

"ولِمَ لا؟"، سأل بغضب.

"لأنه لا يحبني، وأنا لا أحبه. الأمر بهذه البساطة".

"لا يبدو لي الأمر بسيطاً"، قال والدها وهو أكثر غضباً، فيما بكت أمها وشبكت يديها. شعرت ماريبيث بالذعر حين نظرت إليها. تكره إيذاء أمها. "يبدو وكأنك كنت تقيمين علاقة مع رجل ما، وأنت لا تحبينه. هذا أسوأ ما فعلته. حتى عمتاكِ أحبتا الرجلين اللذين أقامتا علاقتين معهما. تزوجتا منهما. تعيشان حياة محترمة وأنجبتا أولاداً شرعيين. وماذا ستفعلين بالطفل؟".

"لا أعرف. فكرت في أن أضعه للتبني إلا إذا...".

"إذا ماذا؟ تظنين أنه يمكنك الاحتفاظ بالطفل هنا، وجلب العار لنفسك ولنا؟ على جثتي وجثة أمك". نظرت إليها أمها بتوسل، وهي ترجوها لإصلاح هذه الكارثة، لكن ما من طريقة لفعل ذلك.

"لا أريد الاحتفاظ بالطفل، بابا"، قالت بحزن، فيما تلألأت الدموع أخيراً في عينيها. "أنا في السادسة عشرة، ولا أستطيع منحه أي شيء وأنا أريد حياة أيضاً. لا أريد التخلي عن حياتي لأنني لا أستطيع فعل شيء فيها. لدينا نحن الاثنان الحق في أكثر من ذلك".

"كم أنت نبيلة"، قال وهو غاضب من كلماتها الجريئة. "كان من الأفضل لك لو تحليت بالمزيد من النبل قبل أن تقومي بفعلتك. انظري إلى أخيك. يخرج مع الكثير من الفتيات، لكنه لم يجعل أياً منهنّ حاملاً. انظري إلى نفسك. أنت في السادسة عشرة وحياتك في المرحاض".

"ليس ضرورياً أن تكون الأمور بهذه الطريقة، بابا. أستطيع الذهاب إلى مقر ناذرات العفة وأقيم عندهنّ، ومن ثم أعود إلى المدرسة في شهر ديسمبر، بعدما أنجب الطفل. أستطيع العودة بعد عطلة الميلاد. يمكننا القول إنني كنت مريضة".

"حقاً؟ ومن تظنين أنه سيصدقك؟ هل تظنين أن الناس لن يتحدثوا؟ سيعرف الجميع. ستكونين عاراً، وكذلك نحن. ستكونين عاراً على كل هذه العائلة".



"إذاً ماذا تريدني أن أفعل بابا؟"، سألت بطريقة يائسة، وباتت الدموع الآن تنساب على وجنتيها. الأمر أصعب مما ظنّت، ولا توجد حلول سهلة. "ماذا تريدني أن أفعل؟ أموت؟ لا أستطيع إصلاح ما فعلته. لا أعرف ماذا أفعل. ما من طريقة لجعل الأمور أفضل". كانت تبكي بقوة، لكنه بدا غير متأثر. بدا جليدياً.

"عليك فقط إنجاب الطفل ومن ثم وضعه للتبني".

"هل تريدني أن أبقى مع ناذرات العفة؟"، سألت وهي تأمل أن يقول لها إنها تستطيع البقاء في المنزل. فالعيش في المقر بعيداً عن عائلتها أرعبها. لكن إذا طلب منها المغادرة، ليس لديها مكان آخر تذهب إليه.

"لا يمكنك البقاء هنا"، قال والدها بصرامة، "ولا يمكنك الاحتفاظ بالطفل. اذهبي إلى ناذرات العفة، وأنجبي الطفل، ثم عودي إلى المنزل". ثم وجه الضربة الأخيرة إلى روحها. "لا أريد أن أراك قبل ذلك الحين. ولا أريدك أن تري أمك أو أختك". ظنت لبرهة أن كلماته ستقتلتها. "ما فعلته هو إهانة بالنسبة إلينا، وإلى نفسك. لقد أذيت كرامتك، وكرامتنا. لقد خنت ثقتنا. لقد جلبت العار لنا، ماريبيث، ولنفسك. لا تنسي ذلك أبداً".

"لِمَ هو فظيع جداً ما ارتكبته؟ لم أكذب أبداً عليك. لم أؤذك أبداً. لم أخنك أبداً. كنت غبية جداً. مرة واحدة. وانظر إلى ما حصل لي. أليس هذا كافياً؟ لا أستطيع التهرب منه. سأعيش مع ذلك. سأتخلى عن طفلي. أليس هذا كافياً بالنسبة إليك؟ ما هو مقدار العقاب الذي يجدر بي تلقيه؟". كانت تبكي بقوة وبدت محطمة الفؤاد، لكنه بقي عديم الشفقة.

"هذا بينك وبين الله. أنا لن أعاقبك. هو سيفعل".

"أنت والدي. أنت ترسلني بعيداً عن هنا. تقول لي إنك لن تراني مجدداً إلا بعد أن أتخلى عن الطفل... تمنعني من رؤية أختي وأمي". وعرفت أن أمها لن تعارضه أبداً. إنها تعرف كم أمها ضعيفة، وكم هي عاجزة عن اتخاذ قراراتها، وكم تخاف منه. أقفلوا جميعاً الباب في وجهها، وقد فعل بول ذلك قبلهم. أصبحت وحيدة تماماً الآن.

"تستطيع أمك فعل ما تريده"، قال بنبرة غير مقتنعة.

"لا تفعل سوى ما تريده أنت"، قالت ماريبيث بتحدٍّ، فجعلته أكثر غضباً، "وأنت تعرف ذلك".

"أعرف فقط أنك ألحقت العار بنا جميعاً. لا تتوقعي الصراخ في وجهي، وفعل ما تريدينه، وجلب العار لنا جميعاً، وإحضار طفلك غير الشرعي إلى هنا. لا تتوقعي أي شيء مني، ماريبيث، قبل أن تدفعي ثمن خطاياك، وترتبي الفوضى التي أحدثتها. إذا لم تتزوجي بهذا الشاب، فلا أستطيع فعل أي شيء لك". استدار حينها، وخرج من الغرفة ثم عاد بعد خمس دقائق. لم تملك حتى القوة للعودة إلى غرفتها. أجرى اتصالين هاتفيين، واحداً بطبيبهم وآخر بمقر ناذرات العفة. سيدفع ثمانمئة دولار كلفة الإقامة والطعام ونفقاتها طوال ستة أشهر، وكذلك كلفة ولادتها بمساعدة الناذرات. أكدت الناذرات للسيد روبرتسون أن ابنته ستكون في أيدٍ أمينة، وأن ولادتها ستتم في المستوصف، على يد طبيب وقابلة قانونية. وسيعطى الطفل لعائلة حنونة، ثم تعود إليه ابنته بعد أسبوع من ولادة الطفل، ما لم تحصل أي مضاعفات.

وافق على إرسالها إليهن، ووضع المال في مغلف أبيض سلّمها إياه مع نظرة قاسية على وجهه. انكفأت أمها قبلاً مع دموعها إلى غرفة نومها.

"لقد أزعجت أمك كثيراً"، قال بصوت مليء بالاتهام، منكراً أي دور له في الألم الحاصل. "لا أريدك أن تقولي أي شيء لنويل. ستذهبين بعيداً. هذا كل ما تحتاج إلى معرفته. ستعودين بعد ستة أشهر. سآخذك بنفسي إلى المقر صباح غد. وضبّي أغراضك ماريبيث". أنبأتها نبرة صوته أنه يقصد فعلاً ما يقوله، وأحست بدمها يتجمد في عروقها. بالرغم من كل مشاكلها معه، يبقى هذا منزلها، وهذه عائلتها، وهؤلاء أهلها، وستُحرم الآن من كل ذلك. لن يساعدها أحد على تجاوز هذه الأزمة. تساءلت فجأة ما إذا كان يجدر بها إحداث جلبة أكبر مع بول، ربما كان في وسعه مساعدتها... أو



حتى الزواج بها بدلاً من الزواج بديبي. لكن الوقت تأخر الآن. يطلب منها والدها الرحيل. يريدها خارج المنزل في صباح الغد.

"ماذا أقول لنويل؟". بالكاد استطاعت ماريبيث إخراج الكلمات من فمها. كانت منقطعة الأنفاس بسبب حزنها على فراق أختها الصغيرة.

"قولي لها إنك ذاهبة إلى مدرسة. أخبريها أي شيء إلا الحقيقة. إنها صغيرة جداً لتعرف مثل هذه الأمور". أومأت ماريبيث برأسها، وهي تشعر بالخدر أخيراً، وكانت حزينة جداً للإجابة.

عادت ماريبيث إلى غرفة نومها حينها، وتفادت عيني نويل حين أحضرت حقيبتها الوحيدة. وضبّت فقط بعض الأشياء، بعض القمصان، وبعض السراويل وبعض الفساتين التي ستبقى جيدة لبعض الوقت فقط. أملت أن تعطيها الناذرات شيئاً لترتديه. فبعد فترة وجيزة، لن تبقى ثيابها مناسبة.

"ماذا تفعلين؟"، سألت نويل وهي تبدو مذعورة. حاولت الاستماع إليهم وهم يتجادلون، لكنها لم تستطع فهم ما يقولونه. إلا أن ماريبيث بدت وكأن شخصاً مات فيما كانت ترتجف، وأدارت وجهها نحو أختها الصغيرة.

"سأغيب لبعض الوقت"، قالت ماريبيث بحزن، وهي تريد إخبارها كذبة مقنعة، لكن الأمر قاسٍ جداً، وصعب جداً، ومفاجئ جداً. لا تستطيع تحمّل فكرة قول وداعاً، وبالكاد استطاعت تحمل سيل أسئلة نويل. في النهاية، أخبرتها أنها ستذهب بعيداً إلى مكان ما، إلى مدرسة خاصة، لأن علاماتها لم تكن جيدة كالمعتاد، لكن نويل تشبثت بها وبكت، وهي مذعورة لخسارة أختها الوحيدة.

"أرجوك لا تذهبي... لا تدعيه يرسلك بعيداً... مهما فعلت، لا يمكن أن يكون الأمر مريعاً إلى هذه الدرجة... مهما كان، ماريبيث، أسامحك... أحبك... لا تذهبي...". كانت ماريبيث الشخص الوحيد الذي تستطيع نويل التحدث إليه. فأمها ضعيفة جداً، ووالدها عنيد جداً ليصغي إليها، وشقيقها

يهتم فقط بنفسه وهو أحمق كبير. لديها فقط ماريبيث للاستماع إلى مشاكلها، ولن يكون لديها بعد الآن أحد. بدت المسكينة الصغيرة نويل تعيسة جداً فيما بكت الأختان طوال الليل، ونامتا في سرير واحد ضيق، وهما تتشبثان ببعضهما. وحلّ الصباح بسرعة. في تمام التاسعة، وضع والدها حقيبتها في شاحنته، ووقفت تحدق إلى أمها، وهي تريد منها أن تكون قوية كفاية لتقول له إنه لا يستطيع فعل ذلك. لكن أمها لن تتحداه أبداً، وتعرف ماريبيث ذلك. عانقتها بقوة لبرهة، متمنية لو تستطيع البقاء، ولو لم تكن حمقاء كثيراً، أو غير محظوظة هكذا.

"أحبك أمي"، قالت بصوت مخنوق فيما عانقتها أمها بقوة.

"سأذهب لرؤيتك، ماريبيث، أعدك".

استطاعت ماريبيث الإيماء فقط برأسها، عاجزة عن الكلام، فيما عانقت نويل، التي كانت تبكي علناً، وتتوسلها للبقاء معهم.

"صه... توقفي..."، قالت ماريبيث وهي تحاول أن تكون شجاعة فيما بكت هي أيضاً. "لن أغيب طويلاً. سأعود إلى المنزل في فترة الميلاد".

"أحبك ماريبيث"، صرخت نويل فيما ابتعدا عن المنزل. خرج راين أيضاً. لكنه لم يقل أي شيء. لوّح فقط بيده، ورافقها والدها في المسافة القصيرة التي تفصلها عن مقصدها.

بدا المقر هادئاً وموحشاً جداً بالنسبة إلى ماريبيث حين وصلا إليه، ووقف والدها قربها على الدرج فيما حملت حقيبتها الصغيرة.

"اعتني بنفسك ماريبيث". لم تشأ شكره على ما فعله. كان يمكن أن يكون أكثر لطافة، كان في وسعه أن يتفهّم. كان في وسعه أن يتذكر طيش المراهقة، أو ارتكاب خطأ بهذا الحجم الكبير، لكنه عاجز عن كل ذلك. لا يستطيع أن يتجاوز طباعه وقناعاته، علماً أنه وضع لنفسه حدوداً وقناعات صارمة.

"سأكتب لك بابا"، لكنه لم يجبها بأي شيء فيما وقفا هناك لبرهة طويلة، ثم أومأ برأسه.



"أخبري أمك عن أحوالك. ستقلق". أرادت أن تسأله ما إذا كان سيقلق هو أيضاً، لكنها لم تعد تجرؤ على سؤاله أي شيء.

"أحبك"، قالت بهدوء فيما نزل الدرج مسرعاً، ولم يلتفت أبداً للنظر إليها. رفع يداً واحدة فقط فيما ابتعد، ولم ينظر إلى الوراء أبداً، وضغطت ماريبيث على جرس المقر.

بدا الانتظار طويلاً جداً بحيث أرادت نزول الدرج والعودة إلى المنزل، لكن لا منزل لتعود إليه الآن. عرفت أنهم لن يقبلوا بها إلا بعد أن ينتهي كل شيء. أخيراً، جاءت ناذرة عفة شابة، وسمحت لها بالدخول. أخبرتها ماريبيث من تكون، ومع إيماءة بالرأس، أخذت الناذرة الشابة حقيبتها، وقادتها إلى الداخل، وأغلقت الباب الحديدي الكبير وراءهما.

# الفصل الثالث

كـــان مقـــر نـــاذرات العفة مكاناً بارداً ومظلماً وموحشاً، واكتشفت ماريبـــيث سريعاً أنه توجد فتاتان هناك للسبب نفسه أيضاً. كانتا من بلدتين مجاورتـــين، وارتاحت لإدراكها أنها لا تعرفهما. كانتا على وشك الولادة، في الواقع أنجبت إحداهما، وهي فتاة عصبية عمرها سبعة عشر عاماً، لقد أنجبت طفلها بعد وصول ماريبيث بيومين إلى المقر. إنها فتاة صغيرة، وقد تـــم إبعادهـــا بسرعة لإعطائها لأهل بالتبني كانوا في انتظارها. لم تشاهد الفتاة طفلتها أبداً. وبالنسبة إلى ماريبيث، بدت العملية كلها بربرية، كما لو أن سرها قذر ويجب إخفاؤه.

الفتاة الأخرى عمرها خمسة عشر عاماً، وتتوقع ولادة طفلها في أي لحظـــة. تناولت الفتاتان وجبات الطعام مع ناذرات العفة، وذهبتا إلى دار العـــبادة معهمـــا للدعاء، وكان يسمح لهما بالكلام فقط في أوقات وساعات معيـــنة. وصُـــدمت ماريبيث حين اكتشفت في يومها الثالث أن طفل الفتاة الأخـــرى ناجم عن علاقة سفاح قربى. إنها فتاة تعيسة جداً، وكانت خائفة جداً مما ينتظرها خلال الولادة.

فـــي الليلة الخامسة على وجود ماريبيث في المقر، استطاعت سماع صراخ الفتاة الأخرى. استمر صراخها طوال يومين فيما ركضت الناذرات فـــي كـــل مكان، وفي النهاية، تم اصطحابها إلى المستشفى حيث خضعت لعملية قيصرية. قيل لماريبيث، حين سألت، إن الفتاة لن تعود مجدداً، لكن الطفـــل ولـــد بخير، وعرفت عن طريق الصدفة أنه صبي. أصبح الأمر

موحشاً أكثر بالنسبة إليها حين غادرت الفتاتان، وبقيت ماريبيث وحدها مع الناذرات. أملت أن تصل خاطئات أخريات مثلها قريباً، وإلا لن يكون هناك أحد لتتحدث إليه.

كانت تقرأ الجريدة المحلية عند الإمكان، وبعد أسبوعين من وصولها، شاهدت إعلان زفاف بول وديبي. مجرد رؤية ذلك جعلها تشعر بوحدة أكبر، خصوصاً عندما علمت أنهما في شهر العسل، فيما هي هنا في السجن تدفع ثمن خطأ ارتكبته في ليلة واحدة على المقعد الأمامي لسيارته. بدا من غير العدل أبداً أن تتحمل العبء لوحدها، وكلما فكّرت في الأمر، عرفت أكثر فأكثر أنها لا تستطيع البقاء هنا.

ما من مكان تذهب إليه، ولا أحد لتكون معه. لكنها لا تستطيع تحمل القمع القوي هنا. كانت الناذرات لطيفات معها، وقد دفعت لهن مئة دولار. لا يزال معها سبعمئة دولار، وأمامها ستة أشهر تقريباً لتكون حيث تريد. لا تعرف إلى أين تذهب، لكنها عرفت أنها لا تستطيع البقاء محبوسة معهن، في انتظار وصول سجينات أخريات، ومرور الأشهر، وولادة طفلها، وإبعاده عنها، إلى أن تعود أخيراً إلى أهلها. التواجد هنا هو ثمن كبير تدفعه. أرادت الذهاب إلى مكان ما، والعيش مثل شخص حقيقي، والحصول على مهنة، وامتلاك أصدقاء. تحتاج إلى الهواء الطلق، والأصوات، والضجيج، والأشخاص. هنا، تشعر فقط بالقمع المستمر والإحساس الدائم أنها خاطئة كبيرة. وحتى لو كانت هكذا، فإنها تحتاج إلى القليل من النور والفرح في حياتها في أثناء انتظار طفلها. لا تعرف لماذا حصل هذا لها، لكن، ثمة درس ربما يجدر بها تعلّمه، ونعمة يجب مشاركتها، ولحظة من الزمن لا يجدر تبديدها. لا يفترض أن يكون الأمر مريعاً مثلما جعلته الناذرات يبدو عليه، وأخبرت المسؤولة بعد ظهر اليوم التالي أنها ستغادر. قالت إنها ستذهب لزيارة عمتها، وأملت أن تصدقها. لكن حتى لو لم تفعل، عرفت ماريبيث أنه ما من شيء يستطيع الآن وقفها. ستغادر.



خرجت من المقر فجر اليوم التالي، مع مالها، وحقيبتها الصغيرة، وإحساس كبير بالحرية. لا تستطيع العودة إلى المنزل، لكن العالم لها، لاكتشافه، لسبر أغواره. لم تشعر أبداً بمثل هذه الحرية أو القوة. لقد عاشت ألماً كبيراً قبلاً حين غادرت المنزل، وليس عليها الآن سوى إيجاد مكان للإقامة فيه حتى يولد طفلها. عرفت أن الأمر سيكون أسهل إذا غادرت البلدة، ولذلك مشت نحو محطة الباصات، واشترت تذكرة مفتوحة إلى شيكاغو. عليها عبور أوماها، لكن شيكاغو هي أبعد مكان استطاعت تخيله، وتستطيع استرداد ثمن البطاقة في أي مكان على طول الطريق. كل ما تريد فعله هو المغادرة، والعثور على مكان لنفسها خلال الأشهر الستة التالية حتى تنجب طفلها. انتظرت في محطة الباصات حتى بدأ أول باص إلى شيكاغو بتحميل ركابه. وفيما راقبت بلدتها الأم وهي تبتعد عنها، حين غادرت، لم تشعر بأي ندم. كل ما شعرت به فجأة هو الحماس للمستقبل. لا يعني لها الماضي كثيراً، تماماً مثل بلدتها. لا تملك أصدقاء هناك. لن تشتاق إلى أحد هناك باستثناء أمها وأختها. كتبت لكل منهما بطاقة بريدية من محطة الباصات، قبل أن تغادر، ووعدتهما بأن تعطيهما العنوان ما إن تستقرّ في مكانٍ ما.

"ذاهبة إلى شيكاغو آنستي؟"، سألها السائق، فيما جلست، وشعرت فجأة أنها ناضجة ومستقلة جداً.

"ربما"، قالت مع ابتسامة. تستطيع الذهاب إلى أي مكان، وفعل أي شيء. إنها حرة. لا تستجيب لأحد الآن، إلا لنفسها، وتهتم فقط للطفل النامي داخلها. مضى على حملها الآن ثلاثة أشهر ونصف، ولم يظهر أي شيء بعد، لكنها لاحظت أن جسمها يكبر. بدأت تفكر في ما ستقوله للأشخاص في المكان الذي ستصل إليه. ستضطر إلى شرح كيفية وصولها إلى هناك، وسبب ذلك، ولِمَ هي لوحدها، حين يكتشفون أنها حامل. عليها الحصول على وظيفة. لا تستطيع فعل الكثير. لكنها تستطيع تنظيف المنازل، أو العمل في مكتبة، أو حضانة الأطفال، أو ربما العمل كنادلة.

تـــرغب بفعل أي شيء طالما أنها في أمان. وإلى أن تعثر على وظيفة، لا تزال تملك المال الذي أعطاها إياه والدها لدفعه لقاء مكوثها في المقر.

توقفـــوا في أوماها بعد ظهر ذلك اليوم. كان الطقس حاراً، لكن هبّت نسمة خفيفة، وشعرت بالقليل من الغثيان نتيجة الرحلة الطويلة في الباص، لكـــنها أحــست بالتحـــسن بعدما تناولت سندويشاً. صعد ناس آخرون إلى الباص ونزلوا منه، وبدا أن معظمهم ينتقلون من بلدة إلى أخرى. كانت هي في أطول رحلة حين توقفوا تلك الليلة في بلدة صغيرة جميلة ونظيفة، وكان هـــناك الكثيـــر من الشبان في المطعم حيث توقفوا لتناول العشاء. تذكرت ماريبـــيث قلـــيلاً العشاء في مطعم ويلي، لكن جوّ المكان هنا أكثر لطافة، والمـــرأة التي خدمتها كانت ترتدي زيّاً داكناً مع ابتسامة كبيرة فيما قدّمت لماريبـــيث تشيزبرغر وميلكتشايك. كان البرغر رائعاً، لكن كوب الحليب صغير، وبدا أن الضحك والروح المرحة يعمّان أرجاء المكان. لقد بدا كلّ مـــن فـــي المكان سعداء، ورفضت ماريبيث المغادرة والعودة إلى الباص، لكـــنهم متجهون مباشرة إلى شيكاغو. فيما غادرت المطعم، رأت ذلك؛ ثمة لافتة صغيرة على النافذة تشير إلى أنهم يطلبون ندلاء. نظرت إليها لدقيقة، ثـــم عـــادت ببطء، متسائلة ما إذا كانوا سيعتبرونها مجنونة، أو سيصدقون القصة التي اخترعتها.

المـــرأة نفـــسها التي خدمتها نظرت إليها مع ابتسامة، متسائلة ما إذا نسيت شيئاً. بدت ماريبيث مترددة عندما وقفت هناك وانتظرت.

"أتـــساءل إذا... رأيـــت... اللافـــتة... كنت أتساءل بشأن الوظيفة. أقصد...".

"تقـــصدين أنك تريدين العمل"، ابتسمت المرأة الأخرى. "لا عيب في ذلـــك. أدفع دولارين في الساعة. ستة أيام في الأسبوع، عشر ساعات في اليوم. نتناوب على دوام العمل، لكي نقضي القليل من الوقت في المنزل مع أولادنا. هل أنت متزوجة؟".

"لا... أنا... نعم.. حسناً، كنت. أنا أرملة. قتل زوجي في... كوريا...".



"آســـفة". بـــدت أنهـــا تقصد ذلك فعلاً، فيما راقبت عيني ماريبيث. لاحظت أن الفتاة تريد فعلاً الوظيفة، واستلطفتها. بدت صغيرة جداً، لكن لا ضير أبداً في ذلك، فهذه هي حال الكثير من العمال.

"شكراً... إلى من أتحدث بشأن الوظيفة؟".

"إلـــيّ أنـــا. هل لديك خبرة؟". ترددت ماريبيث، وهي تحاول تأليف كذبة، ثم هزّت رأسها، متسائلة ما إذا كان يجدر بها إخبارها بشأن الطفل.

"أحـــتاج فعلاً إلى الوظيفة". كانت يداها ترتجفان فيما أمسكت بحقيبة يدها، على أمل الحصول على الوظيفة. أرادت فجأة البقاء هنا. أحست أنه مكان سعيد، وبلدة حيوية، وأحبتها.

"أين تعيشين؟".

"لا مكـــان بعـــد". ابتسمت، وبدت شابة جداً، مما أثر في قلب المرأة الأخـــرى. "وصـــلت للتو مع الباص. إذا أردتني، سأحضر حقيبتي وأعثر علـــى غـــرفة. أستطيع البدء غداً". ابتسمت المرأة الأخرى. اسمها جولي، وأحـــبت نظـــرات ماريبيث. ثمة شيء قوي وهادئ في الفتاة، كما لو أنها تملك المبادئ والشجاعة. يصعب تخمين وضعها، لكنها أحست بشيء جميل حيالها.

"اذهبـــي وأحضري حقيبتك من الباص"، قالت جولي هذا مبتسمة لها ابتـــسامة حـــنونة. "يمكنك البقاء عندي الليلة. ابني يزور أمي في دولوث. يمكـــنك استعمال غرفته، إذا استطعت تحمل الفوضى. عمره أربعة عشر عامـــاً وهو فوضوي كثيراً. ابنتي عمرها اثني عشر عاماً. أنا مطلّقة. كم عمـــرك؟"، ســـألتها، ولفظـــت كـــل العبارات دفعة واحدة تقريباً، فتحدثت ماريبـــيث بهـــدوء وأخبـــرتها أن عمرها ثمانية عشر عاماً، فيما ركضت لإحـــضار حقيبتها من الباص، وعادت بعد دقيقتين فقط، مبتسمة ومنقطعة الأنفاس.

"هل أنت واثقة من أنني لن أسبب لك الكثير من المشاكل إذا أمضيت الليلة معك؟". كانت متحمسة وسعيدة.

"على الإطلاق". ابتسمت لها جولي ابتسامة عريضة فيما أعطتها مئزراً. "هيا، اذهبي إلى العمل. يمكنك خدمة الطاولات معي حتى أقفل عند منتصف الليل". بقيت فقط ساعة ونصف الساعة، لكن العمل مرهق، حمل الصواني الكبيرة والطلبات الثقيلة. لم تصدق ماريبيث كم كانت متعبة حين أقفلوا المطعم. ثمة أربع نساء يعملن هنا، وبعض الشباب، معظمهم في الثانوية، يخدمون الطاولات. معظم الشباب في عمر ماريبيث تقريباً، فيما النساء في الثلاثين والأربعين من العمر. أخبروها أن صاحب المطعم تعرض لنوبة قلبية ويأتي الآن فقط في الصباح وفترات ما بعد الظهر. لكنه يدير عملاً جيداً، ويتولى ابنه طهو معظم الطعام. قالت جولي إنها خرجت معه مرات قليلة، وإنه رجل جيد، لكن لم يحصل أي شيء بينهما. لديها الكثير من المسؤوليات في حياتها بحيث لا تملك الاهتمام أو الوقت للرومنسية. لديها ولدان، وتأخر زوجها السابق خمس سنوات في دفع مستحقاته لولديه. قالت إنها تحتاج إلى كل فلس لتلبية احتياجات ولديها، ودفع فواتير أطبائهما، والحؤول دون حرمانهما، من دون ذكر الأشياء الأخرى التي يريدانها أو يحتاجان إليها.

"تربية الأولاد لوحدك ليست مزحة"، قالت بجدية فيما اصطحبت ماريبيث معها إلى المنزل. "عليهم أن يشرحوا لك ذلك جيداً قبل أن تطلّقي من زوجك. دعيني أقول لك إن الأولاد لا يخلقون لتتم تربيتهم من قبل طرف واحد. تصابين بالصداع، تصابين بالمرض، بالتعب، ولا أحد يهتم، وأنت فقط أمام أولادك. ينتهي كل شيء على كتفيك. لا أملك عائلة هنا... الفتيات في المطعم لطيفات فعلاً في مساعدتي. يتولين الاهتمام بالولدين حين أخرج، ويسمحن لي بترك الولدين عندهن إذا كنت على موعد مهم جداً. أحد الشبان، زوج مارتا، يأخذ ابني معه إلى صيد السمك كلما سنحت له الفرصة. تعني لي هذه الأمور كثيراً. لا يمكنك فعل كل شيء لوحدك. الله يعلم كم أحاول. أظن أحياناً أنني سأموت".



كانت ماريبيث تستمع باهتمام، واستوعبت تماماً الحكمة في كلمات جولي. مرة جديدة، وجدت نفسها راغبة بإخبار جولي عن الطفل، لكنها لم تفعل.

"من المؤسف فعلاً أنك لم تنجبي أولاداً أنت وزوجك"، قالت جولي بحنان، كما لو أنها تقرأ أفكارها. "لكنك صغيرة جداً. ستتزوجين مجدداً. بالمناسبة، كم كان عمرك عندما تزوجت؟".

"سبعة عشر عاماً. مباشرة بعد خروجي من الثانوية. مضى على زواجنا عام واحد فقط".

"هذا فعلاً حظ سيئ، حبيبتي". ربّتت على يد الفتاة الشابة، وركنت سيارتها أمام المبنى. إنها تعيش في شقة صغيرة في الجهة الخلفية، وكانت ابنتها الصغيرة نائمة حين دخلت جولي. "أكره تركها لوحدها، في العادة، يكون أخوها موجوداً هنا، ويهتم الجيران بها، إنها بالفعل مستقلّة. كما تأتي معي أحياناً إلى المطعم، إذا اضطررت إلى ذلك. لكنهم لا يحبون هذا". إنه توضيح جيد لكيفية الاهتمام بالأولاد لوحدها، ولم تجعل الأمر يبدو سهلاً. إنها وحيدة منذ عشرة أعوام، حين كان الولدان في عمر السنتين والأربع سنوات، وتنقلت قليلاً في أمكنة عدة، لكنها أحبت المكان هنا وقالت إن ماريبيث ستفعل ذلك أيضاً. "إنها بلدة صغيرة جميلة، فيها الكثير من الأولاد المحترمين، والأشخاص الجيدين الذين يعملون في الثانوية. نشاهد الكثير منهم في مطعم جيمي دي، والكثير من الأولاد. سيحبونك".

أرشدت ماريبيث إلى موقع الحمام وكذلك غرفة نوم ابنها. اسمه جيفري وسيغيب أسبوعين. قالت جولي إنه باستطاعة ماريبيث البقاء معها ريثما تعثر على غرفة. وإذا اضطر الأمر، تجعل ابنتها تنام معها حين يعود جيف، وتمنحها غرفة جيسيكا، لكن مع توافر مساكن للطلاب، ستعثر حتماً على مسكن ما لها.

كانت محقة. ففي ظهر اليوم التالي، عثرت ماريبيث على غرفة صغيرة رائعة في منزل شخص ما. إنها مزينة بالأزهار وردية اللون،

وهي غرفة صغيرة جداً، لكنها حميمة وفيها الكثير من نور الشمس، وبدل إيجارها معقول. وهي تبعد فقط مسافة ستة مبانٍ عن مطعم جيمي دي، حيث ستعمل. شعرت وكأن كل شيء بدأ يناسبها. لقد مضى على وجودها هنا ساعات قليلة فقط، لكنها شعرت بالسعادة. بدا وكأنها تعرف أنه كان يجدر بها التواجد هنا.

أرسلت إلى أهلها بطاقة بريدية وهي في طريقها إلى العمل، مع عنوانها، ومثلما تفعل دوماً، فكّرت في بول مجدداً، وعرفت أنه لا جدوى من التفكير فيه. تساءلت لكم من الوقت ستستمر في التفكير فيه.

في مطعم جيمي دي ذلك اليوم، أعطتها إحدى العاملات بدلة وردية اللون مع كمين قصيرين أبيضين، ومئزراً أبيض نظيفاً. وبدأت تأخذ الطلبات بعد الظهر. نظر إليها الكثير من الشباب، وعرفت أن الطاهي فعل ذلك أيضاً، لكن أحداً لم يتفوه بكلمة غير لائقة. كان الجميع ودودين ومهذبين، وعرفت أن كل النساء الأخريات تهامسن في ما بينهن أنها أرملة. صدقنها أيضاً. لم يخطر لأي منهن عكس ذلك.

"كيف الحال، صغيرتي؟"، سألتها جولي في وقت متأخر من بعد الظهر، وهي غارقة بعملها. لقد عملت بكدّ، وكانت لطيفة مع الجميع، وبدا من السهل ملاحظة استلطاف الزبائن لها. سألها بعضهم عن اسمها، وبدا أن الزبائن الشباب أُعجبوا فعلاً بها. وأحبها جيمي أيضاً. جاء إلى المطعم ذلك اليوم، وأعجبه ما رآه. إنها ذكية، ومرتبة، وقال إنها صادقة بمجرد النظر إليها عن كثب. إنها جميلة أيضاً، وقد أحب ذلك في المطعم. لا يريد أحد النظر إلى شخص عجوز ومقرف، يرمي القهوة في وجه الزبائن ولا يريد فعلاً التواجد هنا. يريد جيمي من كل العاملات لديه، الشابات والمتقدّمات في السن، أن يبتسمن ويكنّ سعيدات. أراد جعل الناس يشعرون بالارتياح. مثل جولي والأخريات. والآن ماريبيث. بذلت جهداً حقيقياً، وأحبت عملها. كانت متحمسة لوجودها هنا.



لكن ماريبيث شعرت بالإرهاق حين عادت إلى غرفتها الجديدة تلك الليلة، وذكّرت نفسها كم هي محظوظة لأنها عثرت على وظيفة وغرفة. تستطيع الآن متابعة حياتها. تستطيع حتى استعارة كتب من المكتبة ومتابعة دراستها. لن تسمح لذلك بتدمير حياتها. لقد قررت ذلك. هذه الأشهر هي مجرد انعطاف في حياتها، لكنها مصممة على عدم تضليل طريقها أو اتجاهها.

كانت تخدم الزبائن في الليلة التالية حين دخل شاب جدي، وطلب رغيف لحم. قالت جولي إنه يأتي غالباً لتناول العشاء.

قالت: "لا أعرف لماذا، لكنني أحسّ أنه لا يحب الذهاب إلى المنزل. لا يتحدث، لا يبتسم. لكنه مهذب دوماً. إنه شاب لطيف. لطالما أردت أن أسأله ماذا يفعل هنا، بدلاً من الذهاب إلى المنزل لتناول العشاء. ربما ليس لديه أمّ. حصل شيء هناك. لديه أكثر عينين حزينتين رأيتهما في حياتي. لماذا لا تذهبين لخدمته وتتعرفين إليه". دفعت ماريبيث قليلاً في اتجاهه، نحو طرف منضدة الطلبات. نظر إلى لائحة الطعام لدقيقة أو اثنتين قبل أن يقرر. لقد جرّب قبلاً كل ما يقدمونه، خصوصاً أن لديهم بعض الأطعمة المفضلة التي يحب دوماً طلبها.

"مرحبا. ماذا تريد أن تأكل؟"، سألت ماريبيث بخجل، وألقى عليها نظرة إعجاب متكتم.

"الرقم اثنان، شكراً. رغيف لحم وبطاطا مهروسة". تورّد خجلاً. أحب شعرها الأحمر، وحاول عدم التحديق إلى وجهها.

"سلطة، ذرة أو سبانخ؟". بقيت من دون أي تعابير.

"ذرة، شكراً"، قال وهو يحدق إليها. عرف أنه لم يرها هنا قبلاً، وهو الذي يأتي غالباً. يتناول العشاء ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً، وأحياناً في عطلات نهاية الأسبوع أيضاً. حصص الطعام كبيرة وجيدة ورخيصة. وحين توقفت أمه عن طهو الطعام، كانت هذه الطريقة الوحيدة التي يستطيع الحصول عبرها على عشاء محترَم.

"قهوة؟".

"لا، حليب. وفطيرة تفاح في نهاية الوجبة"، قال كما لو أنه يخشى أن تنفد الكمية، وابتسمت له.

"وكيف تعرف أنك ستتمكن من أكلها؟ نحن نقدم حصصاً كبيرة هنا".

ابتسم لها، "أعرف، أتناول الطعام هنا طوال الوقت. أنت جديدة، أليس كذلك؟". أومأت برأسها، وهي تشعر بالخجل للمرة الأولى منذ تواجدها هنا. إنه شاب لطيف، وشكّت في أن يكون في عمرها تقريباً، وأحست أنه عرف ذلك هو الآخر.

"نعم، أنا جديدة. انتقلت إلى هنا للتو".

"ما اسمك؟". كان صريحاً جداً وعفوياً جداً. لكن جولي محقة. ثمة شيء محبط في عينيه، بحيث تخاف من النظر إليهما، إلا إذا اضطرت إلى ذلك. ثمة شيء فيه شدّ ماريبيث إليه. بدا وكأنه قُدّر لها أن ترى من يكون وتعرف أكثر عنه.

"اسمي ماريبيث".

"أنا توم. سررت بلقائك".

"شكراً". عندئذ ذهبت لطلب عشائه، وعادت مع كوب الحليب. مازحتها جولي حينها، وقالت إنه لم يتحدث أبداً إلى أي كان بهذا المقدار منذ مجيئه إلى هنا.

"من أين أنتِ؟"، سألها حين عادت، وأخبرته. "ما الذي جعلك تنتقلين إلى هنا، أو هل يجدر بي طرح هذا السؤال عليك؟".

"الكثير من الأمور. أحب المكان. الناس لطفاء فعلاً. المطعم رائع. عثرت على غرفة جميلة قرب المطعم. كل شيء جيد". ابتسمت، وتفاجأت بسهولة تحدثها معه. وحين عادت مع عشائه، بدا مهتماً بالتحدث معها أكثر من الأكل.

أخذ وقتاً طويلاً في تناول فطيرته، وطلب قطعة أخرى وكوباً آخر من الحليب، وهذا أمر لم يفعله أبداً من قبل، وبدأ يخبرها الكثير عن صيد السمك في منطقة مجاورة، وسألها إذا جرّبت ذلك قبلاً.



لقد فعلت ذلك، قبل أعوام عدة مع والدها وأخيها، لكنها لم تكن جيدة أبداً في ذلك. أحبت فقط الجلوس هناك، فيما هما يصطادان السمك، وهي تقرأ أو تفكر.

"يمكنك المجيء معي ذات مرة"، قال لها، ثم تورّد خجلاً، متسائلاً عن سبب تحدثه معها إلى هذا الحد. لم يستطع رفع عينيه عنها منذ أن دخل إلى المطعم، ورآها للمرة الأولى.

ترك لها بقشيشاً كبيراً، ثم وقف لبرهة بطريقة غريبة أمام منضدة الطلبات. "حسناً، شكراً على كل شيء. أراك في المرة القادمة". ثم خرج. لاحظت كم هو طويل القامة، وكم هو نحيل وهزيل. إنه وسيم المظهر، لكنه لا يعرف ذلك على ما يبدو. وبدا صغيراً جداً. بدا لها أشبه بأخ أكثر من شاب تهتم به، لكن أياً كان، أو سيكون، أو حتى لو لم تره أبداً مجدداً، كان التحدث إليه أمراً مريحاً ولطيفاً.

جاء في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده، وخاب أمله كثيراً حين اكتشف أنها في يوم إجازة واشتاق إليها. ثم عاد مجدداً بعد عطلة نهاية الأسبوع.

"اشتقت إليك المرة الماضية"، قال لها فيما طلب الدجاج المقلي. لديه شهية كبيرة على الطعام، ويطلب دوماً عشاء كاملاً. بدا أنه ينفق معظم مصروفه على الطعام. يتناول كثيراً الطعام خارج المنزل، وتساءلت ماريبيث إذا كان يعيش مع أهله، ثم سألته أخيراً.

"هل تعيش لوحدك؟"، سألته بحذر، فيما وضعت أمامه الطبق، وملأت له كوب الحليب. لم تدوّن ذلك على الفاتورة. إنهم يعيدون ملء القهوة مجاناً للزبائن، ولن يفلس جيمي إذا دفع ثمن كوب حليب لزبون دائم مثل تومي.

"ليس تماماً. أعيش مع والديّ. لكن... إنهما... آه... كل واحد يفعل ما يحلو له. ولم تعد أمي تحب الطهو. ستعود إلى العمل هذا الخريف. إنها معلّمة. توقفت عن العمل لوقت طويل، لكنها ستعود إلى العمل بدوام كامل في الثانوية".

"وماذا تدرّس؟".

"اللغـــة الإنكليزية والعلوم الاجتماعية والأدب. إنها ممتازة. تعطيني دوماً فروضاً إضافية لإنجازها"، قال وهو يحرك عينيه يميناً ويساراً، لكنه بدا وكأنه لا يمانع ذلك تماماً.

"أنــت محظوظ. اضطررت إلى الابتعاد قليلاً عن المدرسة، وأعرف أنني سأشتاق إليها فعلاً".

"الجامعة أو الثانوية؟"، سألها باهتمام. ما زال يحاول تخمين عمرها. بدت أكبر من عمرها، لكنه أحسّ بطريقة ما أنها قريبة من عمره. ترددت لبرهة قبل الإجابة.

"الثانوية". تصوّر أنها في السنة الأخيرة ربما. "سأدرس قليلاً لوحدي إلـــى أن أعــود بعد الميلاد"، قالت بنبرة دفاعية، وتساءل عن سبب تركها المدرسة، لكنه قرر عدم سؤالها.

"أستطيع إعارتك بعض الكتب إذا أردت. حتى إنني أستطيع إحضار بعــض الأغــراض من أمي. إنها تحب ذلك. تظن أن العالم كله يجب أن يــتابع دروســاً مستقلة. هل تحبين المدرسة؟". لاحظ من نظرة عينيها أنها كانــت صـــادقة معه حين أومأت برأسها. ثمة نهم حقيقي فيهما، وشهية لم تـشبع أبداً كما يجب. في يوم إجازتها، ذهبت إلى المكتبة لاستعارة الكتب التي تساعدها على متابعة دراستها لوحدها.

"مـــا هـــي أكثر مادة تحبها؟"، سألته وهي ترفع أطباقه. طلب فطيرة التوت البري للتحلية. إنها أفضل فطيرة يصنعونها، وهو يحبها.

"اللغــة الإنكليــزية"، أجابها فيما وضعت أمامه فطيرة التوت البري، وأحــست بألم في ظهرها. لكنها أحبت الوقوف هناك والتحدث إليه. بدا أنه يــوجد دوماً الكثير من الأشياء ليقولاها لبعضهما. "الأدب الإنكليزي واللغة الإنكليــزية. أظن أحياناً أنني أحب التأليف. ستحب أمي ذلك على الأرجح. يتوقع مني أبي أن أذهب إلى العمل".

"وأي نوع من العمل؟"، سألته وهي محتارة. إنه شاب ذكي ووسيم المظهــر، لكــنه بدا وحيداً جداً. لا يأتي أبداً مع أصدقاء، ويبدو أنه لا



يــرغب أبداً بالعودة إلى المنزل. تساءلت عن حاله، وعن سبب وحدته الكبيرة.

"يعمل في بيع المحاصيل. بدأ جدي هذا العمل. كانا مزارعين. لكنهما بــدأا فـــي ما بعد ببيع المحاصيل من كل الأنواع. العمل ممتع جداً، لكنني أحب التأليف أكثر. قد أمارس مهنة التعليم مثل أمي". هزّ كتفيه حينها، وبدا صـــغيراً جــداً مجدداً. أحب التحدث إليها، ولم يمانع الإجابة عن أسئلتها. يملك هو أيضاً بعض الأسئلة، لكنه قرر الاحتفاظ بها لوقت لاحق. وقبل أن يغادر تلك الليلة، سألها متى ستكون في إجازة مجدداً.

"يوم الجمعة".

أومأ برأسه، متسائلاً ما إذا كانت ستُصدَم إذا طلب منها الخروج معه فـــي نـــزهة، أو الذهاب إلى بركة السباحة خارج البلدة. "هل تودّين القيام بشيء بعد ظهر يوم الجمعة؟ عليّ مساعدة أبي في الصباح. لكنني أستطيع المـــرور لاصـــطحابك قـــرابة الساعة الثانية. سيعيرني شاحنته. نستطيع الذهاب إلى بركة السباحة أو البحيرة. يمكننا الذهاب للصيد إذا أردت". بدا متفائلاً كثيراً فيما انتظر الجواب.

"أودّ ذلــك. مهمـــا كـــان خيارك". ثم أخفضت صوتها كي لا يسمع الآخرون، وأعطته عنوانها، ولم تتردد لدقيقة. بدا مثل الشخص الذي يمكن الوثوق به، وشعرت تماماً بالارتياح معه. عرفت من مجرد التحدث إليه أن تومي ويتاكر هو صديقها، ولن يفعل أي شيء يؤذيها.

"هــل أخذت منه موعداً غرامياً؟". سألتها جولي مع ابتسامة فضولية حــين غـــادر. قالــت إحدى الفتيات الأخريات إنها سمعته يدعو ماريبيث للــذهاب لـــصيد السمك، وكنّ جميعاً يضحكن ويقهقهن ويتأملن. إنها طفلة صـــغيرة، لكنهنّ أحببنها. وهي أحبتهنّ. كان شخصاً غامضاً بالنسبة إليهنّ منذ أن بدأ يأتي إلى المطعم في الشتاء الماضي. لم يقل أبداً أي شيء لهنّ، وإنما كان فقط يأتي ويطلب العشاء. إلا أنه أصبح حيوياً مع ماريبيث، وبدا أنه لا يتوقف أبداً عن الكلام.

"طبعاً لا"، قالت مجيبة عن سؤال جولي. "أنا لا أواعد الزبائن"، قالت تحديداً ولم تصدقها جولي في البداية.

"تعرفين أنه يمكنك القيام بأي شيء تريدينه. لا يمانع جيمي. إنه شاب ظريف وهو يستلطفك فعلاً".

"إنـــه مجرد صديق. هذا كل ما في الأمر. يقول إن أمه تكره الطهو ولذلك يأتي إلى هنا لتناول العشاء".

"حسناً، لا شك في أنه أخبرك قصة حياته، أليس كذلك؟".

"آه بـــالله عليك". ابتسمت ماريبيث، ودخلت المطبخ لإحضار صينية مـــن البرغـــر لمجموعة من الطلاب. لكن حين عادت مع الصينية الثقيلة، ابتسمت لنفسها، وهي تفكر في يوم الجمعة.



# الفصل الرابع

يـــوم الجمعة، سمح له والده بترك العمل في الساعة الحادية عشرة، وجاء لاصطحابها في الحادية عشرة والنصف. كانت ماريبيث تنتظره وهي ترتدي سروال جينز قديماً وقميصاً كبيراً كان لوالدها وتنتعل حذاء فروسيًا. رفعـــت الجينـــز حتى الركبتين تقريباً، وعقدت شعرها الأحمر الساطع في جديلتـــين. بـــدت وكـــأن عمرها أربعة عشر عاماً، وأخفى القميص الكبير بطنها النامي. لم يعد في وسعها إغلاق زمّام الجينز منذ أسابيع.

"مـــرحبا. أنهيت عملي في وقت أبكر مما توقعت. أخبرت أبي أنني ذاهـــب كـــي أصـــطاد السمك. رأى أنها فكرة رائعة وسمح لي بالذهاب". ساعدها على الصعود إلى الشاحنة، وتوقفا في طريقهما أمام متجر صغير لـــشراء بعض السندويشات للغداء. طلب تومي اللحم المشوي، وطلبت هي سمك الطون. كانت السندويشات كبيرة ومنزلية الصنع، واشتريا ست قنانٍ من الكولا وعلبة من الحلويات.

"هـــل من شيء آخر؟"، سأل تومي وهو متحمس لوجوده معها. إنها جمـــيلة جـــداً وحـــيوية جداً، وثمة شيء ناضج جداً فيها. فعدم العيش في المنـــزل والعمـــل فـــي وظيفة جعلاها تبدو ناضجة جدا وأكبر كثيراً من عمرها.

اشـــترت ماريبـــيث تفاحتـــين وشوكولاته، وأصرّ تومي على الدفع. حاولت مشاركته في الثمن، لكنه لم يسمح لها. بدا طويلاً ونحيلاً فيما لحق بها إلى الشاحنة، وهو يحمل الأغراض، ويتأمل طلتها بإعجاب.

"كـيف حصل أن تركت المنزل وأنت ما زلت صغيرة؟"، سألها فيما تـوجها إلــى البحيرة. لم يسمع رواية كونها أرملة. تصور ربما أن أهلها ماتوا أو حصل شيء مريع. فمعظم الشباب في عمرهم لا يتركون المدرسة ويبتعدون عن المنزل. ثمة شيء فيها أوحى له بأن هناك المزيد في القصة.

"أنا... آه... لا أعرف". نظرت خارج النافذة لوقت طويل، ثم نظرت إليه. "إنها قصة طويلة". هزّت كتفها وهي تفكر كم كان صعباً ترك المنزل والانتقال إلى مقر ناذرات العفة. كان المكان الأكثر اكتئاباً الذي ذهبت إليه فــي حــياتها، وتشعر بالسرور كل يوم لأنها لم تبقَ هناك. تشعر هنا على الأقــل بأنهــا حــية، ولــديها وظــيفة، وتهتم بنفسها، وقد التقت الآن به. يستطيعان ربما أن يكونا صديقين. بدأت تشعر أنها تملك حياة هنا. اتصلت بالمنــزل مرتين، لكن أمها بكت كثيراً، ولم يسمحوا لها بالتحدث مع نويل. وفــي آخــر مــرة اتصلت، قالت لها أمها إنه من الأفضل ربما أن تكتب الرســائل ولا تتــصل بهم. إنهم مسرورون لمعرفة أنها بخير، وتبلي بلاءً حسناً، لكن والدها لا يزال غاضباً كثيراً منها وقال إنه لن يتحدث معها قبل أن "تعالج مشكلتها". كانت أمها تشير إلى الطفل على أنه *مشكلة* ماريبيث.

تنهدت ماريبيث، وهي تفكّر في كل ذلك، ثم نظرت إلى تومي. لديه نظــرات حــادة وجمــيلة، وبدا شخصاً جيداً للتحدث إليه. "تشاجرنا بقوة وأجبرني والدي على ترك المنزل. أرادني أن أبقى في بلدتنا، لكنني قررت بعــد أســبوعين أننــي لا أستطيع ذلك. لذا، جئت إلى هنا وحصلت على وظــيفة". جعلــت كــل شــيء يبدو بسيطاً جداً، من دون إشارة إلى الألم والرعب والأسى التي شعرت بها نتيجة ذلك.

"لكــنك ســتعودين؟". بــدا مــرتبكاً. لقد أخبرته قبلاً أنها ستعود إلى المدرسة بعد الميلاد.

"نعم. عليّ العودة إلى المدرسة"، قالت بطريقة بديهية، فيما انحدرت الطريق في منعطفات اتجاه البحيرة. كانت عدّة الصيد في الشاحنة خلفهما.

"لماذا لا تذهبين إلى المدرسة هنا؟".



"لا أستطيع"، قالت وهي لا ترغب بالدخول في المزيد من التفاصيل. ولتغيير الموضوع قليلاً، نظرت إليه، متسائلة عن عائلته، ولماذا لا يرغب أبداً بالتواجد معهم.

"هــل لــديك إخــوة وأخوات؟"، سألت بطريقة عفوية، حين وصلا، وأدركت مجدداً أنها تعرف القليل عنه. أوقف المحرك، ونظر إليها، وساد الصمت لبرهة طويلة.

قــال بهدوء: "كان لديّ، آني. كانت في الخامسة. ماتت مباشرة بعد الميلاد". خرج من الشاحنة، ومن دون قول المزيد، أحضر عدّة الصيد فيما راقبــته ماريبيث، متسائلة ما إذا كان هذا هو الألم الظاهر جلياً في عينيه، ولهذا السبب لا يذهب أبداً إلى المنزل للتواجد مع أهله.

خــرجت من الشاحنة، ولحقت به إلى البحيرة. عثرا على بقعة هادئة في نهاية شاطئ رملي ونزع سرواله. كان يرتدي سروال سباحة قصيراً، وفــك أزرار قميصه فيما راقبته. فكرت لبرهة في بول، لكن لا يوجد أي شــبه بيــنهما. علــى الإطلاق. كان بول متكلف المظهر وناعماً، والرجل الأكثــر شهرة نوعاً ما. أصبح الآن متزوجاً، وبات جزءاً من حياة أخرى. كــل شــيء فــي تومي كامل ونقي. بدا بريئاً جداً، ولطيفاً كثيراً، وذهلت بمقدار استلطافها له.

جلست على الرمل قربه، فيما وضع الطعم في الصنارة.

"كيف كانت؟". كان صوتها ناعماً جداً، ولم يبعد نظره عما كان يفعله.

"آنــي؟". نظــر إلى الشمس، ثم أغمض عينيه لبرهة قبل النظر إلى ماريبــيث. لم يشأ التحدث عن الموضوع، لكنه شعر أنه يستطيع فعل ذلك معهــا. عرف أنهما سيكونان صديقين، لكنه أراد أكثر من ذلك منها. لديها ساقان رائعتان، وعينان رائعتان، وابتسامة تذيب قلبه، وجسد ممشوق. لكنه أراد أن يكــون صديقها أيضاً. أراد أن يفعل أشياء لها، أن يكون حاضراً حــين تحتاج إلى صديق، وأحسّ أنها تفعل ذلك الآن، بالرغم من أنه غير واثق من السبب. لكن، ثمة شيء ضعيف جداً فيها.

"كانت أجمل طفلة عاشت على هذه الأرض، مع عينين زرقاوين كبيرتين، وشعر أشقر مائل إلى البياض. كانت أحياناً شقية صغيرة. كانت تمازحني وتلحق بي إلى كل مكان. صنعنا رجل ثلج كبيراً قبل أن تموت...". امتلأت عيناه بالدموع وهزّ رأسه. إنها المرة الأولى التي يتحدث عنها أمام أي كان، والأمر صعب عليه. لاحظت ماريبيث ذلك.

"أشتاق إليها فعلاً"، اعترف بصوت بالكاد مسموع، فيما لمست ماريبيث ذراعه بأصابعها الرقيقة.

"لا بأس إذا بكيت... أراهن أنك مشتاق إليها كثيراً. هل مرضت لوقت طويل؟".

"ليومين. ظننا أنها تعاني فقط من الأنفلونزا أو الزكام أو شيء ما. كان التهاب السحايا. لم يستطيعوا فعل أي شيء. ماتت. صرت أفكر بعدها أنه كان يجب عليّ أن أموت أنا. أقصد، لماذا هي؟ لماذا فتاة صغيرة مثلها؟ عمرها فقط خمس سنوات، ولم تفعل أبداً أي شيء لإيذاء أحد. لم تفعل أي شيء سوى جعلنا سعداء. كنت في العاشرة حين ولدت، وكانت مرحة وناعمة وحنونة ولطيفة، مثل الجرو الصغير". ابتسم، وهو يفكّر فيها، واقترب أكثر من ماريبيث على الشاطئ الرملي، ووضع قصبة الصيد قربه. بطريقة مضحكة، شعر أنه من الجيد التحدث عنها الآن، كما لو أن هذا يعيدها مجدداً للحظات وجيزة. لم يعد يتحدث مع أي كان عنها. لم يتطرق أحد إلى موضوعها، وعرف أنه لا يستطيع قول أي شيء لوالديه.

"لا بد من أن والديك وجدا صعوبة في تقبل الموضوع"، قالت ماريبيث، بحكمة أكبر من سنوات عمرها، وكأنها تعرفهما.

"نعم، توقف كل شيء جميل حين ماتت. توقف والداي عن التحدث إلى بعضهما، أو حتى إليّ. لا يقول أحدهما أي شيء، أو يذهبان إلى أي مكان. لا أحد منهما يبتسم. لا يتحدثان أبداً عنها. لا يتحدثان أبداً عن أي شيء. بالكاد تطهو أمي الطعام. لا يعود والدي إلى المنزل قبل العاشرة مساء. يبدو وكأننا لا نستطيع التواجد في المنزل من دونها. ستعود أمي



إلى العمل بدوام كامل في الخريف. بدا وكأن الجميع استسلم لأنها رحلت. لم تمت لوحدها، وإنما متنا نحن أيضاً. أكره التواجد في المنزل الآن. الجو كئيب وحزين. أكره المرور أمام غرفتها إذ يبدو كل شيء فارغاً". أصغت ماريبيث إليه، ووضعت يدها في يده، وراحا ينظران معاً إلى البحيرة.

"هل تشعر أنها موجودة معك حين تفكر فيها مثلاً؟"، سألت وهي تشعر بالألم معه، وتشعر وكأنها عرفتها تقريباً. استطاعت تخيل الفتاة الصغيرة الجميلة التي أحبها كثيراً، وشعرت كم أصبح محطماً حين خسرها.

"أحياناً. أتحدث إليها أحياناً، في وقت متأخر من الليل. قد يكون هذا أمراً غبياً، لكنني أشعر أحياناً أنها تستطيع سماعي". أومأت ماريبيث برأسها لأنها كانت تتحدث إلى جدتها بهذه الطريقة بعد أن ماتت، وجعلها ذلك تشعر بالتحسن.

"أراهن أنها تستطيع سماعك، تومي. أراهن أنها تراقبك طوال الوقت. ربما هي سعيدة الآن... هناك بعض الأشخاص الذين يُقدّر لهم عدم البقاء في حياتنا. بعض الأشخاص يمرّون لفترة وجيزة ربما... ينجزون كل شيء بصورة أسرع منا جميعاً. لا يحتاجون إلى البقاء هنا لمئة سنة لإنجاز الأمور بشكل صحيح. يفعلون ذلك بسرعة كبيرة... هذا أشبه...". حاولت العثور على الكلمات الصحيحة لتقولها له، لكنها فكرت في هذا الأمر كثيراً، خصوصاً في الآونة الأخيرة. "يبدو كأن بعض الأشخاص يأتون إلى حياتنا لمنحنا شيئاً ما، هدية، نعمة، درساً يجب تعلمه، ولهذا السبب يكونون هنا. أراهن أنها علّمتكم شيئاً ما... عن الحب، والعطاء، والاهتمام بالآخر... تلك كانت هديتها لكم. لقد علّمتكم كل ذلك ثم رحلت. لا تحتاج ربما إلى البقاء أكثر من ذلك. أعطتكم الهدية، ثم استطاعت الانتقال... كانت روحاً مميزة... ستبقى معكم هذه الهدية إلى الأبد".

أومأ برأسه وهو يحاول استيعاب كل ما قالته له. هذا منطقي نوعاً ما، لكنه ما زال يتألم كثيراً. إلا أن التحدث إلى ماريبيث جعله يشعر بالتحسن. بدا وكأنها تفهم فعلاً ما عاشه.

"أتمنى لو أنها بقيت لوقت أطول"، قال مع تنهيدة. "أتمنى لو أنك استطعت التعرف إليها". ثم ابتسم. "كانت ستقول الكثير عما إذا كنت أستلطفك أم لا، وإذا كنتِ أجمل من الأخريات، وإذا كنتِ تسلتطفينني أم لا. كانت تتطوع دوماً بآرائها. في معظم الأوقات، كانت تثير جنوني".

ضحكت ماريبيث على الفكرة، وتمنت لو أنها استطاعت اللقاء بها. لكنها ما كانت لتلتقي به. ما كان ليذهب إلى المطعم لتناول الطعام ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً، ولبقي في المنزل مع عائلته، يتناول العشاء معهم.

"ماذا كانت ستقول عنا؟"، قالت ماريبيث ممازحة، وأحبت اللعبة، وأحبته، وشعرت بالارتياح للجلوس على الرمل قربه. لقد تعلمت بعض الدروس القاسية خلال الأشهر القليلة الماضية في مسألة بمن تثق، وبمن لا تثق، وأقسمت على ألا تثق بأحد مجدداً، لكنها عرفت في صميم روحها أن تومي ويتاكر مختلف.

"كانت ستقول إنني أستلطفك". ابتسم ابتسامة عريضة، وبدا خجولاً، ولاحظت النمش على جسري أنفه للمرة الأولى. كانت النقاط صغيرة جداً وذهبية تقريباً تحت أشعة الشمس الساطعة. "وهي محقة في ذلك. لكنها لم تكن كذلك عادة". إلا أن آني كانت ستشعر فوراً كم يستلطفها. ماريبيث أكثر نضجاً من الفتيات الأخريات اللواتي عرفهن في المدرسة، وهي أجمل فتاة رآها. "أظن أنها كانت ستحبك فعلاً". ابتسم برفق، واستلقى على الرمل ينظر إلى ماريبيث بإعجاب واضح. "ماذا عنك؟ هل لديك صديق في بلدتك؟". قرر الآن سؤالها كي يعرف كيفية تحديد الأمور، وترددت لبرهة. فكرت في إخباره عن كذبة الزوج الشاب في الحرب الكورية، لكنها لم تستطع. ستشرح له الأمر لاحقاً، إذا اضطرت إلى ذلك.

"لا. ليس تماماً".

"لكن نوعاً ما؟".

هزّت رأسها بحزم هذه المرة للإجابة. "خرجت مع شاب ظننت أنني أحبه، لكنني لم أكن على صواب. وعلى أي حال، تزوج منذ فترة".



بدا محتاراً. رجل أكبر سناً. "هل تهتمين؟ أقصد لأنه تزوج؟".

"ليس تماماً". كل ما تهتم به هو أنه تركها مع طفل. طفل لا تستطيع الاحتفاظ به، ولا تريد ذلك فعلاً. تهتم بذلك كثيراً، لكنها لم تقل شيئاً لتومي.

"كم عمرك بالمناسبة؟".

"ستة عشر عاماً" ثم اكتشفا لاحقاً أن أسابيع قليلة تفصل بين ذكرى ميلاد كلّ منهما. إنهما بالعمر نفسه، لكن وضعيهما مختلفان تماماً. مهما بدا له الأمر عديم الأهمية في الوقت الحاضر، فلا يزال جزءاً من عائلة، ويملك منزلاً، وسيعود إلى المدرسة في الخريف. أما هي فلم تعد تملك أياً من هذه الأمور، وفي أقل من خمسة أشهر، ستنجب طفلاً، طفل الرجل الذي لم يحبها أبداً. الأمر مخيف جداً.

مشى نحو البحيرة بعد برهة، وذهبت معه. وقفا معاً فيما اصطاد السمك، وحين ضجر أخيراً، عاد إلى الشاطئ وترك قصبة الصيد، وغاص في الماء، لكنها لم تنضم إليه. انتظرته على الرمل، وحين خرج، سألها عن سبب عدم نزولها للسباحة. إنه يوم صيفي حار، وشعر بروعة الماء البارد على جلده. كانت تحب السباحة معه، لكنها لم تشأ أن يرى بطنها المنتفخ. ارتدت قميص والدها طوال الوقت، ورفعت سروال الجينز قليلاً حين وقفا في الماء.

"هل تستطيعين السباحة؟"، سألها، وضحكت وهي تشعر بالسخافة.

"نعم، لكنني لا أرغب بالسباحة اليوم. أشعر دوماً بالقليل من الخوف من السباحة في البحيرات، فلا يمكنك أن تعرف أبداً ماذا يوجد في الماء معك".

"هذا سخيف. لماذا لا تنزلين؟ لا توجد أسماك، فأنا لم أصطد واحدة مثلما رأيت".

"ربما في المرة المقبلة"، قالت وهي ترسم أشكالاً في الرمل بأصابعها.

تناولا الغداء وهما يجلسان تحت ظل شجرة كبيرة، وتحدثا عن عائلتيهما وطفولتيهما. أخبرته عن راين ونويل، وكيف يعتبر والدها أن

باســتطاعة الأبناء الحصول على كل شيء، فيما لا تحتاج الفتيات إلى أي شـــيء باستثناء الزواج وإنجاب الأولاد. أخبرته كم تريد أن تصبح شيئاً ما في يوم من الأيام، مثل أستاذة أو محامية، أو كاتبة، وكيف أنها لا تريد فقط الزواج وإنجاب الأولاد مباشرة بعد التخرج من الثانوية".

قـــال مبتـــسماً: "تبدين مثل أمي، جعلت والدي ينتظرها ست سنوات بعدما أنهت الثانوية. ذهبت إلى الجامعة وحصلت على شهادتها، ثم علّمت لمدة سنتين، وبعدها تزوجا. ثم انتظرت سبع سنوات حتى أنجبتني، وعشر ســنوات أخــرى حتـــى أنجبت آني. أظن أنهما واجها صعوبة في إنجاب الأولاد. لكـــن التربية مهمة جداً بالنسبة إلى أمي. تقول إن الشيئين القيّمين الوحيدين هما العقل والتربية".

"أتمنـــى لـــو تفكـــر أمي بهذه الطريقة. إنها تفعل كل ما يطلبه منها والـــدي. تظـــن أنه لا حاجة إلى أن تذهب الفتيات إلى الجامعة. لا يريدني أهلـــي أن أذهـــب إليها. كانا سيسمحان لراين بذلك على الأرجح، لو أراد، لكـــنه أراد فقط العمل في المرأب مع والدي. كان يفترض به الذهاب إلى كوريا، لكن جرى تصنيفه في الفئة الرابعة، بالرغم من أن والدي يقول إنه ميكانيكي ممتاز". حاولت أن تشرح له أموراً لم تخبرها لأحد قبله. "تعرف، لطالما شعرت أنني مختلفة عنهم. لطالما أردت أشياء لا يهتم بها أحد آخر فـــي عائلتي. أريد الذهاب إلى المدرسة، أريد تعلُّم الكثير من الأشياء. أريد أن أكـــون فعـــلاً ذكية. لا أريد فقط الزواج وإنجاب مجموعة من الأولاد. أريد أن أحقق شيئاً من ذاتي. يظن الجميع أنني مجنونة". لكنه لا يظن ذلك، وأحـــسّت أنـــه ينتمـــي إلى عائلة تفكر تماماً مثلها. بدا وكأنها وصلت إلى المكان الخطأ حين ولدت، وواجهت الكثير من سوء التفاهم. "أظن أن أختي ســتفعل مـــا يريدونه في النهاية. إنها تشكو، لكنها فتاة جيدة. عمرها ثلاثة عـــشر عاماً، لكنها مجنونة بالشباب". من جهة أخرى، لم تحمل نويل من بول براون على المقعد الأمامي لسيارته، ولذلك شعرت ماريبيث أنها غير مؤهلة للتشهير بها.



"عليك فعلاً التحدث إلى أمي في يوم ما، ماريبيث. أظن أنك ستحبينها".

"أراهـــن علـــى ذلك". ثم نظرت إليه بفضول. "هل ستحبني؟ تشكك الأمهات عادة في صديقات أبنائهن"، خصوصاً هي، بعد بضعة أشهر. لا، لا يمكـــنها أبداً التعرف إلى السيدة ويتاكر. فبعد شهر تقريباً، لن تتمكن من إخفاء حملها، ولن ترغب برؤية تومي. لم تتصور بعد ماذا ستقول له، لكن علـــيها أن تقـــول له شيئاً ما في النهاية، حتى لو جاء إلى المطعم ورآها. ستخبره قصة الزوج الشاب الذي مات في كوريا، لكن القصة ستبدو غبية الآن. كانت تتمنى إخباره الحقيقة، لكنها عرفت أنها لا تستطيع. هذا مريع جـــداً، وغيـــر مسؤول البتة، ومسبب لصدمة كبيرة. إنها واثقة من أنه لن يـــرغب برؤيتها مجدداً. ستتوقف عن رؤيته بعد أسابيع قليلة، وتخبره أنها تواعد شخصاً آخر. وسيعود حينها إلى المدرسة، ويكون مشغولاً على أي حـــال، وربما يغرم بفتاة في الثانوية، فتاة تشجيع على الأرجح، فتاة مثالية يعرفها أهله...

"هـــاي... في ما تفكرين؟"، قاطعها. سافرت في تفكيرها مليون ميل، وهـــي تفكر في كل فتيات التشجيع اللواتي سيغرم بهنّ. "تبدين حزينة جداً ماريبـــيث. هل من خطب؟". عرف أنها تفكر في شيء ما، لكنه لم يعرف أبـــداً ما هو، خصوصاً وأنهما يعرفان بعضهما منذ فترة وجيزة، لكنه يودّ مساعدتها.

جعلـــته يشعر بالتحسن في ما يتعلّق بموضوع آني للمرة الأولى منذ أشهر، ويودّ ردّ الخدمة لها.

"لا شـــي... أحلم فقط. أظن... لا شيء مميز...". فقط طفل ينمو في داخلي، وهذا ليس مهماً.

"تـــريدين القـــيام بنـــزهة؟". مشيا حول البحيرة، وتوازنا أحياناً على الصخور، ومشيا أحياناً في الماء، وعبرا أحياناً الشاطئ الرملي. إنها بحيرة صـــغيرة وجميلة، وتحداها في إجراء سباق للعودة، حين وصلا إلى مسافة بعيدة من الشاطئ، لكن بالرغم من ساقيها الطويلتين والرشيقتين، لم تستطع

اللحاق به. ووقعا أخيراً جنباً إلى جنب على الرمل، واستلقيا هناك، ينظران إلى السماء، ويحاولان التقاط أنفاسهما ويبتسمان.

"أنـت جمـيلة جداً"، اعترف لها، وضحكت. بطريقة ما، الأمر أشبه بالتواجد مع شقيقها.

"كدت ألحق بك، لو لم أتعثر على تلك الصخرة".

"لم تفعلي... كنت بعيدة جداً".

"نعـم، وبدأت أنتَ قبلي بمسافة ثماني أقدام تقريباً... لقد خدعت...". كانت تضحك، وابتعد وجهاهما مسافة بضعة إنشات، فيما نظر إليها، وتأمل كل شيء فيها.

"لم أفعل!"، قال مدافعاً عن نفسه وهو يرغب كثيراً بتقبيلها.

"بلى فعلت... سأغلبك في المرة المقبلة...".

"نعـم... طبعاً... أراهن على أنك لا تستطيعين السباحة حتى". أحب ممازحتها، والاستلقاء قربها، والتواجد معها. لطالما فكّر كيف تكون العلاقة مـع امرأة. يحب أن يعرف... أن يكتشف معها... لكنها بدت ناضجة جداً وبـريئة جداً في الوقت نفسه بحيث خاف من لمسها. استدار بدلاً من ذلك واسـتلقى على بطنه فوق الرمل، كي لا تلاحظ كم يحبها. واستلقت قربه، على ظهرها، وأحست فجأة بأمر غريب. أحست بوخز، مثل شعور غريب، مـثل أجـنحة فراشة تصفق داخلها. الإحساس غريب تماماً، لكنها عرفت خلال لحظات ما هو... أولى علامات الحياة... إنه طفلها...

"هـل أنت بخير؟". كان ينظر إليها، قلقاً، وبدت لبرهة مضحكة قليلاً كما لو أنها مذهولة، وكانت شاردة الذهن.

"بخيـر"، قالـت بهدوء، وهي مذهولة فجأة ممّا حصل فيما استلقت هـناك. أعادها كل ذلك إلى حقيقتها مجدداً، إلى حقيقة طفلها، كم هو حي، وكم يمضي الوقت بسرعة، سواء أأرادت ذلك أم لا. فكرت في الذهاب إلى طبـيب للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، لكنها لا تعرف أحداً هنا، ولا تستطيع ربما تحمل تكاليف ذلك.



"تبدين أحياناً وكأنك بعيدة كثيراً"، قال وهو يتساءل في ماذا تفكر حين تبدو هكذا. يحب أن يعرف كل شيء عنها.

"أفكر أحياناً في أمور... مثل أهلي... أو أختي...".

"هل تتحدثين إليهم؟". كان محتاراً، فهناك الكثير من الأمور الغامضة فيها. كان كل شيء جديداً ومثيراً جداً.

"أكـتب لهـم. الأمـر أفضل بهذه الطريقة. لا يزال والدي يصاب بالجنون حين أتصل".

"لا بد أنك جعلته غاضباً كثيراً منك".

"إنها قصة طويلة. سأخبرك بها يوماً ما. ربما في المرة المقبلة". على افتراض أنه توجد مرة مقبلة.

"متـى إجازتـك التالية؟". لا يستطيع الانتظار للخروج معها مجدداً. أحب التواجد معها، ورائحة شعرها، ونظرة عينيها، وإحساس بشرتها حين أمـسك بـيدها أو لمـسها صدفة، والأشياء التي قالتها له، والأفكار التي تشاركاها. أحب كل شيء فيها.

"لـديّ إجـازة لساعتين بعد ظهر الأحد. لكن بعد ذلك لن أكون في إجازة قبل يوم الأربعاء".

"هـل تـريدين الـذهاب إلى السينما ليلة الأحد؟"، سألها بتفاؤل، وابتـسمت. لـم يـصطحبها أحـد إلى السينما قبلاً. معظم الشباب في المدرسـة لـم يهتموا أبداً بها، باستثناء مغفلين مثل ديفيد أوكونور. لم تـواعد فعـلاً أي رجل... ولا حتى بول... كان كل هذا جديداً عليها وأحبته.

"أودّ ذلك".

"سأصـطحبك مـن المطعم، إذا كان هذا يناسبك. وإذا أردت، يمكننا العودة إلى هنا يوم الأربعاء، أو يمكننا فعل شيء آخر إذا أردت.

"أحبـبت المكان هنا"، قالت وهي تنظر حولها، ومن ثم إليه، وكانت تقصد ذلك فعلاً.

لم يغادرا إلا عند السادسة عصراً حين بدأت الشمس تنخفض قليلاً في السماء، وعادا ببطء إلى البلدة. كان يودّ اصطحابها لتناول العشاء، لكنه وعد أمه بمساعدتها على تركيب خزانة كتب جديدة. وأصرّت على أنها ستحضر الطعام، وهذا أمر نادر هذه الأيام. قال إنه سيكون في المنزل في تمام السابعة.

في السابعة إلا عشرين دقيقة، كان أمام المنزل الصغير حيث تعيش ماريبيث، وخرجت من الشاحنة على مضض. تكره مغادرته.

"شكراً على الوقت الرائع". إنه أسعد بعد ظهر عاشته منذ سنوات، وهو أفضل صديق عرفته. بدا أن العناية الإلهية وضعته الآن في حياتها. "أحببت ذلك فعلاً".

"وأنا أيضاً"، قال مبتسماً وهو يقف قربها وينظر إلى عينيها الخضراوين اللامعتين. ثمة جانب مشرق فيها يجذبه إليها بشدة. تشوّق كثيراً لتقبيلها فيما وقف هناك. "سأذهب إلى المطعم ليلة غد لتناول العشاء. في أي وقت تغادرين؟".

"ليس قبل منتصف الليل"، قالت بندم. تحب أن تكون حرة للذهاب معه إلى كل مكان، على الأقل لبقية الصيف. بعد ذلك، سيتغير كل شيء على أي حال. لكنها تستطيع الادعاء الآن أن شيئاً لن يتغير. لكن بعدما أحست بالطفل يتحرك بعد ظهر اليوم، عرفت أن هذه الأيام باتت معدودة.

"سأصطحبك إلى المنزل مساء غد بعد العمل". لن يمانع أهله خروجه من المنزل، ويستطيع القول لهما إنه ذاهب لحضور فيلم.

"أودّ ذلك"، ابتسمت له، ووقفت على الدرج الأمامي، ولوّحت له فيما ابتعد مع ابتسامة كبيرة. كان أسعد شاب حين عاد إلى المنزل، وكان لا يزال يبتسم حين وصل إلى الباب الأمامي لمنزله في السابعة إلا خمس دقائق.

"ماذا حصل لك؟ هل اصطدت حوتاً في البحيرة اليوم؟". ابتسمت له أمه، فيما كانت تُنهي ترتيب الطاولة. حضرت اللحم المشوي، الطعام المفضل لدى والده، وأحسّ تومي أنها تبذل جهداً كبيراً لإرضائه.



"لا... لا أسماك... فقط بعض الشمس والرمل، والقليل من السباحة".

كانت رائحة المنزل رائعة، إذ حضرت الفوشار أيضاً، والبطاطا المهروسة، والذرة الحلوة المفضلة عند الجميع، حتى آني. لكن الألم الاعتيادي عند التفكير فيها بدا أخف وطأة الليلة. لقد ساعده التحدث إلى ماريبيث، وتمنى لو أنه يستطيع إخبار أمه بذلك، لكنه عرف أنه لا يستطيع. "أين بابا؟".

"قال إنه سيعود إلى المنزل عند السادسة. أظن أنه تأخر. سيصل إلى المنزل في أي دقيقة. أخبرته أن العشاء عند السابعة". لكن مضت ساعة أخرى ولم يصل إلى المنزل، ولم يجب أحد حين اتصلت به في العمل، وكان اللحم قد نضج تماماً حينها، وظهر الغضب على وجهها.

عند الثامنة والنصف، تناولت العشاء هي وتومي، وفي التاسعة، دخل والده، وبدا جلياً أنه شرب الكثير من الشراب، لكنه كان في معنويات مرتفعة جداً.

"حسناً، حسناً، حضّرت المرأة الصغيرة العشاء للتغيير!"، قال بمرح، محاولاً تقبيلها، لكنه فوّت وجنتها مسافة بضعة إنشات. "ما المناسبة؟".

"قلتَ إنك ستعود إلى المنزل عند السادسة"، قالت وهي تبدو حزينة، "وأخبرتك أنني سأضع العشاء على الطاولة عند السابعة. فكرتُ أنه حان الوقت لتعود هذه العائلة لتناول الطعام مع بعضها مجدداً". ذعر تومي من كلماتها، لكن بدا وكأن ذلك لن يحصل على أي حال، على الأقل ليس قبل فترة، ولذلك قرر عدم القلق مسبقاً.

"أظن أنني نسيت. لقد مضى وقت طويل جداً على طهوك الطعام آخر مرة، ولا أذكر متى". بدا متأسفاً قليلاً، وبذل جهداً ليبدو أكثر رزانة مما هو عليه عندما جلس إلى الطاولة. من النادر له أن يعود إلى المنزل ثملاً، لكن حياته أصبحت خالية جداً خلال الأشهر السبعة الماضية، وبدا أن الإحساس بالارتياح عند تناول كأس أو كأسين من الشراب الاسكوتلندي ليس سيئاً حين يقدمه له اثنان من موظفيه.

قـدّمت له ليز طبقاً، من دون التفوه بكلمة أخرى، ونظر إليه متفاجئاً حين أعطته إياه.

"اللحـم ناضج تماماً، أليس كذلك عزيزتي؟ تعرفين أنني أحبه نصف ناضج. أخذت منه الطبق حينها، وسكبت كل الطعام في سلة المهملات، ثم رمت الطبق الفارغ في المجلى مع خيبة أمل كبيرة.

"إذاً، حـاول العودة إلى المنزل قبل التاسعة. كان نصف ناضج قبل سـاعتين، جون"، قالت عبر أسنانها المطبقة، وجلس هو على كرسيه وهو يبدو منكمشاً.

"آسف، ليز".

استدارت نحو المجلى حينها، ونظرت إليه، ونسيت حتى وجود تومي هـناك. يبدو أنهما ينسيانه دوماً. بدا وكأنه غادر مع آني، برأيهما. لم تعد احتياجاته مهمة بالنسبة إلى أي كان. كانا حزينين جداً لمساعدته.

"أظـن أن الأمر لم يعد مهماً، أليس كذلك، جون؟ لا شيء. لا شيء من كل تلك الأمور البسيطة التي كانت تبدو مهمة. لقد استسلمنا جميعاً".

"لـسنا مجبرين على ذلك"، قال تومي بهدوء. أعطته ماريبيث الأمل بعـد ظهر اليوم، وأراد مشاركته معهما على الأقل. "لا نزال هنا. وستكره آنـي مـا حصل لنا. لماذا لا نحاول ونمضي المزيد من الوقت مع بعضنا مجدداً؟ ليس ضرورياً أن يكون ذلك كل ليلة، وإنما أحياناً".

"أخبر والدك بذلك"، قالت ليز ببرود، وأدارت ظهرها لهما فيما بدأت تغسل الصحون.

"لقـد فـات الأوان، بنيّ". ربّت والده على كتفه ثم اختفى في غرفة نومهما.

أنهت ليز غسل الصحون، ثم ركّبت خزانة الكتب الجديدة مع تومي. تحتاج إليها لوضع كتبها المدرسية في الخريف. لكنها لم تتفوه بالكثير أمام ابـنها، باستثناء المشروع الذي عملا عليه، ثم شكرته، وذهبت إلى غرفة الـنوم. بدا وكأن كل شيء فيها تغير خلال الأشهر السبعة الماضية. تحول



كـل الدفء والحنان اللذين عرفهما إلى قساوة مثل الحجر، ولا يرى الآن في عينيها إلا اليأس والألم والحزن. بدا جلياً أن أياً منهم لن يستوعب موت آني.

كـان جـون نائماً في السرير وما زال بثياب العمل حين دخلت إلى الغـرفة، ووقفـت ونظرت إليه لبرهة طويلة، ثم استدارت وأغلقت الباب خلفها. لم يعد مهماً ربما ما حصل بينهما. لقد ذهبت إلى الطبيب قبل بضعة أشـهر وأخبـرها أنهـا لن تنجب المزيد من الأولاد. لا جدوى حتى من المحاولة. حصلت الكثير من الأضرار عند ولادة آني. وأصبح الآن عمرها سـبعة وأربعـين عاماً، علماً أنها واجهت دوماً صعوبة كبيرة في الحمل، حتـى عندما كانت أصغر سناً. اعترف لها الطبيب هذه المرة أنه لا يوجد أي أمل.

لـم تعـد تقيم أي علاقة مع زوجها. لم يلمسها منذ الليلة التي سبقت وفـاة آني، الليلة التي اقتنعا فيها أنها تعاني فقط من الزكام. لاما بعضهما ونفـسيهما، والآن تنفّرها فكرة العلاقة معه. لا تريد علاقة مع أي كان، لا تـريد أن تكـون قريبة جداً من أي كان مجدداً، لا تريد الاهتمام بأحد، أو الحب بهذا المقدار، أو التألم بهذا المقدار حين تخسره. حتى جون أو تومي. لقد ابتعدت عنهما، وأصبحت باردة تماماً، وأخفى هذا البرود الشديد ألمها. أما ألم جون فكان أكثر وضوحاً. كان في ألم مبرح. لم يشتق فقط بشدة إلى ابنـته الصغيرة الغالية، وإنما أيضاً إلى زوجته وابنه، ولم يكن هناك مكان للتنفـيس فيه عن مشاعره، ولا أحد لإخباره، ولا أحد لتعزيته. كان بإمكانه خـداعها لكنه لم يشأ إقامة علاقة مع أي كان، وإنما أراد استرداد ما كانوا يملكونه قبلاً. أراد المستحيل، أراد استرداد حياتهم.

تململـت فـيما مـشت حول الغرفة وهي ترتب أشياءها. ذهبت إلى الحمام، وارتدت ثوب نومها، ثم أيقظته قبل أن تطفئ الأنوار.

"انهض وارتدِ لباس النوم"، قالت له كما لو أنها تتحدث إلى ولد، أو ربما إلى غريب. بدت مثل ممرضة، تعتني به، وليس مثل امرأة أحبته ذات مرة.

جلس على حافة السرير لدقيقة، محاولاً ترتيب أفكاره، ثم نظر إليها. "آسف بشأن الليلة، ليز. أعتقد أنني نسيت. كنت عصبياً ربما من فكرة العودة إلى المنزل، وبَدءِ كل شيء مجدداً. لا أعرف. لم أقصد إفساد أي شيء". لكنه فعل على أي حال. لقد أفسدت الحياة لهم الأمور. رحلت، ولن تعود أبداً إليهم مجدداً. لن يروا مجدداً الصغيرة آني أبداً.

"لا يهم"، قالت بطريقة لا تقنعه ولا تقنع نفسها. "سنفعل ذلك مجدداً مرة أخرى". لكنها لم تكن تبدو أنها تقصد ذلك فعلاً.

"حقاً؟ أحب فعلاً ذلك. اشتقت إلى عشائك". لقد خسروا جميعاً بعض الوزن هذه السنة. كانت سبعة أشهر صعبة جداً بالنسبة إليهم جميعاً، وبدا ذلك جلياً. بدت الشيخوخة على جون، وبدت ليز هزيلة وغير سعيدة، خصوصاً بعدما تأكدت الآن من أنه لن يكون هناك أبداً طفل آخر.

ذهب إلى الحمام حينها، وارتدى لباس النوم، وكانت رائحته نظيفة وشكله مرتباً حين عاد للاستلقاء قربها. لكنها أدارت ظهرها له، وبدا كل شيء فيها متصلباً وغير مرتاح.

"ليز؟"، سأل في الغرفة المظلمة. "هل تعتقدين أنك ستسامحينني يوماً؟".

"ما من شيء للمسامحة عليه. لم تفعل أي شيء". بدا صوتها ميتاً مثل شعورها، وكانا كذلك.

"لو طلبنا ربما من الطبيب المجيء تلك الليلة... لو لم أخبرك أنه مجرد زكام...".

"يقول الدكتور ستون إنه ما كان ليحصل أي فرق". لكنها بدت وكأنها غير مصدقة لذلك.

"آسف"، قال لها، فيما خنقته الدموع، ووضع يده على كتفها. لكنها لم تتحرك، وإنما بدا كل شيء فيها أكثر تصلّباً وبعداً بعدما لمسها. "أنا آسف ليز...".

"وأنا أيضاً"، قالت بهدوء، لكنها لم تلتفت أبداً إليه. لم تنظر أبداً إليه. لم تشاهده أبداً وهو يبكي بصمت تحت ضوء القمر، فيما استلقى هناك، ولم



يشاهد أبداً دموعها المنهمرة ببطء على وسادتها. كانا مثل شخصين يغرقان بهدوء، في محيطين منفصلين.

فيما استلقى تومي في سريره تلك الليلة، يفكر فيهما، تصوّر أنه لم يبقَ أي أمل لإعادتهما إلى بعضهما. بدا له جلياً أن الكثير حصل لهما، والألم كبير جداً، والحزن يصعب تحمله أو الشفاء منه. لم يخسر فقط أخته، وإنما أيضاً منزله ووالديه. والشيء الوحيد الذي أفرحه، فيما استلقى هناك، يفكر فيهما، رؤية ماريبيث... فكر في الساقين الطويلتين والشعر الأحمر الساطع، والقميص القديم المضحك الذي ترتديه، وسباقهما على شاطئ البحيرة... فكّر في ألف أمر، ثم خلد إلى النوم، يحلم بماريبيث تمشي ببطء على الشاطئ عند البحيرة، تمسك بيد آني.

# الفصل الخامس

يــوم الأحــد، اصطحبها لمشاهدة فيلم *من هنا إلى الأبد* بعد العمل، وأحــبا الفــيلم. جلس بالقرب منها، ووضع ذراعه حولها، وتناولا الفوشار والحلــويات، وبكت هي في كل المقاطع الحزينة، قال كلاهما بعد ذلك إنه فيلم رائع.

أوصــلها إلــى المنزل، وخططا المشاريع لبعد ظهر يوم الأربعاء، وســألته بطريقة عفوية كيف كان العشاء مع والديه، بالرغم من أنها رأته قبل ذلك، لكنها نسيت سؤاله.

"لــيس رائعاً جداً"، قال وهو يبدو شارداً. "في الواقع، كان سيئاً جداً. نسي أبي المجيء إلى المنزل. أظن أنه خرج مع بعض الرجال من العمل. على أي حال، نضج اللحم المشوي كثيراً، وجُنّ جنون أمي، وعاد أبي إلى المنزل ثملاً. لم تكن فعلاً الأمسية المثالية". ابتسم لها ابتسامة عريضة، فمن المؤســف جداً التحدث بفلسفة عن الموضوع. "إنهما يثوران على بعضهما معظم الأوقات. أظن أنهما يغضبان من الأمور التي لا يستطيعان تغييرها، لكن يبدو أنهما لا يستطيعان مساعدة بعضهما".

أومأت ماريبيث برأسها، وبدت متعاطفة، وجلسا على الدرج الأمامي لمنــزلها لبــرهة. السيدة العجوز التي أجّرتها الغرفة أحبت رؤية ماريبيث تــستمتع بوقتها، واستلطفتها فعلاً. قالت لماريبيث طوال الوقت إنها نحيلة جــداً، لكن ماريبيث عرفت أن هذا الأمر لن يدوم طويلاً، وفي الحقيقة لم يعــد كــذلك في الوقت الحاضر. بدأ وزنها يزداد، لكنها لا تزال تنجح في

إخفائـــه، بالـــرغم من أن المئزر الذي ترتديه في العمل بدأ ينتفخ أكثر مما كان عليه في البداية.

"إذاً، مـــاذا ســـنفعل يوم الأربعاء؟"، سألها تومي بسعادة. "نعود إلى البحيرة؟".

"طـــبعاً. ولِـــمَ لا تسمح لي بإحضار الغداء هذه المرة؟ أستطيع حتى إعداد بعض الأمور هنا".

"حسناً".

"ماذا تحب؟".

"لا بـــأس فـــي أي شيء تحضرينه". أراد فقط أن يكون معها. وفيما جلـــسا جنـــباً إلـــى جنب على الدرج، أحسّ بجسمها قرب جسمه، لكنه لم يستطع نوعاً ما الانحناء وتقبيلها. كل شيء فيها يروق له، ومجرد التواجد قـــربها سبّب له ألماً جسدياً، لكن أخذها بين ذراعيه وتقبيلها هما أكثر مما يستطيع تحمله. أحست بتوتره فيما جلس قربها، لكنها أساءت فهمه، وظنت أن للأمر علاقة بوالديه.

طمأنـــته "إنها مسألة وقت، مضت فقط سبعة أشهر. امنحهما فرصة. ربما حين تعود أمك إلى العمل، ستتحسن الأمور".

"أو تصبح أسوأ"، قال وهو يبدو قلقاً. "لن تعود أبداً إلى المنزل. حين كانت آني على قيد الحياة، عملت فقط بدوام جزئي، لكنني أظن أنها لا تجد أي ضـــرورة لتواجدها في المنزل من أجلي طوال الوقت، وهي محقة. لن أعود إلى المنزل قبل السادسة مساء حين تبدأ المدرسة".

"هل تظن أنهما سينجبان طفلاً آخر؟"، سألت وهي تبدو محتارة وغير واثقـــة من عمرهما. لكنه هزّ رأسه. تساءل عن الشيء نفسه، لكنه لا يظن أنهما سيفعلان ذلك الآن.

"أظن أن أمي أصبحت كبيرة على ذلك. عمرها سبعة وأربعون عاماً، وواجهـــت الكثير من المشاكل عند إنجابها. لا أعرف حتى إذا كانا يريدان طفلاً آخر. لم يقولا ذلك أبداً".



"لا يتحدث الأهل عن مثل هذه الأمور مع الأبناء"، قالت وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وبدا محرجاً قليلاً.

"نعـــم، لا أظـــن ذلك". خططا لمشاريع بعد ظهر الأربعاء، ووعدها بالذهاب إلى المطعم لتناول العشاء يوم الاثنين أو الثلاثاء. فهمت جولي أن ماريبـــيث باتـــت تخـــرج معـــه الآن، وكانت جولي والعاملات الأخريات يمازحـــنها كلمـــا جـــاء إلـــى المطعم، لكن الأمر كله كان مرحاً، وسعدن جميعهن لصداقتها مع شخص لطيف بقدر تومي.

تمنـــى لهـــا لـــيلة طيبة، ووقف على قدم، ثم على الأخرى، وشعر بالغرابة معها، وهذا أمر نادر، لكنه لم يشأ التحرك بسرعة كبيرة، أو ببطء شـــديد، أو حتى يتصرف بجرأة كبيرة معها، أو كأنه لا يحبها. إنها لحظة مخـــيفة. وبعـــدما أغلقت الباب بهدوء، بدت شاردة فيما صعدت إلى غرفة نومها، متسائلة كيف ستخبره حقيقتها في النهاية.

مـــثلما كان متفقاً، جاء لرؤيتها في المطعم بعد ظهر اليوم التالي، ثـــم عاد بعد العمل لإيصالها إلى المنزل في اليومين التالين، وقبل أن يـــصطحبها يـــوم الأربعـــاء، ذهب إلى المقبرة في وقت باكر من ذلك الصباح لزيارة آني.

يـــذهب إلى هناك من وقت إلى آخر لتنظيف قبرها، وإبعاد الأوراق اليابسة. ثمة أزهار صغيرة زرعها هناك، وكان يهتم دوماً بترتيب المكان. هذا أمر يفعله لأجلها، ولأجل أمه، لأنه عرف أنها قلقة بشأن ذلك، لكنها لا تستطيع تحمل الذهاب إلى هناك.

يـــتحدث إلـــيها أحياناً فيما يعمل، وأخبرها هذه المرة كل شيء عن ماريبيث، وكم يستلطفها. بدا وكأنها جالسة تحت شجرة في مكان ما، تنظر إليه، فيما يخبرها هو بآخر إنجازاته.

"إنها فتاة رائعة... لا بثور... ساقان طويلتان... لا تستطيع السباحة، لكـــنها عدّاءة مذهلة. أظن أنك ستحبينها". ثم ابتسم لنفسه ابتسامة عريضة وهـــو يفكـــر في ماريبيث وأخته الصغيرة. تذكّره ماريبيث نوعاً ما بالفتاة

التي كانت ستصبح عليها آني لو بلغت عمر السادسة عشرة. يملكان النوع نفسه من الصراحة المباشرة. وحس المضايقة والدعابة نفسه.

أنهى عمله عند القبر، وهو يفكر في الأشياء التي قالتها ماريبيث، عن كيفية مرور بعض الأشخاص في حياتنا لإعطائنا هدية أو نعمة خاصة. "لن يبقى أحد إلى الأبد"، قالت له وكانت هذه المرة الأولى التي يعتبر فيها أمراً ما منطقياً بشأن آني. لقد جاءت لفترة وجيزة... لكن لو استطاعت البقاء لفترة أطول قليلاً.

بدت بقعتها الصغيرة في الظل مرتبة ونظيفة مجدداً حين غادر، وتألم كثيراً، مثلما يفعل دوماً، حين تركها هناك وقرأ اسمها آن إليزابيت ويتاكر، على حجر القبر الصغير. ثمة صورة منحوتة لحمل صغير، وكان يبكي دوماً كلما رأى ذلك.

همس قبل أن يغادر "وداعاً صغيرتي، سأعود قريباً... أحبك...". لا يزال يشتاق إليها كثيراً، خصوصاً حين يأتي إلى هنا، وكان هادئاً جداً حين اصطحب ماريبيث من منزلها، ولاحظت الأمر بسرعة.

"هل من خطب؟". نظرت إليه، ولاحظت أنه منزعج، وشعرت فوراً بالقلق. "هل حصل أمر ما؟".

"لا". تأثر لأنها لاحظت، واحتاج إلى دقيقة قبل الإجابة. "ذهبت لتنظيف... تعرفين... مكان آني في المقبرة اليوم... أذهب إلى هناك بين الحين والآخر... تحب أمي أن أفعل ذلك، وأحب أنا الذهاب على أي حال... وأعرف أن أمي تكره فعل ذلك". ثم ابتسم ونظر إلى صديقته. كانت ترتدي القميص الكبير الفضفاض مجدداً، وإنما هذه المرة مع سروال قصير وكانت تنتعل صندلاً. "أخبرتها عنك. أظن أنها تعرف على أي حال"، قال وهو يشعر بالارتياح معها مجدداً. يحب مشاركة أسراره معها. لا تردد، لا خجل. إنها هنا، مثل امتداد له، أو شخص كبُر معه.

"حلمت بها الليلة الماضية"، قالت ماريبيث وبدا مذهولاً.



"وأنا أيضاً. حلمت بكما أنتما الاثنتين تمشيان عند البحيرة. شعرت بسلام كبير"، قال وأومأت ماريبيث برأسها.

"حلمتُ أنها كانت تطلب مني الاهتمام بك، ووعدتها أنني سأفعل... مثل سلسلة من الأشخاص... ذهبت هي وجئت أنا، وطلبت مني الانتباه إليك... وربما يأتي بعدي شخص آخر... ثم... إنه مثل تسلسل أبدي لأشخاص يأتون إلى حياتنا. أظن أن هذا ما كنت أحاول قوله ذلك اليوم. ما من شيء أبدي، وإنما هناك سلسلة مستمرة من الأشخاص الذين يأتون إلى حياتنا ويتابعون معنا... لا شيء يتوقف ويبقى... وإنما يتدفق... مثل النهر. هل يبدو هذا جنوناً؟". التفتت إليه، متسائلة ما إذا كانت أفكارها الفلسفية تبدو حمقاء، لكنها ليست كذلك. كانا حكيمين أكثر من عمريهما، ولسبب جيد.

"لا، ليس كذلك. لكنني لا أحب القسم المتعلق بتسلسل الأشخاص، يأتون إلى حياتنا ويذهبون منها. أفضّل أكثر لو يبقى الأشخاص. أتمنى لو أن آني لا تزال هنا، ولا أريد أحداً بعدك ماريبيث. ما المشكلة في ذلك؟".

"لا يمكننا دوماً فعل ذلك. علينا الانتقال أحياناً. مثل آني. لا نُمنح دوماً الخيار". لكنها تملك خياراً، وهي وطفلها مرتبطان ببعضهما في الوقت الحاضر، لكن ماريبيث ستنتقل في النهاية، وسيمضي الطفل في حياته الخاصة، في عالمه الخاص، مع أهل آخرين. بدا الآن وكأنه ما من شيء أبدي في حياتها وحياة طفلها.

"لا أحب هذا ماريبيث. في مرحلة ما، يجب أن يبقى الأشخاص".

"يفعل بعضهم ذلك. والبعض الآخر لا يفعلون. بعضهم لا يستطيعون. علينا فقط أن نحبهم بقدر ما نستطيع، ونتعلم مما يعطوننا إياه".

"ماذا عنا؟"، سأل وهو يبدو جدياً بطريقة غريبة بالنسبة إلى شاب عمره ستة عشر عاماً. لكنها امرأة شابة جدية. "هل تعتقدين أنه علينا تعلم شيء ما من بعضنا؟".

"ربما. نحتاج إلى بعضنا في الوقت الحاضر"، قالت بحكمة.

"لقد علمتني الكثير عن آني، والرحيل، وحبها حيث هي الآن، وأخذها معي".

"لقد ساعدتني أنتَ أيضاً"، قالت ماريبيث بحنان، ولكن من دون أن تشرح كيف، وتساءل هو عما تقصده. وفيما توجها نحو البحيرة، شعرت بالطفل يتحرك مجدداً. لقد تحرك مرات عدة بعد المرة الأولى التي أحست به فيها وأصبح هذا الإحساس مألوفاً وجميلاً. إنه لا يشبه أي شيء أحست به قبلاً، وأحبت ذلك.

حين وصلا إلى البحيرة، بسط تومي البطانية التي أحضرها معه، وحملت ماريبيث الطعام. حضّرت سندويتشات البيض والخس، التي قال إنه أحبها، وقالب حلوى بالشوكولاته، وأحضرت كيساً مليئاً بالفاكهة، وقنينة من الحليب الذي أصبحت تشرب الكثير منه هذه الأيام، وبعض قناني الصودا. كانا جائعين وقررا الأكل مباشرة، ثم استلقيا على البطانية، وتحدثا مجدداً لوقت طويل، عن المدرسة هذه المرة، وبعض أصدقائه، وأهلهما ومشاريعهما. قال تومي إنه ذهب إلى كاليفورنيا مرة واحدة، مع والده، للبحث عن محاصيل هناك، وإلى فلوريدا للسبب نفسه. لم تذهب هي إلى أي مكان، وقالت إنها تحب رؤية نيويورك أو شيكاغو. وقالا إنهما يودّان زيارة أوروبا، لكن ماريبيث رأت أنه من المستبعد أن تفعل ذلك. لا تملك شيئاً للذهاب إلى أي مكان في حياتها، إلا هنا، وحتى هذه كانت مغامرة كبيرة بالنسبة إليها.

تحدثا عن الحرب الكورية أيضاً، والأشخاص الذين يعرفانهم وماتوا هناك. بدا جنوناً بالنسبة إليهما أن تدخل البلاد في حرب جديدة بعد فترة وجيزة من الحرب الأخيرة. تذكرا حين تم قصف بيرل هاربر، وكانا حينها في الرابعة. كان والد تومي كبيراً جداً للتطوع في الجيش، لكن والد ماريبيث ذهب إلى إيو جيما. بقيت أمها قلقة طوال فترة غيابه، لكنه عاد في النهاية إلى المنزل بأمان.

"ماذا تفعل لو طُلِب منك الذهاب إلى الحرب؟"، سألت وبدا مرتبكاً من سؤالها.



"تقصدين الآن؟ أو حين يصبح عمري ثمانية عشر عاماً؟". إنه احتمال، وبعد سنتين فقط، إذا لم تتم تسوية المسألة في كوريا.

"لا فرق. هل تذهب؟".

"طبعاً. عليّ فعل ذلك".

"أنا لا أفعل، لو كنت رجلاً. لا أعتقد بجدوى الحرب"، قالت بصرامة، فيما ابتسم. إنها مضحكة أحياناً. لديها أفكار صارمة، وبعضها مجنونة فعلاً.

"هذا لأنك فتاة. الرجال لا يملكون خياراً".

"ربما يجدر بهم. أو سيفعلون ذلك يوماً ما. الكوايكرز لا يذهبون إلى الحرب. أظن أنهم أذكى من الجميع".

"ربما يخافون فقط"، قال وهو يتقبّل كل التقاليد التي عرفها، لكن ماريبيث لم تكن راغبة بقبولها. إنها لا تقبل العديد من الأمور، إلا إذا اعتقدت بها فعلاً.

"لا أظن أنهم يخافون. أظن أنهم صادقون مع أنفسهم ومع ما يعتقدون به. أنا أرفض الذهاب إلى الحرب لو كنت رجلاً"، قالت ماريبيث بعناد. "الحرب غبية".

"لا، لن ترفضي". ابتسم تومي ابتسامة عريضة. "ستحاربين مثل الجميع. عليك فعل ذلك".

"سيأتي يوم ربما لا يفعل فيه الرجال ما هو مطلوب منهم. قد يتساءلون في الموضوع، ولا يفعلون ما يُطلَب منهم".

"أشك في ذلك. وإذا فعلوا، ستعمّ الفوضى. لماذا يجدر ببعض الرجال الذهاب فيما البعض الآخر لا يذهبون؟ ماذا سيفعلون؟ يهربون؟ يختبئون في مكان ما؟ هذا مستحيل ماريبيث. اتركي الحرب للرجال. إنهم يعرفون ماذا يفعلون".

"هذه هي المشكلة. لا أظن أنهم يعرفون. ينخرطون فقط في حروب جديدة كلما شعروا بالضجر. انظر إلى هذه الحرب. انتهينا للتو

من الحرب الأخيرة، وعدنا إلى الوحل مجدداً"، قالت بنبرة معارضة، فضحك.

"يجدر بك ربما الترشح للرئاسة"، قال ممازحاً، لكنه احترم أفكارها، ورغبتها بأن يكون تفكيرها مغامراً. ثمة شيء شجاع جداً فيها.

قررا القيام بنزهة حول البحيرة، وفي طريق العودة، سألها إذا كانت تريد السباحة. لكنها رفضت مجدداً، وشعر بالفضول حيال رفضها الدائم الانضمام إليه. ثمة أخشاب طافية في البحيرة، وأرادها أن تسبح معه إلى هناك، لكنها لم تشأ فعل ذلك.

"هيا أخبريني الحقيقة"، قال أخيراً. "هل تخافين من الماء؟ لا عيب في ذلك. قولي الحقيقة فقط".

"لا أخاف. لكنني فقط لا أريد السباحة". إنها سباحة جيدة، لكن لا مجال أبداً لتخلع قميص والدها عنها.

"إذاً، تعالي". كان الطقس حاراً جداً، وأحبت لو تستطيع السباحة معه في المياه الباردة، لكنها عرفت أنها لا تستطيع. مضى على حملها أربعة أشهر ونصف. "امشي معي فقط في الماء. هذا رائع". وافقت على ذلك، ولكن ليس أكثر. وبقيت البحيرة ضحلة لوقت طويل بحيث أصبحا بعيدين جداً حين بدأ عمقها يزداد فجأة. توقفت على حافة رملية، وسبح هو في اتجاه الأخشاب الطافية، ثم عاد مجدداً بحركات ثابتة وممشوقة. يملك ذراعين قويتين وساقين طويلتين، وهو سبّاح ماهر. عاد بعد دقائق ووقف قربها، حيث انتظرته.

"أنت سباح رائع"، قالت بإعجاب.

"كنت في فريق المدرسة العام الماضي، لكن المسؤول أحمق. لن أسبح مع الفريق هذه السنة". كان ينظر إليها باهتمام واضح فيما بدأا المشي للعودة إلى الشاطئ ورشّها بالماء. "أنت جبانة حقيقية. تسبحين ربما جيداً مثلي أنا".

"لا"، قالت له وهي تحاول أن ترد رذاذ الماء عنها. لكنه كان يلعب معها، ولم تستطع مقاومة الرغبة برش الماء عليه، وبعد برهة، كانا مثل



ولدين، يرشّان بعضهما بالماء. أصبحت مبللة تماماً وفقدت توازنها فيما كانت ترشّه، وجلست بقوة في قعر الماء. بدت متفاجئة في البداية، ثم أدركت أنها أصبحت مبللة، ولا مجال أبداً للخروج من الماء من دون أن يرى بطنها المنتفخ. لقد فات الأوان كثيراً لإنقاذ الوضع ولذلك شدّته فوقع في الماء قربها، ثم سبحت بعيداً عنه بسرعة، لكنه استطاع اللحاق بها بسهولة، وكانا يضحكان.

لم تسبح لغاية الأخشاب الطافية معه، لكنهما سبحا معاً لبعض الوقت، فيما حاولت تصور طريقة للخروج من الماء بلباقة، من دون أن يرى بطنها، لكنها لم تعرف كيف تستطيع فعل ذلك. وأخيراً، قالت له إنها تشعر بالبرد، وهذا ليس صحيحاً، وسألته إذا كان يستطيع إحضار منشفتها لها. بدا متفاجئاً قليلاً، فالمياه فاترة، لكنه ذهب لإحضارها وحملها لها. لكن توجب عليها الخروج من الماء والمشي نحوه. أرادت أن تطلب منه الاستدارة، لكنها لم تجرؤ، فبقيت في الماء وهي تبدو قلقة.

"هل من مشكلة؟". لم تعرف ماذا تقول له، ثم أومأت برأسها أخيراً. لم تشأ إخباره الآن، ولا تعرف ماذا ستقول له حين تخبره. لكنها علقت الآن. "هل أستطيع المساعدة؟". بدا محتاراً.

"ليس تماماً".

"اسمعي ماريبيث. اخرجي فقط من الماء. سنحاول تدبر الأمر، أياً كان. هيا، سأساعدك". مدّ لها المنشفة، فجعل ذلك الدموع تتلألأ في عينيها، ثم مشى عبر الماء نحوها، ورفعها برفق إلى أن وقفت أمامه. جعلته يخرجها تماماً من الماء، ولم تقاومه فيما ملأت الدموع عينيها، ولم يفهم هو سبب بكائها. وضع المنشفة برفق حولها، وفيما نظر إلى الأسفل، رآه. كان كبيراً على نحو ملحوظ، بالرغم من أنه لا يزال صغيراً، وإنما صلباً ودائرياً جداً، وبدا بوضوح وجود طفل داخله. ما زال يتذكر كيف بدت أمه حين كانت حاملاً بآني، وكانت ماريبيث نحيلة جداً ليوحي مظهرها بشيء آخر. نظر إليها مجدداً بذهول.

"لم أشأ أن تعرف"، قالت بيأس. "لم أشأ إخبارك". كانا يقفان في البحيرة، ولم يتحرك أي منهما في اتجاه الشاطئ فيما وقفا هناك. بدا وكأنه تعرض للتو لصاعقة، وبدت هي وكأن أحدهم مات.

"هيا"، قال بهدوء وهو يشدّها قربه ويضع ذراعه حول كتفيها. "فلنجلس". عادا بصمت إلى الشاطئ، إلى المكان الذي وضعا عليه البطانية. نزعت عنها المنشفة، وفكت أزرار قميص والدها. كانت ترتدي ثوب سباحة وسروالاً قصيراً ولم يعد هناك أي جدوى الآن من إبقاء قميص والدها عليها. لقد أصبح سرها في العلن. "كيف حصل ذلك؟"، قال أخيراً، محاولاً عدم التحديق إلى النتوء الواضح فيما جلست هناك، لكنه بقي مذهولاً، وابتسمت هي بحزن على سؤاله.

"كالعادة، مثلما أعتقد، بالرغم من أنني لا أعرف الكثير عن الموضوع".

"هل كان لديك صديق؟ هل لديك صديق الآن؟"، صحّح ما قاله، فيما شعر بقلبه ينعصر. لكنها هزّت رأسها، ونظرت بعيداً، ثم عادت لتنظر إليه.

"لا هذا ولا ذاك. فعلت شيئاً غبياً فعلاً". قررت أن تكون صريحة جداً معه. لا تريد أسراراً معه. "فعلتها مرة واحدة. مع شخص بالكاد أعرفه. لم أكن حتى في موعد غرامي معه. أعادني إلى المنزل بعد حفلة راقصة حيث ثمل صديقي، وكان نوعاً ما بطل السنة الأخيرة في الثانوية. أظن أنني شعرت بالإطراء لأنه تحدث إلي، وكان أكثر لطافة مما اعتقدت. اهتم بي كثيراً، وأخذني لتناول البرغر مع أصدقائه، وظننت أن الأمر رائع، ثم توقف في مكان ما في طريق العودة إلى المنزل. لم أشأ الذهاب، لكنني لم أشأ أيضاً إحداث جلبة كبيرة حول الموضوع، وأعطاني القليل من الشراب، ثم...". نظرت إلى بطنها الناتئ. "... يمكنك تصور البقية. قال إنه لا يظن أنني سأحمل. كان قد تخاصم مع صديقته في عطلة نهاية الأسبوع تلك، أو هكذا قال، وعاد يوم الاثنين إليها، ووجدت نفسي حمقاء



كبيرة. الأسوأ من ذلك أنني دمّرت حياتي مع رجل لا أعرفه، ولن يهتم بي أبداً. احتجتُ إلى بعض الوقت لفهم ما حصل، وحين فهمت، كان قد أصبح مخطوباً. تزوجا مباشرة بعد التخرج".

"هل أخبرته؟".

"نعم، فعلت. قال إنه يريد الزواج بها، وإنها ستنزعج كثيراً إذا عرفت... لم أشأ تدمير حياته... أو حياتي. لم أخبر أهلي من يكون، لأنني لا أريد أن يجبره والدي على الزواج بي. لا أريد الزواج بشخص لا يحبني. عمري ستة عشر عاماً. ستنتهي حياتي. لكن من جهة أخرى"، تنهدت فيما جلست، وهي تبدو حزينة جداً، "لقد انتهت حياتي على أي حال. لم تكن هذه خطوة ذكية أبداً".

"ماذا قال أهلك؟". كان متأثراً نتيجة ما أخبرته به، وأنانية ذلك الشاب، وشجاعتها لعدم فعل ما لا تريد فعله في وجه الكارثة.

"قال والدي إنه عليّ ترك المنزل. أخذني إلى مقر ناذرات العفة، وكان يفترض بي العيش معهن حتى ألد الطفل. لكنني لم أستطع فعل ذلك. بقيت لأسابيع قليلة، وكان الجو كئيباً جداً. تصورت أنني أفضّل الموت جوعاً، ولذلك تركت وغادرت في باص، وجئت إلى هنا. اشتريت تذكرة إلى شيكاغو، وتصوّرت أنني أستطيع الحصول على وظيفة هناك، لكننا توقفنا هنا لتناول العشاء، ورأيت اللافتة على نافذة مطعم جيمي دي. أعطوني الوظيفة، وخرجت من الباص، وها أنا". بدت هشة جداً وصغيرة جداً، وجميلة جداً فيما راقبها، وقد شعر بالحنان والإعجاب. "قال والدي إنني أستطيع العودة بعد الميلاد بعدما أنجب الطفل. سأعود إلى المدرسة حينها"، قالت بضعف، محاولة أن تبدو بخير، لكن الأمر بدا حزيناً جداً حتى برأيها.

"ماذا ستفعلين بالطفل؟"، سألها وهو لا يزال مذهولاً مما حصل لها.

"أعطيه لأحدهم... للتبني. أريد العثور على أشخاص يرغبون بأخذه. لا أستطيع الاهتمام به. عمري ستة عشر عاماً. لا أستطيع الاهتمام

بطفل... لا أملك شيئاً لأعطيه إيّاه... لا أعرف ماذا أفعل به. أريد العودة إلى المدرسة... أريد ارتياد الجامعة... إذا احتفظت بالطفل، سأبقى عالقة إلى الأبد... والأكثر من ذلك، لن أستطيع منحه أي شيء. أريد العثور على عائلة ترغب به فعلاً. قالت ناذرات العفة إنهن سيقدمن لي المساعدة، لكن حين كنت معهن... لم أفعل بعد أي شيء هنا". بدت عصبية فيما تحدثت إليه عن الموضوع، وكان هو مذهولاً بكل ما تقوله.

"هل أنت واثقة من أنك لا تريدين الاحتفاظ به؟". لم يتخيل فكرة التخلي عن طفل. بدا الأمر مريعاً، حتى بالنسبة إليه.

"لا أعرف". أحست بالطفل يتحرك داخلها فيما قالت ذلك، كما لو أنه يكافح للحصول على رأي بسيط في القرار. "لا أعرف فقط كيف سأهتم به. لن يساعدني أهلي. لا أستطيع جني المال الكافي لإعالته... لن يكون ذلك منصفاً للطفل. ولا أريد طفلاً الآن. هل هذا مريع فعلاً؟". امتلأت عيناها بالدموع ونظرت إليه بيأس. من المريع الاعتراف أنها لا تريد هذا الطفل، لكنها لا تريده. لم تحب بول، ولم تشأ إنجاب طفل، أو تحمّل مسؤولية شخص آخر. بالكاد تستطيع تدبر حياتها، فكيف بحياة شخص آخر؟ عمرها فقط ستة عشر عاماً.

"واو، ماريبيث. لديك مشاكل كثيرة". اقترب أكثر منها، ووضع ذراعه حولها، وشدّها بالقرب منه. "لماذا لم تقولي أي شيء؟ كان في وسعك إخباري".

"آه، نعم، طبعاً... مرحباً، اسمي ماريبيث. خدعني شاب تزوج بفتاة أخرى، وطردني أهلي خارج المنزل... ما رأيك في اصطحابي إلى العشاء؟". ضحك على ما قالته، وكانت تبتسم عبر دموعها، ثم أصبحت فجأة بين ذراعيه تبكي خوفاً وعاراً وارتياحاً لأنها أخبرته. البكاء القوي استنفد كل قواها، وأمسك بها حتى توقفت أخيراً. شعر بالكثير من الأسف عليها، وعلى الطفل.

"متى يفترض أن يولد؟"، سألها حين هدأت مجدداً.



"ليس قبل نهاية شهر ديسمبر". لكن هذا بعد أربعة أشهر فقط، وعرفا أن الموعد سيحين بسرعة كبيرة.

"هل رأيت طبيباً هنا؟".

هزّت رأسها قائلة: "لا أعرف أحداً، لم أشأ إخبار الفتيات في المطعم لأنني خشيت أن يطردني جيمي. أخبرتهن أنني متزوجة من رجل قتل في كوريا، ولذلك لن يتفاجأن كثيراً حين يلاحظن أخيراً أنني حامل".

"كانت هذه فكرة ذكية"، قال بسرور، ثم نظر إليها مجدداً بتساؤل. "هل كنت مغرمة به، ماريبيث؟ أقصد والد الطفل؟".

من المهم كثيراً لتومي أن يعرف ما إذا أحبته. لكنه ارتاح حين هزّت رأسها. "شعرت بالإطراء لأنه أراد الخروج معي. هذا كل شيء. كنت غبية على نحو لا يصدق. ولأقول لك الحقيقة، إنه نذل. أرادني فقط أن أضيع ولا أخبر ديبي. قال لي إنني أستطيع التخلص من الطفل. لست واثقة حتى مما يتم فعله، لكنني أظن أنهم يخرجون الطفل عبر شق. لم يخبرني أحد فعلاً بما يحصل، ويقول الجميع إن العملية خطيرة ومكلفة".

نظر إليها تومي بهدوء فيما شرحت له الأمر. لقد سمع عن الإجهاض هو أيضاً، لكنه لا يعرف شيئاً أكثر منها حول طبيعة العملية. "أنا مسرور لأنك لم تخضعي لها".

"لماذا؟". فاجأها تعليقه. ما الفرق بالنسبة إليه؟ كانت الأمور أكثر بساطة بالنسبة إليهما لو لم تكن حاملاً.

"لأنني لا أظن أنه يجدر بك فعل ذلك. قد يكون هذا واحداً من تلك الأمور، مثل آني... ربما حصل ذلك لسبب ما ".

"لا أعرف. فكرت كثيراً في ذلك. حاولت أن أفهم لِمَ حصل ذلك. لكنني لم أفهم. يبدو لي الأمر فقط مثل حظ سيئ مرة واحدة. أظن أن هذا كل ما يستغرقه". أومأ برأسه بتردد. معرفته عن الجنس سطحية بقدر معرفتها، أو ربما أكثر. وعلى عكس ماريبيث، لم يقم علاقة أبداً.

نظـــر إلــيها بغرابة حينها، ولاحظت أنه يتوق إلى طرح سؤال آخر عليها.

"مـــاذا؟ هــيا... مهما كان... اسألني...". أصبحا الآن صديقين حتى الموت، مترابطين بصداقة يعرفان أنها ستدوم إلى الأبد. أصبح الآن جزءاً من سرها. وسيكون دوماً جزءاً منه اعتباراً من هذه اللحظة.

"كـيف كــان؟"، ســألها وهو يبدو أحمر الوجه ومحرجاً كثيراً، لكن الــسؤال لـم يرعبها. ما من شيء يرعبها الآن. كان مثل أخ، أو صديق عزيز، أو شيء أكثر من هذا. "هل كان ذلك رائعاً؟".

"لا. لـيس بالنــسبة إلــيّ. ربما بالنسبة إليه. لكن أظن أنه يمكن أن يكون... كان مثيراً ومسبباً للدوار. يجعلك تتوقف عن التفكير في أي شيء آخر، أو التفكير بمنطق، أو القيام بالشيء الصحيح. إنه أشبه بقطار سريع حــين يــنطلق، أو كــان ذلــك ربما نتيجة الشراب... لكنني أظن أنه مع الــشخص المناسب، قد يكون الأمر رائعاً فعلاً. لا أعرف. لا أريد فعلاً أن أجــرب مجــدداً. ليس قبل وقت طويل، وليس قبل أن أعثر على الشخص المناسب. لا أريد فعل ذلك مجدداً، وأكون غبية فعلاً".

أومــأ برأســه، محــتاراً ممــا قالــته. إنه نوع مما توقعه، وأعجبه تصميمها. لكنه أسف لأنها عاشت التجربة، وهو لم يعشها. "الشيء المحزن هــو أن الأمــر لم يعنِ لي أي شيء، فيما كان يجب ذلك. وأملك الآن هذا الطفل، الذي لا يريده أحد، لا الأب، ولا أنا، ولا أحد".

"قد تبدلين رأيك حين ترينه"، قال بتعمق. فقد عطف قلبه منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها آني.

"لــست أكيدة من أنني سأفعل. الفتاتان اللتان أنجبتا الطفلين في مقر نــاذرات العفة قبل أن أغادر لم تريا أبداً طفليهما. أخذتهما الناذرات بعيداً حــين ولــدا، وانتهى الأمر. من الغريب فعلاً أن تحمله داخلك طوال هذا الــوقت، ثــم تعطيه لشخص آخر... لكن من الغريب أيضاً الاحتفاظ به. فالأمــر ليس ليوم واحد. إنه إلى الأبد. هل أستطيع فعل ذلك؟ هل أستطيع



أن أكــون أمــاً لكل هذا الوقت؟ لا أظن ذلك. ثم أرى أن هناك خطباً فيّ. لمــاذا لا أريــد هذا الطفل معي إلى الأبد؟ وإذا أردت ذلك حين أراه، ماذا ســأفعل بعــدها؟ كــيف سأعيله أو أحتفظ به؟ تومي، لا أعرف ما يجب فعلــه...". امتلأت عيناها بالدموع مجدداً، وشدّها بالقرب منه مجدداً، وهذه المــرة، من دون تردد، انحنى وقبّلها. كانت قبلة مليئة بالإعجاب والحنان والشغف، وكل الحب الذي يشعر به تجاهها. إنها قبلة رجل لامرأة، الأولى التي عرفها كلاهما بهذه الطريقة، الأولى التي شعرا بقوتها طوال حياتهما. إنهــا قــبلة يمكن أن تفضي بسهولة إلى المزيد، لكن ليس الآن، وهنا، فلن يسمحا بحصول ذلك.

"أحــبك"، همس في شعرها بعد ذلك، متمنياً لو أن الطفل الذي تحمله كان منه، وليس من شاب لم تهتم أبداً لأمره. "أحبك كثيراً... لن أتركك... ســأكون هــنا لمساعدتك". إنها وعود شجاعة بالنسبة إلى شاب عمره ستة عشر عاماً. لكنه تحول إلى رجل خلال العام المنصرم.

"أنا أيضاً أحبك"، قالت بحذر، وهي تمسح دموعها بمنشفته، من دون أن تشأ إخباره بكل مشاكلها.

"عليك الذهاب إلى طبيب"، قال لها، وهو يتصرف مثل أب.

"لمــاذا؟". لا تزال تبدو أحياناً صغيرة جداً، بالرغم من كل ما مرّت به.

"علـيك الــتأكد من أن الطفل بصحة جيدة. كانت أمي تذهب طوال الوقت حين كانت حاملاً بآني".

"نعم، لكنها أكبر سناً".

"أظــن أنــه يفترض بك الذهاب على أي حال". ثم خطرت له فكرة. "سأحصل على اسم طبيب أمي، ونستطيع ربما تدبر طريقة كي يراك". بدا مسروراً بالفكرة، وقهقهت.

"أنــت مجــنون. ســيظنون أنه طفلك، وسيخبرون أمك. لا أستطيع الذهاب إلى طبيب، تومي".

حاول طمأنتها قائلاً: "سنتدبر شيئاً ما، وربما يستطيع طبيب أمي مساعدتك على العثور على شخص لتبني الطفل. أظن أنه يفعل ذلك أيضاً. لا بد من أنه يعرف أشخاصاً يريدون أطفالاً ولا يستطيعون إنجابهم. أظن أن أمي وأبي فكرا في التبني لبعض الوقت، قبل أن ينجبا آني، ولم يعودا بعدها مضطرين إلى ذلك. سأحصل على اسمه، ويمكننا أخذ موعد منه". انخرط تماماً في الموضوع، وشاركها في تحمل العبء، على عكس أي شخص آخر في حياتها. قبّلها مجدداً قبلة طويلة وقوية، ثم وضع يده على الطفل بحنان كبير. أصبح يتحرك كثيراً الآن، وسألته إذا كان يستطيع الإحساس بذلك. ركّز لبرهة، ثم أومأ برأسه مع ابتسامة عريضة. إنها حركات صغيرة جداً، كما لو أن بطنها يملك حياة خاصة به، وهذا صحيح في الوقت الحاضر.

ذهبا للسباحة مجدداً في وقت متأخر من بعد الظهر، وسبحت معه هذه المرة حتى الأخشاب الطافية، وكانت متعبة حين عادت. استلقيا بعدها على البطانية لوقت طويل، وتحدثا بهدوء عن مستقبلها. بدت أقل رعباً الآن، مع وجود تومي، بالرغم من أن عظمة الأمر لا تزال ترعبها. إذا احتفظت به، فسيبقى الطفل معها لبقية حياتها. وإلا، قد تندم دوماً على ذلك. يصعب معرفة الشيء الصحيح الواجب القيام به، باستثناء إحساسها المستمر أنه سيكون أعظم هدية للطفل، وحتى لنفسها، إذا أعطته لأهل آخرين. سيكون هناك أولاد آخرون في يوم من الأيام، وستندم دوماً على هذا الطفل، لكنها حامل الآن في المكان والزمان غير الصحيحين، والظروف خارجة عن سيطرتها.

ضمّها بين ذراعيه، وتبادلا القبلات واللمسات الحنونة ولكن ليس أكثر. شعرا بسلام غريب حين عادا إلى غرفتها كي تغير ملابسها ويخرجان لتناول العشاء وحضور فيلم سينما. لقد تغيرت الأمور بينهما بعد ظهر اليوم. بدا وكأنهما ينتميان الآن إلى بعضهما. لقد شاركته سرها، وهو موجود لمساعدتها. عرفت أنه لن يخذلها. إنهما يحتاجان إلى بعضهما،



وهي تحتاج إليه على وجه الخصوص. بدا وكأن رابطاً صامتاً نشأ الآن بينهما؛ رابطاً لن يتحطم أبداً.

"أراك غداً"، قال لها حين أوصلها إلى منزلها بعد الحادية عشرة مساء. عرف أنه لا يستطيع البقاء بعيداً عنها الآن. عليه أن يتأكد من أنها على ما يرام. سيوصلها من العمل إلى المنزل في اليوم التالي، بالرغم من أنه وعد أمه بالتواجد في المنزل لتناول العشاء. "اعتني بنفسك ماريبيث"، قال مبتسماً، فابتسمت له، ولوّحت بيدها فيما أغلقت الباب بهدوء خلفها. وحين خلدت إلى النوم، فكرت كم هي محظوظة لأنها التقت به. إنه الصديق الذي لم تحصل عليه أبداً، والأخ الذي لم يكن عليه راين أبداً، والحبيب الذي كان يمكن أن يكونه بول براون. في الوقت الحاضر، إنه كل شيء. وتلك الليلة، حلمت مرة جديدة بآني.

# الفصل السادس

فــي الأسبوع التالي، كان تومي يأتي إلى المطعم بعد ظهر كل يوم، ويوصــلها إلــى المنــزل في الليل، وليلة الأحد، اصطحبها لتناول العشاء وحــضور فيلم سينما. لكن في يوم إجازتها، رفض اصطحابها إلى البحيرة مجدداً. خطط بدلاً من ذلك لشيء أكثر أهمية. استرق خلسة دفتر العناوين وأرقــام الهاتــف مــن أمه، ودوّن بعناية اسم طبيبها وعنوانه. بعدما مات العجــوز الدكتور تومبسون، أصبح أفيري ماكلين الطبيب النسائي الخاص بليــز طــوال أعوام عدة، وهو الذي ساعدها على ولادة طفليها. إنه رجل كبيــر فــي الــسن وأشيب الشعر، لكن أفكاره وتقنياته عصرية أكثر من تــصرفاته. إنه لطيف، ورسمي في بعض النواحي، لكنه مطّلع تماماً على كــل الممارســات الحديــثة، ويعرف تومي كم تحبه أمه. يعرف أيضاً أنه يتوجب على ماريبيث زيارة طبيب.

أخــذ الموعد باسم السيدة روبرتسون، وبذل جهده لجعل صوته يبدو مــثل صوت والده عبر الهاتف، فجعل صوته أكثر عمقاً، وحاول أن يبدو واثقــاً من نفسه، بالرغم من أصابعه المرتجفة. ادعى أنه السيد روبرتسون حــين ســألوه، وقال لهم إنهما انتقلا للتو إلى غرينيل، بعد الزواج، وتريد زوجته إجراء فحص وقائي. بدت الممرضة وكأنها صدقته.

"لكن ماذا سأقول له؟". نظرت إليه ماريبيث بذعر حين أخبرها.

"ألن يعرف بمجرد فحصك؟ هل عليك إخباره؟". حاول تومي أن يبدو واثقاً من نفسه أكثر مما كان يشعر، ومطّلعاً أكثر مما هو عليه في الحقيقة.

لا يزال يجهل معظم النقاط الأساسية في مشكلتها. فكل ما يعرفه عن الحمل هو حين رأى أمه بثياب ضخمة، قبل ستة أعوام، ولا يزال يتذكر ما رآه في فيلم *أحب لوسي* العام الفائت، حين أعلنت أنها حامل.

"أقصد... ماذا سأقول له عن... عن والد الطفل...". بدت قلقة كثيراً، لكنها عرفت أيضاً أنه محق. هناك الكثير من الأمور التي تجهلها عن وضعها، وتحتاج إلى التحدث بشأنها مع طبيب.

"أخبريه فقط ما قلته في المطعم، وأنه قتل في كوريا". لا يعرفون في المطعم أي شيء عن الطفل بعد، لكن حضّرت الأرضية بقصتها عن كونها أرملة.

ثم نظرت إليه بعينين مليئتين بالدموع، وأذهله سؤالها التالي: "هل ستأتي معي؟".

"أنا؟ أنا... ماذا... ماذا لو تعرّفوا إليّ؟". كان يتورد خجلاً حتى جذور شعره بمجرد التفكير في الأمر. ماذا لو فحصها الطبيب أمامه، وماذا لو توقع منه معرفة شيء يجهله؟ لا يعرف أي شيء عن الغموض الحاصل في عيادات أطباء النساء. والأسوأ من ذلك، ماذا لو أخبر الطبيب أهله. "لا أستطيع، ماريبيث... لا أستطيع...".

أومأت برأسها، من دون التفوه بكلمة، فيما انهمرت الدموع ببطء على وجنتيها، وأحسّ بقلبه يقفز خارج جسمه. "حسناً... حسناً... لا تبكي... سأفكر في شيء ما... أستطيع القول ربما إنني قريبك... لكنه سيخبر أمي حينها بكل تأكيد... لا أعرف ماريبيث، يمكننا القول فقط إننا صديقان، وكنت أعرف زوجك ولذلك أوصلتك".

"هل تظن أنه سيشك في شيء ما؟ أقصد أنني لست متزوجة؟". كانا مثل ولدين يحاولان إيجاد طريقة ليخرجا نفسيهما من ورطة ابتكراها عن غير قصد. إلا أنها ورطة كبيرة جداً، ولا مجال للهروب منها.

"لن يعرف إذا لم تقولي له أي شيء"، قال تومي بحزم، محاولا أن يظهر هدوءاً لا يشعر به. كان مذعوراً من فكرة الذهاب إلى الطبيب



معها. لكنه لم يشأ خذلها، وحين أخبرها أنه سيذهب، عرف أن عليه فعل ذلك.

كانا يشعران بالكثير من التوتر في طريقهما إلى الموعد بعد ظهر ذلك اليوم. بالكاد تحدثا مع بعضهما، وشعر بالكثير من الأسف عليها، وحاول طمأنتها فيما ساعدها على النزول من الشاحنة، ولحق بها إلى عيادة الطبيب، وهو يدعو ألا يكون متورّداً خجلاً.

"سيكون كل شيء على ما يرام ماريبيث... أعدك". همس لها فيما دخلا إلى العيادة، وأومأت برأسها ببطء. التقى تومي الرجل مرة واحدة فقط خارج المستشفى حيث وقف ولوّح له مع والده بعدما ولدت آني. كان صغيراً جداً للسماح له بالصعود إلى الأعلى، ووقفت أمه عند نافذة غرفتها، تلوّح له، وتحمل بفخر الصغيرة آني. مجرد التفكير في ذلك جعل الدموع تتلألأ في عينيه، وشدّ على يد ماريبيث، لتشجيعها وتشجيع نفسه أيضاً، فيما نظرت إليهما رئيسة الممرضات من فوق إطار نظارتها.

"نعم؟". لم تفهم ماذا يفعلان هنا، سوى أنهما ينتظران أمهما ربما. فهما بالكاد أكثر من ولدين. "هل أساعدكما؟".

"أنا ماريبيث روبرتسون..."، همست فيما ارتعش صوتها قليلاً عند لفظ الاسم الأخير، عاجزة عن التصديق أن تومي جعلها تأتي فعلاً إلى هنا. "لديّ موعد مع الطبيب". قطّبت الممرضة حاجبيها، ونظرت إلى دفتر مواعيدها ثم أومأت برأسها.

"سيدة روبرتسون؟". بدت متفاجئة. قد تكون الفتاة أكبر قليلاً مما تبدو. لكنها بدت عصبية جداً على أي حال.

"نعم". بالكاد كان ذلك أكثر من تنهيدة على شفتيها، وطلبت منهما الممرضة الجلوس في قاعة الانتظار، وابتسمت لنفسها بعدما تذكرت اتصاله. إنهما بوضوح عروسان جديدان، وبالكاد أكثر من ولدين. لم تكفّ عن التساؤل عن سبب زواجهما.

جلسا في قاعة الانتظار، يتهامسان ويحاولان عدم النظر إلى بعض النساء الحوامل حولهما. لم يرَ تومي أبداً هذا العدد الكبير منهن في غرفة واحدة، وكان ذلك محرجاً كثيراً، فيما تحدثت النساء عن أزواجهن وبقية أولادهن، وربّتن على بطونهن بين الحين والآخر، وحبكن الصوف. شعرا بالكثير من الارتياح حين ناداهما الدكتور ماكلين من عيادته. أشار إليهما على أنهما السيد والسيدة روبرتسون، وشعر تومي بالدهشة حين لم يصحّح الخطأ له. لكن الطبيب لا يملك أي سبب ليشك في أنه ليس زوج ماريبيث. سألهما أين يعيشان، ومن أين هما، وأخيراً كم مضى من الوقت على زواجهما. نظرت ماريبيث إلى الطبيب لبرهة طويلة ثم هزّت رأسها.

"لسنا... أنا... أقصد... تومي مجرد صديق... زوجي مات في كوريا"، ثم ندمت على الكذبة لحظة التفوه بها، فنظرت إليه بصراحة، والدموع في عينيها. "لست متزوجة، حضرة الطبيب. أنا حامل في الشهر الخامس... ورأى تومي أنه يجدر بي المجيء لرؤيتك". أعجب بسعيها إلى حماية الشاب، ورأى أن هذا نبل غير اعتيادي.

"أفهم". بدا متأثراً بكل شيء قالته له، ونظر إلى تومي لبرهة، قائلاً إنه يبدو مألوفاً قليلاً. تساءل ما إذا كان ابن إحدى مريضاته. عرف أنه رآه في مكان ما. في الواقع، ذهب إلى دفن آني ورآه هناك، لكنه لا يستطيع في الوقت الحاضر تذكر أين رآه.

"هل تنويان الزواج قريباً؟". نظر إليهما معاً، وهو يشعر بالأسف عليهما. يشعر دوماً بالأسف على الأولاد في مثل حالهما. لكنهما هزّا رأسيهما، وكانا حزينين، كما لو أنهما يخشيان قيامه بطردهما خارج عيادته، وقلق تومي فجأة لأنه اقترح عليها فكرة المجيء إلى هنا.

"نحن مجرد صديقين"، قالت ماريبيث بحزم. "لم تكن هذه غلطة تومي. إنها غلطتي أنا". بدأت تبكي، واقترب تومي، ولمس يدها فيما راقبهما الطبيب.





قال بلطافة: "أظن أنه لا فائدة من ذلك الآن، لِمَ لا نتحدث أنا وأنتِ قليلاً لوحدنا، ثم نفحصك، و... صديقك"، ابتسم على الكلمة، لأنهما يظنان أنه لا يعرف ما حصل، "صديقك يستطيع العودة والتحدث إلينا بعد ذلك. ما رأيك؟". أراد أن يفحصها، ويتحدث معها عما حصل، وعن كيفية تفاعل أهلها مع حملها، وما هي مشاريعها الفعلية، وما إذا كانت تريد الاحتفاظ بالطفل. رأى أنهما مغرمان كثيراً ببعضهما، وتصوّر أنهما سيتزوجان في النهاية خصوصاً وأنهما وصلا إلى هذه المرحلة معاً. ولربما عائلتاهما تسببان المشاكل لهما، وأراد مساعدتهما قدر الإمكان. كل ما يحتاجان إليه ربما هو دفع في الاتجاه الصحيح.

وقف الطبيب حينها، ورافق تومي للخروج من الغرفة. وكان الأمر مرعباً أكثر هذه المرة، إذ جلس في قاعة انتظار مليئة بالنساء الحوامل، من دونها. دعا ألا يدخل أحد تعرفه أمّه ويراه.

بدا وكأن ساعات طويلة مضت قبل أن تؤشر إليه الممرضة وترافقه إلى عيادة الطبيب.

"رأيت أنك قد ترغب بالتواجد مع صديقتك للتحدث عن بعض الأمور الآن"، قال الطبيب بلطافة حين دخل. كانت ماريبيث تبتسم له، وبدت خجولة وإنما مرتاحة. استمع الطبيب إلى قلب الطفل، وقال إن الطفل سيكون على ما يبدو طفلاً كبيراً وبصحة سليمة. أخبرته أيضاً أنها ستعرض الطفل على الأرجح للتبني، وسألته إذا كان يعرف أحداً ملائماً لذلك، وطلبت منه إخبارها. وعدها بالتفكير، لكنه لم يقل شيئاً أكثر من ذلك. بدا مهتماً أكثر في مشاركة معظم المعلومات التي أخبرها بها مع تومي، عن حجم الطفل وصحته، وعما يمكن أن تتوقعه ماريبيث خلال الأشهر القليلة المقبلة، والفيتامينات التي يجدر بها تناولها، والاستراحات التي يجدر بها أخذها إذا كان دوام عملها يسمح بذلك. أخبرهما بكل ذلك، كما لو أن تومي هو والد الطفل، ثم أدرك تومي ماذا يحصل. يظن الدكتور ماكلين أنهما يخفيان عنه حقيقة كون تومي والد الطفل. ومهما أصرّت

ماريبيث على أنهما مجرد صديقين، بدا جلياً أنه لا يصدقهما. فمن الواضح تماماً كم يهتم تومي بها، وكم يحبها.

وفيما نظر إليهما معاً، وشرح لهما كلفة أتعابه، تحرك شيء في ذاكرته، وأدرك فجأة من يكون الشاب، وسُرّ لأنه أحضر ماريبيث إليه.

"أنت تومي ويتاكر، أليس كذلك، بنيّ؟"، سأل بلطافة. لم يشأ إخافته، وإنما أراد مشاركتهما سرهما، طالما أن أحداً منهما لن يتأذى من ذلك، ولا يملك سبباً قاهراً لإخبار أهله.

"نعم أنا كذلك"، قال تومي بصراحة.

"هل يعرف أهلك عن ذلك؟".

هزّ تومي رأسه وهو يتورّد خجلاً. يستحيل الشرح أنه سرق دفتر عناوين أمه للحصول على الرقم. "لم يتعرفا بعد إلى ماريبيث". كان يحب أن يعرّفها إليهما، لكنه لم يستطع نظراً إلى الظروف، وباتت الأمور صعبة جداً الآن مع أهله على أي حال.

"لقد حان الوقت ربما لتعرّفها إليهما"، قال الدكتور مكلين بحكمة. "لا يمكنك الانتظار إلى الأبد. سيحلّ الميلاد قبل أن تدرك ذلك". بقيت فقط أربعة أشهر على موعد ولادتها. "فكّر في الأمر لأن والديك هما من الأشخاص المتفهمين. لقد عانيا كثيراً خلال الآونة الأخيرة، وأنا واثق من الأمر سيشكل صدمة بالنسبة إليهما، لكنهما يستطيعان على الأقل مساعدتك". أخبرته ماريبيث أنها بعيدة عن عائلتها، وأن الصديق الوحيد الذي تملكه في هذا العالم هو تومي. "سيكون عبئاً كبيراً جداً عليكما أن تحملا كل تلك الهموم لوحدكما".

"نحن بخير"، قال بشجاعة، وهو يخفف من وطأة المشكلة، ويقنع الطبيب مجدداً بأن الطفل منه، مهما أنكرت ماريبيث ذلك. جميلة هي الطريقة التي حاولت حمايته فيها من أي لوم، وتأثر الطبيب بها. تأثر كثيراً بهما معاً، وشعر بالسرور لأنهما جاءا إليه. حدّد لها موعداً في الشهر



التالي، وأعطاهما كتاباً بسيطاً جداً قبل أن يغادرا، يشرح لهما ما يمكن توقعه خلال الأشهر الأربعة المقبلة، وعند الولادة. لا توجد فيه صور فوتوغرافية، وإنما فقط بعض الرسومات البسيطة، ولم يشاهد أي منهما مثل هذا الكتاب قبلاً. إنه يشتمل على مقدار كبير من المعلومات التي يجهلانها، وكانت العديد من المصطلحات المستخدمة غريبة تماماً عليهما. لكن الكتاب أطلع ماريبيث أيضاً على كيفية الاهتمام بنفسها، ما يجب وما لا يجب عليها فعله، وإشارات الخطر التي قد تحصل وتوجب الاتصال بالطبيب. لقد رأيا أن هذا مهم فعلاً.

أخبر الدكتور ماكلين ماريبيث أنه سيتقاضى مئتين وخمسين دولاراً مقابل اهتمامه بها طوال فترة ما قبل الولادة، وأجرة عملية الولادة، بينما ستبلغ تكاليف المستشفى ثلاثمئة دولار أخرى، لا تزال تحتفظ بمجمل هذا جانباً لحسن الحظ، من المال الذي أعطاها إياه والدها أساساً لتدفعه لمقر ناذرات العفة. إنها تملك ما يكفي من المال لدفع كلفة ذلك. لكنهما شعرا بالكثير من القلق لأن الطبيب ظن أن تومي هو والد الطفل.

"ماذا لو أخبر أمك؟"، سألته بذعر. لا تريد أن تسبب له مشكلة. كان تومي قلقاً أيضاً، لكنه أحس نوعاً ما أن الطبيب لن يخونهما. إنه رجل محترم، ولا يظن أن الدكتور ماكلين سيخبر والديه. وبالرغم من سوء التفاهم الحاصل حول هوية والد الطفل، شعر بالسرور لأنه أخذ ماريبيث إليه.

طمأنها قائلاً: "لا أظن أنه سيفعل، أظن أنه يريد فعلاً مساعدتنا". وثق تومي به وكان متأكداً من ذلك.

قالت له: "إنه لطيف"، ثم خرجا لتناول الميلكتشايك. تحدثا همساً عن الكتاب الذي أعطاها إياه، وعن أشهر حملها، وبعض الأمور التي قالها الطبيب عن المخاض والولادة. "يبدو الأمر مخيفاً قليلاً"، قالت ماريبيث بعصبية. "قال إنه يستطيع منحي بعض الدواء لجعلي أشعر بالنعاس...

أظن أنني أحب ذلك". لم تكن واثقة من العملية كلها. إنها تجربة كبيرة بالنسبة إلى فتاة عمرها ستة عشر عاماً؛ إنجاب طفل لا تستطيع الاحتفاظ به ولن تراه أبداً مجدداً. هذا ثمن باهظ جداً بالنسبة إلى نصف ساعة على المقعد الأمامي لسيارة صغيرة مع بول براون. لا تزال عاجزة عن التصديق أحياناً أن هذا يحصل. لكن رؤية الطبيب جعلت الأمر أكثر واقعية. تماماً مثل خوف تومي، وحقيقة نمو الطفل فجأة أكثر فأكثر كل يوم.

كان تومي يأتي لرؤيتها في المطعم كل يوم تقريباً، وإلا كان يذهب إلى منزلها بعد العمل ويصطحبها للقيام بنزهة، أو حضور فيلم سينما. لكن في الأول من شهر سبتمبر، عاد إلى المدرسة، وأصبح كل شيء أكثر صعوبة بعدها. استمرت صفوفه حتى الثالثة بعد الظهر، وبعدها صفوف الرياضة، وأبحاثه. وحين كان يأتي لرؤيتها في أول المساء، كان يشعر بالإرهاق. إلا أنه بقي دوماً قلقاً عليها، وحين كانا يتواجدان لوحدهما، كان يضمّها بين ذراعيه ويقبّلها. وأحياناً، كانا يشعران كأنهما متزوجان، بينما يتحدثان عما حصل خلال اليوم، وعملها، ومدرسته، ومشاكلهما. الشغف بينهما كان شبيهاً بالزواج أيضاً، لكن أياً منهما لم يسمح أبداً بتطور الأمور أكثر من المفترض. لم يحصل أي شيء أكثر من القبلات واللمسات.

... كان ينجز فروضه أحياناً في غرفتها، أو في المطعم، في زاوية خلفية، فيما تحضر له البرغر والميلكتشايك، وتساعده أحياناً على إنجاز الفروض. وحين تتواجد سيدة المنزل خارجاً، كانا يغلقان باب غرفتها ويتمددان على سريرها أحياناً، ويقرأ لها، أو تنجز له فروض الكيمياء أو علم الجبر أو علم المثلثات. كانا متساويين على الصعيد الأكاديمي، وبعد مرور أسبوعين على بداية المدرسة، خطرت له فجأة فكرة إمكانية إنجازهما كل العمل معاً. سينسخ لها المواد الدراسية، ويعيرها كتبه، وبهذه الطريقة تستطيع التماشي مع الدروس التي تفوتها في مدرستها، ومتابعة تعليمها.



"يمكنك الطلب منهم الخضوع لفحص حين تعودين، فلا تخسرين بذلك الفصل الدراسي". لكنه لا يحب التفكير في مثل هذا الموضوع، في عودتها إلى آيوا وأهلها. أرادها أن تبقى معه، لكنهما لا يعرفان ماذا يمكن أن يحصل بالضبط بعدما تنجب الطفل.

لكن في الوقت الحاضر، كانت خطته تسير بشكل ممتاز. إنهما يلتقيان كل ليلة بعد المدرسة، وتدرس حين تستطيع، وينجزان الفروض. كانت تحتفظ بالأبحاث التي تنجزها، وتلتزم بكل الفروض. في الواقع، إنها تتابع الدراسة، وتعمل في مطعم جيمي دي أيضاً، وتأثر تومي كثيراً بنوعية الفروض المدرسية التي تنجزها. وبالرغم من علاماته الجيدة، أدرك في غضون أيام أنها تلميذة لامعة وأقوى منه.

"أنت جيدة"، قال تومي بإعجاب، وهو يصحح لها بعض فروض علم الجبر من الورقة التي أعطوه إياها في المدرسة. حصلت على تقدير ممتاز في الامتحانين اللذين أعطاها إياهما هذا الأسبوع، ورأى أن بحثها في مادة التاريخ عن الحرب الأهلية هو أفضل ما قرأه في حياته. تمنى لو يستطيع أستاذ التاريخ الاطّلاع عليه.

المشكلة الوحيدة بالنسبة إليهما هي أنه كان يعود إلى المنزل في منتصف الليل كل ليلة، وفي نهاية الشهر الأول من المدرسة، بدأت أمه تشك في شيء ما. شرح لها أنه يجري تمارين رياضية كل يوم، وأنه يدرّس صديقاً له يواجه الكثير من المشاكل في الرياضيات، لكن مع عمل أمه في المدرسة، كان من غير السهل إقناعها بمبرر لعودته إلى المنزل في منتصف الليل.

لكنه أحب التواجد مع ماريبيث. يتحدثان لساعات أحياناً بعدما ينتهيان من إنجاز الفروض، عن أحلامهما ومُثُلهما، والمسائل التي تطرحها الفروض المدرسية عن القيم والأهداف والأخلاق، ويتحدثان حتماً عن الطفل، وعما تتمناه له، ونوع الحياة التي تريدها له. تريده أن يحصل على أكثر بكثير مما حصلت هي عليه. تريده أن يحصل على

أفضل تعليم ممكن، وعلى أهل راغبين بمساعدته على التقدم في العالم، وليس التراجع إلى مواقع مسيّجة بخوف الأجيال الماضية أو جهلها. عرفت مارييث أي نوع من الصعوبات ستواجهها لمحاولة الذهاب إلى الجامعة في يوم من الأيام. يرى والداها أن هذا سخيف وغير ضروري، ولا يفهمان أبداً الأمر. لكنها لا تريد الاكتفاء بمهنة مثل تلك التي تملكها الآن. عرفت أنها تستطيع فعل المزيد في حياتها، إذا استطاعت الحصول على تعليم.

لطالما حاول أساتذتها إخبار والديها بضرورة متابعة تعليمها، لكنهما لم يفهما ذلك. ويقول والدها الآن إنها مثل عمتيها، ونجحت في الهروب من قفص الزواج. عرفت أنها ستعيش دوماً مع هذه التهمة، وحتى من دون وجود الطفل بين ذراعيها، لن يسمحا لها أبداً بنسيانه.

"إذاً، لماذا لا تحتفظين به؟"، قال لها تومي أكثر من مرة، لكنها كانت تهزّ رأسها. عرفت أن هذا ليس الحل أيضاً. فمهما تقدمت في حملها، ومهما كانت مشاعرها، عرفت أنها لا تستطيع الاهتمام به، وفي جزء من نفسها، عرفت أنها لا تريد ذلك.

في بداية أكتوبر، توجب عليها الاعتراف للفتيات في العمل أنها حامل. لقد عرفن ذلك لوحدهن، وتحمسن كثيراً لأجلها، ظناً منهن أنها هدية أخيرة من زوجها الميت، وأن هذه طريقة رائعة للاحتفاظ بذكراه إلى الأبد. ما من طريقة ليعرفن أنه ذكرى من بول براون، من شخص ربما أصبحت زوجته البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً حاملاً الآن، ولا يهتم لهذا الطفل.

لم تستطع إخبارهن أنها ستتخلى عن الطفل، ولذلك أحضرن لها هدايا صغيرة إلى العمل، مما جعلها تشعر بالكثير من الذنب. وضعت الهدايا جانباً في درج في غرفتها، وحاولت عدم التفكير في الطفل الذي سيرتديها.

ذهبت أيضاً لزيارة الدكتور ماكلين مجدداً، وكان مسروراً جداً بها، وسألها دوماً عن تومي.



"إنه ولد رائع"، قال مبتسماً، وهو يتحدث إليها، وبدا متأكداً من أن غلطتهما ستفضي إلى نهاية سعيدة. إنهما ولدان لطيفان. إنها فتاة ودودة، وهو واثق من أن آل ويتاكر سيتقبلان الأمر ويقبلان بها بعدما يعرفان بالطفل. كان منتصف شهر أكتوبر حين مرّت ليز ويتاكر، بمحض الصدفة، ذات يوم بعد الانتهاء من المدرسة، لإجراء فحص روتيني. وقبل أن تغادر، تذكر الطبيب إخبارها كم أن ابنها شاب رائع.

"تومي؟". بدت مذهولة لأنه تذكره. آخر مرة رأى فيها الصبي كانت قبل ستة أعوام حين ولدت آني، ووقف خارج المستشفى ولوّح لها عبر النافذة. "إنه ولد رائع"، وافقته الرأي، وهي تبدو مرتبكة.

"يفترض بك أن تكوني فخورة به"، قال عن خبرة، وهو يرغب بقول المزيد عن الشابين اللذين أثرا فيه كثيراً، لكنه عرف أنه لا يستطيع. لقد وعدهما ألا يفعل ذلك.

"أنا فخورة به"، قالت وهي تفكر في ضرورة العودة بسرعة إلى المدرسة، لكن في طريقها إلى المنزل لاحقاً فكّرت في تعليقه مجدداً، وتساءلت ما إذا رأى تومي في مكان ما. لقد أعطى درساً ربما في المدرسة، أو لديه ولد في صف تومي، ثم نسيت الموضوع تماماً.

لكن في الأسبوع التالي، قالت إحدى زميلاتها إنها رأت تومي مع فتاة جميلة جداً، وذكرت بطريقة عفوية أن الفتاة بدت حاملاً في أشهر متقدمة.

شعرت بالرعب حين سمعت ذلك، ثم تذكرت بخوف كبير مديح الدكتور ماكلين غير المتوقع لتومي. فكرت في ذلك طوال فترة بعد الظهر، ثم قررت سؤال تومي عن الموضوع تلك الليلة. إلا أنه لم يعد إلى المنزل قبل منتصف الليل.

"أين كنت؟"، سألته أمه بنبرة صارمة حين دخل. كانت تنتظره في المطبخ.

"أدرس مع بعض الأصدقاء"، أجابها وقد بدا عصبياً.

"أي أصدقاء؟". إنها تعرف معظمهم تقريباً، خصوصاً بعدما باتت تدرّس الآن في الثانوية. "من؟ أريد أن أعرف أسماءهم".

"لماذا؟". بدا تومي فجأة حذراً جداً، وحين دخل والده إلى الغرفة، لاحظ نظرة غريبة بين والديه. لقد خفّت العدائية قليلاً بينهما بعد عودة أمه إلى العمل، لكن المسافة بدت بعيدة أكثر من أي وقت مضى. لم تخبر ليز جون بأي شيء عن الفتاة التي رأتها إحدى زميلاتها مع تومي، لكنه سمعهما يتحدثان وتساءل عما يجري. في الآونة الأخيرة، أصبح مدركاً تماماً لغياب تومي الدائم عن المنزل وعودته في وقت متأخر جداً من الليل.

"ما الأمر؟"، سأل ليز، من دون أن يبدو قلقاً فعلاً. تومي ولد جيد، ولم يتورط أبداً في المشاكل. لديه ربما صديقة.

"سمعت بعض الأمور الغريبة عن تومي"، قالت أمه، وهي تبدو قلقة، "وأريد سماع الحقيقة منه". لكن حين نظر إليها، عرف تومي أنها تعرف شيئاً ما.

"أي نوع من الأمور الغريبة؟"، سأل جون. لا يبدو ذلك متماشياً مع تومي.

"من هي الفتاة التي تواعدها؟"، سألته أمه بفظاظة فيما جلس والده يراقبهما.

"مجرد صديقة. لا أحد مميز". لكنها كذبة، وأحست هي بذلك. ماريبيث أكثر من مجرد صديقة بالنسبة إليه. إنه مغرم تماماً بها، ويحاول أن يساعدها على تعويض ما فاتها من برنامج دراستها، وهو قلق كثيراً على طفلها.

لكن أمه لم تقتنع بالجواب. "هل هي حامل؟". بدا وكأنها وجهت إليه ضربة قاضية، وبدا والده وكأنه على وشك الوقوع عن الكرسي، فيما حدّقت ليز إلى تومي بصمت. "حسناً، هل هي حامل؟".

"أنا... لا... أنا... آه، ماما... لا أعرف... لم... حسناً... آه يا الله..."، شعر بخوف كبير فيما مرر يده عبر شعره وبدا مذعوراً. "أستطيع الشرح. ليس الأمر مثلما يبدو".



"هل هي فقط بدينة؟"، سأل والده بتفاؤل، وبدا تومي حزيناً.

"ليس تماماً".

"آه يا الله"، همست أمه.

"من الأفضل أن تجلس"، قال له جون، وغرق تومي في كرسي فيما استمرت ليز في الوقوف والتحديق إليه بذعر.

"لا أصدق ذلك"، قالت بنبرة خائفة. "إنها حامل... تومي، ماذا كنت تفعل؟".

"لم أكن أفعل أي شيء. نحن مجرد صديقين. أنا... حسناً... نحن أكثر من ذلك... لكن... آه يا ماما... ستحبينها".

"آه يا الله"، قالت أمه مجدداً، وجلست هذه المرة. "من هي؟ وكيف حصل ذلك؟".

"مثل المعتاد حسبما أعتقد"، أضاف تومي وهو يبدو مثل الشبح. "اسمها ماريبيث. التقيت بها هذا الصيف".

"لماذا لم تخبرنا؟". لكن كيف يستطيع إخبارهما أي شيء؟ لا يتحدثان إليه أبداً، ولا إلى بعضهما. انتهت حياتهم العائلية حين ماتت آني، وهم يعيشون الآن مثل الأخشاب العائمة في محيط منعزل. "كم مضى على حملها؟"، سألت أمه، كما لو أن هذا يحدث فرقاً.

"ستة أشهر ونصف"، قال بهدوء. من الأفضل ربما أن يعرفا الحقيقة. أراد سؤال أمه منذ وقت طويل لتساعدها، ولطالما رأى أنها ستحبها. لكن ليز بدت الآن أكثر ذعراً.

"ستة أشهر ونصف؟ متى بدأ ذلك؟". حاولت عدّ الأشهر إلى الخلف، وكانت منزعجة كثيراً لفعل ذلك.

"متى بدأ ماذا؟". بدا تومي مرتبكاً. "أخبرتك. التقيت بها هذا الصيف. جاءت إلى هنا في شهر يونيو. تعمل في مطعم أذهب إليه".

"منذ متى تذهب إلى مطعم؟". بدا والده مرتبكاً أكثر من أمه.

"منذ وقت طويل. لم تعد أمي تطهو الطعام أبداً. لم تفعل ذلك منذ أشهر. أستخدم جزءاً من مصروفي لدفع ثمن الطعام".

"هذا جميل"، قال والده بسخرية، وهو يحدّق إلى زوجته، ومن ثم إلى ابنه مجدداً، بارتياك. "كم عمر هذه الفتاة؟".

"ستة عشر عاماً".

"لا أفهم"، قاطعت أمه. "جاءت إلى هنا في شهر يونيو، وهي حامل منذ ستة أشهر ونصف... يعني ذلك أنها حملت في شهر مارس أو ما يقارب. جعلتها تحمل في مكان آخر، ثم انتقلت إلى هنا؟ أين كنت؟". لم يذهب إلى أي مكان حسب علمهما. لكنهما لا يعرفان أيضاً أنه كان يخرج دوماً لتناول العشاء، وأن لديه صديقة حاملاً. ستة أشهر ونصف من الحمل تجعل ولادة الطفل وشيكة. ارتعدت ليز عند التفكير في ذلك. في ماذا كانا يفكران، ولماذا لم يخبرهما؟ لكن حين فكرت في ذلك، بدأت تفهم. لقد كانوا جميعاً بعيدين وتائهين كثيراً منذ موت آني، خصوصاً هي وجون، فلا عجب في أن يورّط تومي نفسه في المشاكل ما من أحد ينتبه إليه.

لكن تومي فهم أخيراً طبيعة أسئلتهما. "لم أجعلها تحمل، أمي. حملت في موطنها، في أوناوا، وأجبرها والدها على الرحيل حتى تنجب الطفل. ذهبت للعيش في مقر ناذرات العفة ولم تستطع تحمل ذلك، ولذلك جاءت إلى هنا في شهر يونيو. التقيت بها حينها".

"وأنت تخرج معها طوال هذا الوقت؟ لماذا لم تخبرنا؟".

تنهد وقال: "لا أعرف. أردت ذلك لأنني فكرت فعلاً أنك ستحبينها، لكنني خشيت ألا توافقي. إنها رائعة، وهي وحيدة. لا تملك أحداً لمساعدتها".

"إلا أنت". بدت أمه متألمة، لكن والده شعر بالارتياح. "بالمناسبة"، قالت ليز فيما بدأت تفهم القصة: "هل كنت تأخذها إلى عيادة الدكتور ماكلين؟".



بدا تومي مذهولاً من سؤالها. "لماذا؟ هل قال شيئاً؟". لا يجدر به، فقد وعدهما ألا يفعل ذلك، لكن أمه هزّت رأسها فيما راقبته.

"لم يقل أي شيء. قال فقط إنك شاب رائع ولم أفهم كيف تذكرك. مضت ستة أعوام... ثم رأتك إحدى المعلمات معها الأسبوع الماضي وقالت إنها تبدو حاملاً في مرحلة متقدمة". نظرت إلى ابنها البالغ من العمر ستة عشر عاماً، متسائلة ما إذا كان ينوي الزواج بالفتاة، بدافع العاطفة الحقيقية تجاهها أو بدافع التصرف النبيل. "ماذا ستفعل بالطفل؟".

"ليست أكيدة. لا تظن أنها تستطيع الاهتمام به. تريد عرضه للتبني. تظن أنه من الأفضل فعل ذلك، من أجل الطفل. تملك هذه النظرية"، أراد أن يشرح لهما كل شيء دفعة واحدة، أن يجعلهما يحبانها بقدر ما يحبها هو، فقال: "إن بعض الأشخاص يمرّون في حياة أشخاص آخرين لوقت قصير فقط، مثل آني، لمنحهم نعمة أو هدية من نوع ما... هذا هو شعورها حيال الطفل، كما لو أنها هنا لإنجابه إلى العالم، ولكن ليس للبقاء في حياته إلى الأبد. تعتقد بذلك بقوة".

"هذا قرار كبير جداً بالنسبة إلى فتاة شابة"، قالت ليز بهدوء، وهي تشعر بالأسف عليها، وإنما ظلّت قلقة بشأن غرام تومي. "أين عائلتها؟".

"لن يتحدثوا إليها أو يسمحوا لها بالعودة إلى المنزل إلا بعد أن تتخلى عن الطفل. يبدو والدها مثل أحمق حقيقي، وتخاف أمها منه. إنها فعلاً لوحدها".

"باستثنائك"، قالت ليز بحزن. إنه عبء كبير جداً عليه، لكن جون لم يعد قلقاً كثيراً الآن لأنه عرف أن الطفل ليس من تومي.

"أريدك أن تتعرفي إليها ماما". ترددت لوقت طويل، غير واثقة ما إذا كانت تريد تعزيز العلاقة عبر اللقاء بها، أو منعه ببساطة من رؤيتها. لكن هذا لا يبدو عادلاً بالنسبة إليه، وحدقت إلى زوجها بصمت. هزّ جون كتفيه، للإشارة إلى عدم اعتراضه.

"ربما يجدر بنا فعل ذلك". بطريقة ما، أحست أنها تدين بذلك لتومي. إذا كان يفكر كثيراً في تلك الفتاة، فهذا يعني أنها تستحق التعرف إليها.

"تتوق إلى الذهاب إلى المدرسة. كنت أعمل معها كل ليلة، وأعيرها كتبي، وأعطيها نسخاً عن كل شيء قمنا به. أصبحت متفوّقة عليّ الآن، وتنجز الكثير من الأبحاث والمطالعة المستقلة".

"لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟"، سألت أمه وهي تبدو غير موافقة على ما قاله.

"عليها العمل. لا تستطيع العودة إلى المدرسة إلا حين تعود إلى المنزل، بعد أن تنجب الطفل".

"ثم ماذا؟". كانت أمه تلحّ عليه، لكن تومي لا يملك كل الأجوبة. "ماذا عنك؟ هل العلاقة جدية؟".

تردد، إذ لم يشأ إخبارها كل شيء، لكنه عرف أنه عليه فعل ذلك. "نعم، ماما... العلاقة جدية. أنا أحبها".

بدا والده فجأة مذعوراً من جوابه. "لن تتزوج بها، أليس كذلك؟ ولن تحتفظ بالطفل؟ تومي، في عمر الستة عشر عاماً، لا تعرف ماذا تفعل. كان الأمر مؤسفاً جداً لو أن الطفل منك، لكنه ليس كذلك. لست مجبراً على فعل ذلك".

"أعرف أنني لست مجبراً"، قال وهو يبدو مثل رجل فيما أجاب والده. "أحبها. أريد الزواج بها لو وافقت، والاحتفاظ بالطفل، لكنها لا تريد أياً من ذلك. تريد العودة إلى المدرسة، والجامعة إذا استطاعت. تظن أنها تستطيع الاستمرار في العيش في المنزل، لكنني لست واثقاً من ذلك. لا أظن أن والدها سيسمح لها بمتابعة دراستها، حسبما فهمت منها في أثناء حديثها عنه وعن طباعه ومعتقداته. لكنها لا تريد الزواج بأي كان قبل أن تكمل دراستها. لا تحاول الضغط عليّ، بابا. إذا تزوجتها، سأجبرها على فعل ذلك".



"حسناً، لا تفعل"، قال والده وهو يفتح قنينة شراب ويرتشف منها القليل. فكرة زواج تومي في عمر الستة عشر عاماً أثارت أعصابه.

"لا تفعل أي شيء تندم عليه لاحقاً، تومي"، قالت أمه، وهي تحاول أن تبدو أكثر هدوءاً مما تشعر به. لكن بعد كل ما سمعته، كانت يداها ترتجفان. "أنتما شابان. ستدمران حياتكما إذا ارتكبتما خطأ. لقد ارتكبت هي خطأ، فلا تضف عليه خطأ آخر".

"هذا ما تقوله ماريبيث. لهذا السبب، تريد التخلي عن الطفل. تقول إن الاحتفاظ به سيكون خطأ إضافياً يدفع الجميع ثمنه. أظن أنها ستندم يوماً لأنها تخلّت عنه، لكنها ترى أن الطفل يستحق حياة أفضل من تلك التي تستطيع تقديمها له".

"ربما هي محقة"، قالت أمه بحزن، عاجزة عن التصديق أن هناك أمراً أكثر حزناً في الحياة من التخلي عن طفل، ربما خسارة طفل، خصوصاً طفل تحبه. لكن التخلي عن طفل حملت به تسعة أشهر يبدو مثل كابوس. "هناك الكثير من الأشخاص الرائعين، التواقين إلى التبني... أشخاص لا يستطيعون إنجاب الأطفال، وسيكونون رائعين مع الطفل".

"أعرف". بدا فجأة متعباً جداً. إنها الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ومضى على وجودهم في المطبخ ساعة ونصف الساعة، يناقشون مشاكل ماريبيث. "أظن أن هذا يبدو حزيناً جداً. وعلى ماذا ستحصل؟".

"على مستقبل. ربما هذا أكثر أهمية"، قالت أمه بحكمة. "لن تملك حياة إذا احتفظت بالطفل في عمر الستة عشر عاماً، من دون عائلة لمساعدتها. ولن تملك أنت حياة إذا تزوجتها. ليست هذه حياة لولدين لم ينهيا حتى الثانوية".

"تعرفي إليها ماما. تحدثي إليها. أريدك أن تتعرفي إليها، وتستطيعين ربما منحها بعض المواد من المدرسة. لقد تفوّقت عليّ ولا أعرف ماذا أعطيها".

"حسناً". بدا والداه قلقين فيما تبادلا نظرة سريعة، وأومأا علامة الموافقة. "أحضرها إلى المنزل في الأسبوع المقبل. سأحضّر العشاء". جعلت الأمر يبدو مثل تضحية كبيرة. لم تعد تحب الطهو أبداً، لكنها تفعل ذلك حين تضطر، وشعرت الآن بذنب أكبر حيال هذا الموضوع لأن ذلك أدى إلى لجوء ابنها إلى المطاعم، كأنه يتيم. حاولت أن تقول له شيئاً حول هذا الموضوع حين أطفأوا الأنوار ومشوا في الممر. "أنا آسفة... أنا آسفة لأنني لم أكن موجودة كثيراً معك"، قالت فيما ملأت الدموع عينيها، ووقفت على رؤوس أصابعها لتقبيله. "أحبك... أعتقد أنني كنت تائهة نوعاً ما خلال الأشهر العشرة الماضية".

"لا تقلقي بشأني ماما"، قال بلطافة. "أنا بخير". وهو بخير الآن، بفضل مارييت. لقد ساعدته أكثر مما ساعدها هو. لقد وفّرا لبعضهما الكثير من الراحة.

ذهب تومي إلى غرفته، وفي غرفتهما نظرت ليز إلى جون، وجلست على سريرهما وهي تبدو تائهة.

"لا أصدق ما سمعته للتو. تعرف، كان سيتزوج بالفتاة لو سمحنا له".

"سيكون أحمق كبيراً إذا فعل ذلك"، قال جون بغضب. "ربما هي بنت هوى صغيرة إذ جعلت نفسها تحمل في عمر الستة عشر عاماً، وهي تكذب عليه بشأن إكمال دراستها وارتياد الجامعة".

"لا أعرف ماذا أقول"، قالت ليز، فيما نظرت إليه، "سوى أننا أصبنا جميعاً بالجنون خلال العام الماضي. أصبحت تشرب، وغبت أنا عن المنزل، تهت في مكان ما في رأسي، محاولة نسيان ما حصل. أصبح تومي يتناول الطعام في المطاعم، وأقام علاقة مع فتاة حامل يريد الزواج بها. أقول إننا في فوضى عارمة، أليس كذلك؟"، سألت وهي تبدو مذهولة من كل شيء سمعته للتو، وتشعر بالكثير من الذنب.

"هذا ما يحصل ربما للناس حين ينهار الأساس في حياتهم"، قال وهو يجلس على السرير قربها. إنها أقرب مسافة بينهما منذ وقت



طويل، وللمرة الأولى، أدركت ليز أنها لا تشعر بالغضب، وإنما فقط بالقلق. "ظننت أنني سأموت حين..."، قال جون بهدوء، عاجزاً عن إكمال عبارته.

"وأنا أيضاً... ظننت أنني سأموت"، اعترفت له. "أشعر وكأنني كنت في غيبوبة طوال العام الماضي. لست واثقة حتى مما حصل".

حينها وضع ذراعه حولها، وأمسكها لوقت طويل، وتلك الليلة حين خلدا إلى السرير، لم يقل أي شيء لها، ولا هي له، وإنما فقط أمسك بها.

# الفصل السابع

اصـــطحب تومي ماريبيث في يوم إجازتها، وكانت قد ارتدت أفضل فستان لديها للذهاب إلى منزله واللقاء بأهله. جاء لاصطحابها بعد الانتهاء من التمرّن على كرة القدم، وكان متأخراً، وبدا عصبياً قليلاً.

"تـــبدين جميلة فعلاً"، قال وهو ينظر إليها، ثم انحنى لتقبيلها. "شكراً لـــك ماريبيث". لقد عرف أنها أرادت بذل جهد للقاء أهله. وقد عرفت هي أيضاً أن الأمر مهم بالنسبة إليه، ولم تشأ إحراجه. من المؤسف كفاية أنها حامـــل فـــي الـــشهر السابع تقريباً. ما من أحد في العالم يريد اصطحابها للتعرف إلى أي كان، وخصوصاً الأهل، باستثناء تومي.

كانـــت تـــرتدي فـــستاناً من الصوف الرمادي داكن اللون، مع ياقة صـــغيرة بيضاء وربطة سوداء، اشترته من راتبها حين تعذر عليها ارتداء أي شـــيء آخر تملكه، وبدأ تومي يصطحبها إلى العشاء في أيام إجازتها. مـــشطت شعرها الأحمر الساطع في جديلة خلفية مربوطة بشريط مخملي أســـود. بدت مثل فتاة صغيرة تخبئ بالوناً كبيراً تحت تنورتها، وابتسم لها فـــيما ساعدها على الصعود إلى شاحنة والده. بدت ظريفة جداً، وأملت أن يمرّ اللقاء مع والديه على خير. لم يتحدثا معه كثيراً بعد حديثهم الطويل في الأســـبوع الفائت، باستثناء إعلانهما عن رغبتهما بلقائها. وكانت ماريبيث هادئة جداً طوال الطريق.

"لا تكونـــي عصبية، اتفقنا؟"، قال لها فيما توقفا أمام منزله، وأعجبها منظر المنزل المرتب. تم طلاؤه حديثاً وهناك أحواض مرتبة للأزهار في

الخارج. لا توجد أزهار في مثل هذه الفترة من السنة، لكن تسهل الملاحظة أن المنزل مرتب جداً. "سيكون كل شيء على ما يرام"، طمأنها فيما ساعدها على النزول، ومشى أمامها نحو منزله، وهو يمسك بيدها فيما فتح الباب ورأى والديه. كانا بانتظارهما في غرفة الجلوس، ولاحظ أن أمه راقبت ماريبيث فيما عبرت الغرفة بسرعة لمصافحتها ومن ثم مصافحة والده.

كان الجميع مهذبين جداً، ودعتها ليز للجلوس، ثم عرضت عليها الشاي أو القهوة. اختارت الكولا بدلاً من ذلك، وتحدث جون معها قليلاً فيما ذهبت ليز للتحقق من العشاء. لقد حضرت لهم اللحم المشوي وفطائر البطاطا التي يحبها تومي، مع هريسة السبانخ.

عرضت ماريبيث المساعدة بعد برهة، ودخلت المطبخ للانضمام إلى والدة تومي. تبادل الرجلان النظرات في الممر بعدما لحقا بها، ولمس جون ذراع تومي لتوقيفه حين لاحظ أنه على وشك اللحاق بها إلى المطبخ.

"دعها تتحدث إلى أمك بنيّ. دع أمك تتعرف إليها. تبدو فتاة لطيفة"، قال له. "جميلة أيضاً. من المؤسف أن يحصل ذلك لها. ماذا حصل للشاب؟ لماذا لم يتزوجا؟".

"تزوج بفتاة أخرى بدلاً من ذلك، ولا تريد ماريبيث الزواج به. قالت إنها لا تحبه".

"لست أكيداً ما إذا كان هذا تصرفاً ذكياً أو أحمق من قبلها. قد يكون الزواج صعباً جداً أحياناً، خصوصاً عند الزواج بشخص لا تهتم به. لكنها خطوة شجاعة منها". أشعل غليونه وراقب ابنه. لقد نضج تومي كثيراً في الآونة الأخيرة. "من غير العدل ألا يراها أهلها قبل أن تنجب الطفل"، قال جون وهو ينظر إلى ابنه بعناية، متسائلاً كم تعني له هذه الفتاة، ومدركاً أنها تعني له الكثير. لقد كان قلبه نقياً جداً للكشف عن كل شيء، وتعاطف والده معه.

حين نادتهما ليز أخيراً لتناول العشاء، بدا وكأنها أصبحت وماريبيث صديقتين. كانت ماريبيث تساعدها على ترتيب الأغراض على الطاولة،



وكانتا تتحدثان عن مادة العلوم المدنية التي تعلّمها ليز للصف الثالث ثانوي. حين قالت ماريبيث إنها تتمنى لو تستطيع درس شيء من هذا القبيل، قالت ليز بهدوء: "أعتقد أنني أستطيع منحك بعض المواد. قال تومي إنك تحاولين تعويض ما فاتك من برنامج دراستك من خلال الدرس معه. هل تريدين أن أطلّع على بعض أبحاثك؟". بدت ماريبيث متفاجئة من العرض.

"أودّ ذلك"، قالت بامتنان، وهي تأخذ مكانها بين الرجلين.

"هل ترسلين أي شيء إلى مدرستك القديمة، أم أنك تدرسين لوحدك؟".

"لوحدي مبدئياً، لكنني أتمنى أن يسمحوا لي بإجراء بعض الامتحانات حين أعود والحصول ربما على معادلة لما أقوم به".

"لماذا لا تدعينني أطلّع على فروضك، وأستطيع ربما تسليمها إلى مدرستنا للحصول على نوع من المعادلة هنا. هل أنجزت كل دروس تومي؟". أسرعت ماريبيث للإيماء برأسها إيجاباً، وتحدث تومي نيابة عنها فيما جلس بين ماريبيث وأمه.

"لقد قطعت أشواطاً أكثر مني، ماما. انتهت من دراسة كل كتاب العلوم، والتاريخ الأوروبي، وأنجزت كل الأبحاث الاختيارية". بدت ليز متأثرة ووعدتها ماريبيث بإحضار كل ما أنجزته خلال عطلة نهاية الأسبوع.

"أستطيع إعطاءك بعض الفروض الإضافية"، قالت ليز فيما قدّمت اللحم المشوي لماريبيث. "كل موادي هي للصفين الثاني والثالث ثانوي". كانتا متحمستين فيما تابعتا مناقشة الموضوع. وفي نهاية العشاء، أعدّت ليز وماريبيث خطة ممتازة للقاء بعد ظهر السبت لبضع ساعات، وستعطيها ليز يوم الأحد مجموعة من الفروض الخاصة. "يمكنك العمل عليها متى تستطيعين، وإحضارها معك حين تسنح لك الفرصة. يقول تومي إنك تعملين ستة أيام في الأسبوع في المطعم، وأعرف أن هذا ليس سهلاً". في

الواقع، تفاجأت ليز بأنها لا تزال تملك الطاقة للعمل بدوام من عشر ساعات على قدميها لخدمة الزبائن. "لكم من الوقت ستستمرين في العمل، ماريبيث؟". شعرت بالإحراج لسؤالها عن حملها، لكن يصعب تفادي ذلك، لا سيما وأن بطنها أصبح كبيراً جداً الآن.

"حتى النهاية، حسبما أظن. لا أستطيع العيش من دون عمل". تحتاج إلى المال الذي أعطاها إياه والدها لدفع تكاليف الولادة وأتعاب الدكتور ماكلين، وتحتاج إلى راتبها للعيش. لا تستطيع التوقف عن العمل في مرحلة مبكرة. مجرد إعالة نفسها لأسبوع أو أسبوعين بعد ولادة الطفل ستكون تحدياً بالنسبة إليها. الأمور صعبة جداً عليها، لكنها لا تحتاج إلى الكثير لحسن الحظ. وبما أنها لن تحتفظ بالطفل، لم تشترِ له أي شيء، بالرغم من أن الفتيات في المطعم يسألنها دوماً لإقامة حفلة للطفل. حاولت منعهن، لأن ذلك سيجعل الأمر مؤلماً أكثر، لكنهن لا يعرفن أنها لن تحتفظ بالطفل.

"سيكون ذلك صعباً عليك، ماريبيث"، قالت ليز بتعاطف، "أي العمل حتى النهاية. فعلت ذلك حين ولد تومي، وظننت أنني سألده في الصف. أخذت إجازة قبل وقت طويل من ولادة آني"، قالت، ثم ساد فجأة صمت رهيب على الطاولة. نظرت حينها إلى ماريبيث، ونظرت إليها الفتاة الشابة بحزن. "أعتقد أن تومي أخبرك عن أخته"، قالت بهدوء.

أومأت ماريبيث برأسها، وكانت عيناها مليئتين بالحب تجاهه، وبالتعاطف تجاه أهله. آني حقيقية جداً بالنسبة إليها، وقد سمعت الكثير من القصص عنها، وحلمت بها مرات عدة بحيث تشعر الآن وكأنها تعرفها. "نعم، لقد فعل"، قالت ماريبيث بهدوء. "لا بد من أنها كانت فتاة صغيرة مميزة جداً".

"نعم"، قالت ليز وهي تبدو محطمة، ثم مدّ جون يده بهدوء إلى يدها عبر الطاولة. لامس أصابعها بأصابعه، ونظرت إليه ليز بدهشة. إنها المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك. "أعتقد أن كل الأولاد مميّزون"، تابعت القول،



"وسيكون طفلك مميزاً أيضاً. الأولاد نعمة رائعة". لم تجبها ماريبيث، ونظر إليها تومي مدركاً الصراع الذي تشعر به حيال الطفل.

تحدثوا عن مباراة كرة القدم المقبلة التي سيشارك فيها تومي، وتمنّت ماريبيث بصمت لو أنها تستطيع الانضمام إليهم.

تحدثوا لوقت طويل، عن بلدة ماريبيث، ومدرستها، والوقت الذي أمضته هذا الصيف مع تومي عند البحيرة. تحدثوا عن أمور عدة، ولكن ليس عن علاقتها بابنهما، ولا عن طفلها. وفي العاشرة مساء، أوصلها تومي أخيراً إلى المنزل، وقد قبّلت والديه لوداعهما قبل أن تغادر، وحين أصبحا في الشاحنة، تنهدت تنهيدة ارتياح، واستلقت إلى الخلف على المقعد كما لو أنها مرهقة.

"كيف كنت؟ هل يكرهانني؟". بدا متأثراً لسؤالها، وانحنى لتقبيلها برفق.

"كنت رائعة، وقد أحبّاك. لماذا تظنين أن أمي عرضت عليك مساعدتك على إنجاز فروضك؟". شعر بالكثير من الارتياح. كان والداه أكثر من مهذبين معها، وكانا ودودين بشكل صادق. في الواقع، تأثرا كثيراً بها، وفيما قام جون بمساعدة ليز على تنظيف الصحون بعدما غادرا، مدح ماريبيث على ذكائها القوي وتصرفاتها المهذبة.

"إنها فتاة رائعة، ألا تظنين ذلك ليز؟ من المؤسف فعلاً أنها أخطأت وفعلت ذلك بنفسها". هزّ رأسه وجفف صحناً. إنه أول عشاء استمتع به منذ أشهر، وكان مسروراً لأن ليز بذلت جهداً.

"لم تفعل بنفسها ذلك لوحدها"، قالت ليز مع ابتسامة صغيرة. لكن عليها الاعتراف أنه محق. إنها فتاة لطيفة، وقالت الشيء نفسه لتومي حين عاد بعد نصف ساعة. أوصل ماريبيث إلى غرفتها، وقبّلها ولاحظ أنها كانت متعبة فعلاً وظهرها يؤلمها. كان يوماً طويلاً لها، وفي اليومين الأخيرين بدأت تشعر بالانزعاج والغرابة.

"أحب صديقتك"، قالت ليز بهدوء فيما وضعت آخر صحن بعيداً. أشعل جون غليونه للتو، وأومأ برأسه فيما ذهل تومي، للإشارة على موافقته.

"إنها تحبك أيضاً. أظن أنها شعرت بالكثير من الوحدة، وتشتاق إلى أهلها وأختها الصغيرة. أظن أنهم ليسوا رائعين، لكنني أعتقد أنها معتادة عليهم. يبدو لي والدها مثل طاغية حقيقي، وتقول إن أمها لا تعارضه أبداً، لكنني أعتقد أنه من الصعب عليها فعلاً الابتعاد عنهم. كتبت لها أمها الرسائل مرتين، لكن يبدو أن والدها لا يقرأ حتى رسائلها. ولا يسمحان لها بالتواصل مع أختها. يبدو لي الأمر غباء"، قال وهو يبدو منزعجاً، وراقبت أمه عينيه. تسهل الملاحظة كم يحبها، وكان تواقاً إلى حمايتها.

"تتخذ العائلات قرارات غبية أحياناً"، قالت أمه وهي تشعر بالأسف عليها. "أظن أن هذا سيؤلمهما لوقت طويل، وربما إلى الأبد".

"تقول إنها تريد العودة وإنهاء المدرسة، ومن ثم الانتقال إلى شيكاغو. تقول إنها تريد ارتياد الجامعة هناك".

"ولِمَ ليس هنا؟"، اقترح والده، وبدت ليز متفاجئة بارتياحه في قوله هذه العبارة. ثمة كلية في البلدة، وهي كلية جيدة جداً، إذا استطاعت الحصول على منحة، وإذا أرادت ذلك، تستطيع ليز مساعدتها في طلبها.

"لم أفكر أبداً في ذلك، ولست أكيداً من أنها فعلت ذلك هي أيضاً"، قال تومي وهو يبدو مسروراً. "سأتحدث إليها بشأن ذلك، لكنني أظن أنها قلقة في الوقت الحاضر على الطفل. إنها خائفة نوعاً ما. لا أظن أنها تعرف ما يجب توقعه"، نظر بتردد إلى ليز، وهو مسرور للقاء المرأتين ببعضهما. "ربما يمكنك التحدث إليها أمي. لا تملك فعلاً أي شخص للتحدث إليه باستثنائي أنا والعاملات الأخريات في مطعم جيمي دي. وفي معظم الأوقات أظن أنهن يزرعن الخوف داخلها". حسب المعلومات الضئيلة التي عرفها تومي عما تعيشه، شعر بالخوف هو أيضاً. تبدو العملية كلها مريعة فعلاً.

"سأتحدث إليها"، قالت ليز بهدوء، وبعد فترة وجيزة، توجهوا جميعاً إلى السرير. وفيما استلقت ليز قرب جون، وجدت نفسها تفكر فيها. "إنها فتاة لطيفة، أليس كذلك؟ لا أتخيل أنها تتكبّد عناء كل ذلك لوحدها...



سيكون ذلك حزيناً جداً... والتخلي عن الطفل...". مجرد التفكير في الأمر جعل الدموع تتلألأ في عينيها، فيما تذكرت كيف حملت بآني، وتومي... كانا رائعين ودافئين وعزيزين. فكرة التخلي عنهما عند الولادة تقتلها. لكنها انتظرت وقتاً طويلاً حتى تمكّنت من إنجابهما، وكانت أكبر سناً. قد يكون الأمر كثيراً جداً في عمر الستة عشر عاماً، وكانت ماريبيث ذكية كفاية لتدرك أنها لا تستطيع التكيّف مع كل ذلك. "هل تعتقد أن أفيري سيعثر على عائلة للطفل؟". أصبحت فجأة قلقة عليها. مثل تومي، لم تستطع الإنكار أن ماريبيث لا تملك أحداً آخر لطلب المساعدة منه.

"أنا واثق من أنه سيفعل ذلك أكثر مما نتوقع. تعرفين أن الأمر ليس غريباً. لكن الفتيات في مثل وضعها يختبئن عادة في مكان ما. أنا واثق من أنه سيعثر على عائلة مناسبة جداً للطفل".

أومأت ليز برأسها، فيما استلقت في الظلام، تفكر في ماريبيث وابنها. إنهما صغيران جداً ومغرمان كثيراً، ومليئان بالأمل. لا يزالان يعتقدان أن الحياة ستكون جيدة، ويثقان بما يخبئه لهما قدرهما. لم تعد ليز تملك هذا النوع من الثقة، لأنها تألمت كثيراً حين ماتت آني. عرفت أنها لن تثق أبداً بالأقدار مجدداً. فالأقدار وحشية جداً ووهمية جداً.

تحدثا عنها لبعض الوقت، ثم خلد جون إلى النوم. نوعاً ما، لم يصبحا أقرب مما كانا قبلاً، لكن يبدو هذه الأيام أن المسافة بينهما أصبحت أقل، وتحصل بين الحين والآخر حركة أو كلمة لطيفة تبعث الحنان في قلبها. إنها تبذل القليل من الجهد الإضافي حياله، وأيقنت خلال العشاء هذه الليلة أنها تحتاج فعلاً إلى معاودة تحضير العشاء. يحتاجان إلى أن يكونا معاً في الليل، يحتاجان إلى لمس بعضهما مجدداً، إلى الاستماع والتحدث ومنح الأمل مجدداً لبعضهما. لقد تاهوا جميعاً لوقت طويل جداً، وأحست ليز ببطء أنهم يخرجون من الضباب الذي اختبأوا فيه. باتت ترى جون، يتودّد إليها، أو يرغب بذلك، وتومي موجود هناك، حيث كان دوماً، لكن ماريبيث تقف الآن قربه.

شعرت بالسلام للمرة الأولى منذ أشهر حين خلدت إلى النوم تلك الليلة، وفي صباح اليوم التالي، في مكتبة المدرسة، بدأت تختار الكتب لماريبيث وتحضّر لها الفروض. كانت مستعدة تماماً لها حين جاءت للزيارة بعد ظهر يوم السبت، وتفاجأت بالعمل الذي سلمته ماريبيث. إنها تنجز فروضها بطريقة أفضل من معظم تلاميذ الصف الثالث ثانوي.

قطّبت ليز حاجبيها فيما قرأت بعضه، وهزّت رأسها. وشعرت ماريبيث بالخوف حين راقبتها. "هل هذا سيّئ، سيدة ويتاكر؟ لم أكن أملك الكثير من الوقت لإنجازه في الليل. أستطيع العمل أكثر عليه، وأريد إجراء تقرير آخر عن كتاب مدام بوفاري. لا أظن أن هذا التقرير أعطى الكتاب حقه".

"لا تكوني سخيفة"، قالت لها ليز وهي تنظر إليها مع ابتسامة غير متوقعة. "هذا مذهل. أنا متأثرة جداً". جعلت عمل تومي يبدو بسيطاً عند المقارنة، بالرغم من أنه تلميذ ممتاز في الصف. كتبت مقالة عن الأدب الروسي، وأخرى عن هزل شكسبير. حررت موضوعاً أيضاً عن الحرب الكورية، وكتبت مقالة للغة الإنكليزية، وكانت كل فروض الرياضيات دقيقة ومثالية. إنه أفضل عمل رأته ليز منذ أعوام، ونظرت إلى الفتاة الحامل وشدّت على يدها برفق. "أنجزت عملاً رائعاً، ماريبيث. يجدر بك الحصول على معادلة سنة كاملة مقابل هذا العمل، أو أكثر. لقد أنجزت فعلاً عملاً من مستوى الصف الثالث ثانوي".

"هل تظنين ذلك فعلاً؟ هل تظنين أنني أستطيع تقديمه لمدرستي القديمة؟".

"لديّ فكرة أفضل"، قالت ليز وهي توضّب الأوراق بطريقة مرتبة. "سأعرض هذه الفروض على مدير مدرستنا، وربما أستطيع الحصول على معادلة لك هنا. قد يسمحون لك حتى بإجراء امتحانات معادلة، وحين تعودين إلى منزلك، تصبحين مباشرة في الصف الثالث ثانوي".

"هل تظنين أنهم يسمحون لي فعلاً بالقيام بذلك؟". كانت ماريبيث مذهولة، ومسرورة كثيراً بما تقترحه ليز. قد يعني ذلك حذف سنة كاملة،



وربما الانتهاء في شهر يونيو، وهذا ما تريده فعلاً. عرفت أيضاً أن الأشهر القليلة المقبلة في المنزل ستكون مؤلمة. لقد أثبتت لنفسها الآن أنها تستطيع الاعتناء بنفسها، وتريد العودة إلى منزلها مجدداً، لمجرد التواجد هناك، ورؤية أمها ونويل وإنهاء المدرسة. لكنها تعرف الآن أنها لن تتمكن من البقاء هناك لفترة طويلة جداً. لقد اجتازت أشواطاً طويلة، ونضجت كثيراً لتبقى في المنزل سنتين إضافيتين بعدما تنجب الطفل. عرفت أنهم لن يسمحوا لها أبداً بنسيان التجربة، خصوصاً والدها. ستة أشهر، حتى موعد التخرج في شهر يونيو، سيكون وقتاً كثيراً. تستطيع بعدها الانتقال، والحصول على وظيفة، وربما يوماً ما، إذا كانت محظوظة، الحصول على منحة للجامعة. إنها مستعدة حتى للدرس ليلاً. إنها مستعدة للقيام بأي شيء لمتابعة دراستها، وعرفت أن أهلها لن يتفهموا أبداً ذلك.

أعطتها ليز مجموعة من الفروض الإضافية، ووعدتها بأن ترى ما تستطيع فعله لها في المدرسة، وأخبرت ماريبيث أنها ستبلغها بما يحصل معها ما إن تحصل على جواب.

تحدثتا بعد ذلك لبرهة، عن أمور أخرى غير المدرسة، بمعظمها عن تومي ومشاريعه. لا تزال ليز قلقة بوضوح من فكرة زواجه بها، كي لا تضطر إلى التخلي عن الطفل، لكن ليز لم تقل ذلك. تحدثت فقط عن الجامعة التي تأمل أن يرتادها، وعن الفرص المفتوحة أمامه، وفهمتها ماريبيث تماماً. عرفت ما كانت تقوله ليز لها، ولم تستطع كبت نفسها في النهاية. نظرت إليها مباشرة وتحدثت بنعومة فائقة.

"لن أتزوجه سيدة ويتاكر. ليس الآن على أي حال. لن أفعل ذلك به. لقد كان رائعاً معي. إنه الصديق الوحيد الذي أملكه منذ أن حصل معي كل ذلك. لكننا صغيران جداً، وسيدمر ذلك كل شيء. لست أكيدة من أنه يفهم ذلك فعلاً"، قالت بحزن. "... لكنني أفهم. لسنا مستعدّين لطفل. على الأقل أنا لست مستعدة. عليك أن تقدمي له الكثير، عليك أن تكوني موجودة لأجل الأطفال... عليك أن تكوني شخصاً لست عليه بعد... عليك أن تكوني

ناضجة"، قالت والدموع تملأ عينيها، فيما انفطر قلب ليز عليها. فهي بالكاد أكثر من طفلة، مع طفل آخر داخل أحشائها.

"تبدين ناضجة جداً بالنسبة إليّ، ماريبيث. ربما غير ناضجة كفاية لفعل كل ذلك... لكن عليك تقديم الكثير. افعلي ما هو مناسب لك... وللطفل. لكنني لا أريد أن يتأذى تومي، أو يرتكب شيئاً أحمق".

"لن يفعل"، قالت مبتسمة وهي تمسح عينيها. "لن أسمح له. لا شك في أنني أرغب أحياناً بالاحتفاظ بالطفل أنا أيضاً. لكن ماذا بعد؟ ماذا سأفعل في الشهر التالي، أو السنة التالية... أو إذا لم أستطع العثور على وظيفة، أو لم يكن هناك أحد لمساعدتي؟ وكيف سينهي تومي المدرسة، مع طفل؟ لا يستطيع، ولا أنا. أعرف أنه طفلي، ولا يجدر بي التكلم هكذا، لكنني أريد ما هو ملائم للطفل أيضاً. لديه الحق في شيء أكثر مما أستطيع تقديمه له. لديه الحق في أن يكون لديه والدان يحبّانه، ولا يخافان من الاهتمام به مثلي. أريد أن أكون موجودة لأجله، لكنني أعرف أنني لا أستطيع... ويخيفني ذلك". مجرد التفكير في ذلك يمزق قلبها أحياناً، خصوصاً الآن، بعد أن أصبح الطفل كبيراً جداً وحقيقياً جداً ويتحرك طوال الوقت. يصعب تجاهله، ويصعب أكثر إنكاره. لكن بالنسبة إليها، حب طفلها يعني منحه حياة أفضل، والانتقال إلى حيث يفترض بها أن تكون، أينما كان ذلك.

"هل قال لك الدكتور ماكلين أي شيء؟"، سألت ليز. "في مَن يفكر؟".

شعرت ليز بالفضول. تعرف عدداً من الأزواج الشباب الذين لم ينجبوا الأطفال وسيسعدون بالحصول على طفلها.

"لم يقل أي شيء"، قالت ماريبيث مع نظرة قلقة. "أتمنى أن يدرك أنني أقصد ذلك فعلاً. ربما يظن أنني وتومي...". ترددت في لفظ الكلمات، وضحكت ليز.

"أظن ذلك. فقد لمّح لي نوعاً ما قبل فترة أن تومي رجل رائع. أعتقد أنه يظن أن الطفل منه. على الأقل، هذا ما كنت أظنه أنا أيضاً حين



اكتشفت الأمر. خفت حتى الموت، أعترف لك... لكن لا أعرف. أظن أن هناك أقداراً أسوأ. يبدو أن تومي يعالج المسألة جيداً، بالرغم من أن الطفل ليس منه، ولا بد من أن هذا أصعب".

"كان رائعاً معي"، قالت ماريبيث وهي تشعر أنها قريبة من أمه أكثر مما كانت قريبة من أمها طوال أعوام. إنها حنونة وودودة وذكية، ويبدو أنها تعود إلى الحياة بعد سنة كارثية. إنها شخص تألم كثيراً، وعرفت ذلك.

"ماذا ستفعلين خلال الشهرين المقبلين؟"، سألت ليز فيما سكبت لها كوباً من الحليب، وأعطتها بعض الحلويات.

"أعمل فقط، حسبما أظن. وأستمر في إنجاز الفروض للمدرسة. أنتظر ولادة الطفل. إنها متوقعة في فترة الميلاد".

"هذا قريب جداً". نظرت إليها ليز بحنان. "إذا كان في وسعي مساعدتك في أي شيء، أريدك أن تبلغيني". تريد مساعدتهما الآن، ماريبيث وتومي، وقبل أن تغادر ماريبيث في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وعدتها بأن ترى ما يمكن فعله لها في المدرسة. ملأها هذا المشروع بالحماس، وأخبرت ماريبيث تومي كل شيء تلك الليلة حين جاء لاصطحابها والذهاب لمشاهدة السينما.

ذهبا لحضور *فيلم* ثلاثي الأبعاد، وتوجب عليهما وضع نظارات ملونة للحصول على التأثير ثلاثي الأبعاد. إنه أول فيلم من نوعه، وقد أحباه. بعد ذلك، أخبرته كل شيء عن الوقت الذي أمضته مع أمه. تكنّ لها ماريبيث الكثير من الاحترام، وباتت ليز تحبها أكثر فأكثر كل يوم. دعتها لتناول العشاء في عطلة نهاية الأسبوع القادمة. وحين أخبرت ماريبيث تومي بذلك، قال إن وجودها مع عائلته يجعله يشعر أحياناً أنه متزوج. تورّد خجلاً حين لفظ الكلمات، لكن بدا جلياً أنه يحب ذلك. بات يفكر في الأمر كثيراً في الآونة الأخيرة، خصوصاً وأن ولادة الطفل باتت وشيكة.

"لن يكون ذلك سيئاً، أليس كذلك؟"، سألها فيما اصطحبها إلى منزلها، وهو يحاول أن يبدو عفوياً. "أقصد بشأن الزواج". بدا صغيراً جداً وبريئاً

جداً حين قال ذلك. لكن ماريبيث وعدت أمه، ووعدت نفسها، ولن تسمح له بفعل ذلك.

"إلى أن تقرف مني. بعد سنة أو سنتين، أو حين أكبر فعلاً، وأصبح في الثالثة والعشرين تقريباً"، مازحته. "فكر في ذلك، سيكون ذلك بعد سبع سنوات من الآن. يمكننا إنجاب ثمانية أولاد، بالمعدل الذي أسير فيه". تملك دوماً حسّ دعابة في ما يتعلّق بهما، لكنها عرفت أنه لا يمزح هذه المرة.

"كوني جدية ماريبيث".

"أنا جدية. هذه هي المشكلة. نحن صغيران جداً، وأنت تعرف ذلك". لكنه مصمم على التحدث معها بشأن ذلك مجدداً. لن يسمح لها بأن تخذله. ما زال أمامهما شهران حتى تنجب الطفل، لكن قبل أن ينتهي كل شيء، أراد طلب يدها جدياً للزواج.

كانت لا تزال تتفادى الأمر، في الأسبوع التالي، حين اصطحبها للتزلج. تساقط الثلج، وكانت البحيرة تتلألأ بالجليد. لم يستطع مقاومة رغبته بالذهاب إلى هناك، وذكّره ذلك بآني والمرات العديدة التي اصطحبها فيها للتزلج.

"كنت آتي إلى هنا في عطلات نهاية الأسبوع معها. أحضرتها إلى هنا في الأسبوع الذي سبق... وفاتها". أجبر نفسه على قول الكلمات، مهما آلمه ذلك. عرف أن الوقت قد حان لمواجهة حقيقة رحيلها، لكن الأمر ليس سهلاً. "اشتقت إلى الطريقة التي كانت تمازحني بها طوال الوقت. كانت تمازحني دوماً بشأن الفتيات... كانت لأثارت جنوني بشأنك". ابتسم، وهو يفكر في أخته الصغيرة.

حين ذهبت إلى منزلهم، رأت ماريبيث غرفتها. دخلت إليها صدفة، فيما كانت تبحث عن الحمام. وكان كل شيء موجوداً هناك. سريرها الصغير، الدمى، المهد الذي وضعت فيه الدمى، الخزانة مع كتبها، وسادتها والبطانية الوردية الصغيرة. تحطم قلب ماريبيث، لكنها لم تخبر أياً منهم بما رأته. كان الأمر أشبه بزيارة ضريح، وعرفت حينها كم يشتاقون إليها.



لكنها كانت تضحك، تستمع إليه الآن، فيما يخبرها قصصاً عن الفتيات اللواتي أخافتهن آني، لأنها رأت أن معظمهن غبيات أو بشعات جداً.

"ربما ما كنت لأنجح أنا"، قالت ماريبيث وهي تنزلق على الجليد معه، متسائلة إذا كانت ستنجح. "خصوصاً الآن. ربما كانت ستظن أنني فيل. أشعر فعلاً أنني مثل الفيل"، لكنها لا تزال تبدو رشيقة على الجليد مع المزلاجين اللذين استعارتهما من جولي.

"هل يجدر بك القيام بذلك؟"، سألها وهو يشك نوعاً ما في أنه لا يجدر بها فعل ذلك.

قالت بهدوء "سأكون بخير، شرط ألا أقع"، ثم قامت ببعض الالتفافات الرشيقة لتظهر له أنها لم تكن دوماً ضخمة الحجم. تأثر بارتياحها في التزلج على الجليد، وجعلت حركاتها تبدو رشيقة وسهلة، إلى أن تعثرت فجأة وسقطت بقوة على الجليد، فيما بدا تومي وعدة أشخاص آخرين مذهولين وأسرعوا نحوها. أصابت رأسها، وفقدت توازنها، واحتاجت إلى ثلاثة أشخاص لرفعها، وحين فعلوا، كاد يغمى عليها. حملها تومي عن الجليد وبدا الجميع قلقين فجأة.

"من الأفضل أن تأخذها إلى المستشفى"، قالت إحدى الأمهات التي كانت تتزلج مع أولادها. "يمكن أن تعاني من المخاض". ساعدها على الصعود إلى الشاحنة، وبعد برهة كان يتوجه بها مسرعاً إلى الدكتور ماكلين، ويوبخها ويوبخ نفسه على التصرف الغبي.

"كيف أمكنك فعل شيء كهذا؟"، سألها. "ولماذا سمحتُ لك؟... كيف تشعرين؟ هل أنت بخير؟". كان محبطاً تماماً حين وصلا، ولم تعانِ من أي آلام مخاض، لكنها أصيبت بصداع قوي.

"أنا بخير"، قالت وهي تبدو أكثر من ساذجة. "أعرف أن هذا كان غبياً، لكنني سئمت جداً من كوني ضخمة وبدينة وكبيرة الحجم".

"لست كذلك. أنت حامل. يفترض بك أن تكوني هكذا. وإذا كنت لا تريدين الطفل، لست مضطرة إلى قتله". بدأت تبكي حين قال ذلك، وحين

وصلا إلى الدكتور ماكلين، كانا غاضبين، وكانت ماريبيث لا تزال تبكي، فيما اعتذر تومي ثم صرخ بها مجدداً لأنها ذهبت للتزلج.

"ماذا حصل؟ ماذا حصل؟ يا الله، ماذا يجري هنا؟". لم يستطع الطبيب فهم أي شيء فيما تشاجرا. كل ما استطاع فهمه هو أن ماريبيث تلقّت ضربة على رأسها، وحاولت قتل الطفل. ثم بدأت تبكي مجدداً، واعترفت أخيراً، وشرحت أنها سقطت على الجليد حين ذهبا للتزلج.

"التزلج؟". بدا متفاجئاً. لم تحاول أي واحدة من مريضاته فعل ذلك. لكنهن لسن في عمر الستة عشر عاماً، وبدا تومي وماريبيث هادئين حين ألقى عليهما وعظة قصيرة. لا ركوب على الخيل، لا تزلج على الجليد، لا ركوب على الدراجة الآن.

"هل أستطيع الوثوق بعدم ذهابكما إلى التزلج على الجليد مجدداً؟". نظر إليها الطبيب تحديداً، وبدت خجولة.

"أعدك". وحين غادر تومي لإحضار الشاحنة، ذكّرته مجدداً أنها لا تنوي الاحتفاظ بالطفل، وأرادت منه أن يعثر على عائلة لتبنيه.

"هل أنت جدية في ذلك؟". بدا متفاجئاً. كان ابن ويتاكر مغرماً جداً بها. وهو مستعد للزواج بها خلال برهة. "هل أنت واثقة ماريبيث؟".

"نعم... أظن ذلك..."، قالت وهي تحاول أن تبدو ناضجة. "لا أستطيع الاهتمام بالطفل".

"ألن تساعدك عائلته؟". عرف أن ليز ويتاكر أرادت طفلاً آخر. لكنهما ربما لا يوافقان على إنجاب ابنهما لطفل في هذه السن المبكرة، وخارج مؤسسة الزواج. أبقى على وعده للولدين، ولم يسألهما أبداً.

إلا أن آراء ماريبيث كانت صارمة حول الموضوع. "لا أريدهما أن يفعلا ذلك. ليس هذا جيداً. يجب أن يحصل هذا الطفل على والدين حقيقيين، لا على ولدين يهتمان به. كيف أستطيع الاهتمام به والذهاب إلى المدرسة؟ كيف أستطيع إطعامه. لن يسمح لي أهلي بالعودة إلى المنزل، إلا إذا عدت من دونه". تلألأت الدموع في عينيها فيما شرحت وضعها، وكان



تومي قد عاد مجدداً حينها، وربّت الطبيب على يدها وهو يشعر بالأسف عليها. إنها صغيرة جداً لتحمّل مثل هذه الأعباء.

"سأرى ما أستطيع فعله"، قال بهدوء، ثم طلب من تومي وضعها في السرير لمدة يومين. لا عمل، لا لعب، لا تزلج.

"نعم، سيدي"، قال وهو يساعدها على ركوب الشاحنة، ويمسكها بقوة كي لا تنزلق على الرقع الجليدية. سألها حينها عما كانت تتحدث بشأنه مع الطبيب. كانا جديين كثيراً حين عاد لإحضارها.

"قال إنه سيساعدني على العثور على عائلة للطفل". لم تقل له أي شيء آخر، وأصيبت بالذهول حين أدركت أنه يأخذها إلى منزله، وليس إلى منزلها. "إلى أين نذهب؟"، سألته وهي لا تزال تبدو منزعجة. ليست فكرة جيّدة، التخلي عن طفلها، بالرغم من أنها تعرف أنه الشيء الصحيح. عرفت أن الأمر سيكون مؤلماً جداً.

"اتصلت بأمي"، شرح لها. "قال الطبيب إنك تستطيعين النهوض فقط لتناول وجبات الطعام. وإلا عليك البقاء في السرير. لذا، سألت أمي إذا كان في وسعك تمضية عطلة نهاية الأسبوع عندنا".

"آه لا... لا يمكنك فعل ذلك... لا أستطيع... أين...". بدت محبطة، وهي لا تريد فرض نفسها عليهم، لكن كل شيء كان مدبراً، ولم تتردد أمه لثانية واحدة. إلا أنها ذعرت من حماقة ذهابهما للتزلّج.

"لا بأس، ماريبيث"، قال تومي بهدوء. "قالت إنك تستطيعين المكوث في غرفة آني". برزت غصة صغيرة في صوته حين قال ذلك. لم يدخل أحد إلى تلك الغرفة منذ أحد عشر شهراً، لكن أمه كانت هي مَن عرض هذه الفكرة، وحين وصلا، كان السرير مرتباً، والشراشف جديدة، وحضّرت أمه كوباً من الشوكولاته الساخنة.

"هل أنت بخير؟"، سألتها بقلق كبير. لقد عانت من الإجهاض مرات عدة، ولم تشأ أن يحصل مثل هذا الأمر مع ماريبيث، خصوصاً في هذه المرحلة. "كيف يمكنك أن تكون غبياً هكذا؟ أنت محظوظ لأنها

لم تخسر الطفل"، وبخت تومي. لكنهما صغيران، وقد بدوَا مثل ولدين فيما وبختهما.

في لباس النوم الوردي الذي أعارتها إيّاه ليز، وفي السرير الضيق في غرفة آني، بدت ماريبيث أشبه بفتاة صغيرة أكثر من أي وقت مضى. تدلى شعرها الأحمر الساطع في ضفائر طويلة، وحدقت إلى كل دمى آني الموجودة في كل أنحاء الغرفة. نامت لساعات بعد ظهر ذلك اليوم، إلى أن جاءت ليز لتطمئنّ عليها، ومررت يدها على وجنتها للتأكد من أنها لا تعاني من ارتفاع الحرارة. اتصلت ليز بنفسها بالدكتور ماكلين، وشعرت بالاطمئنان حين سمعت أنه لم يحصل أي أذى للطفل.

"إنهما صغيران جداً"، قال لها فيما تحدث إليها، ثم خطر له أنه من المؤسف جداً أن تتخلى عن الطفل، لكنه لم يشأ قول المزيد. لم يشأ أن تظن ليز أنه يتطفل. "إنها فتاة لطيفة"، قال بتمعن، ووافقته ليز، ثم عادت لتطمئنّ عليها. كانت ماريبيث تتحرك في سريرها، وقالت إن صداعها قد زال. لكنها لا تزال تشعر بالذنب بسبب تواجدها في هذه الغرفة. أكثر من أي شيء آخر، لم تشأ إزعاجهم.

إلا أن ليز تفاجأت بسهولة العودة إلى غرفة آني، والجلوس على السرير مجدداً، والنظر إلى عيني ماريبيث الخضراوين والكبيرتين. بالكاد بدت أكبر من آني.

"كيف تشعرين؟"، سألتها ليز بهمس. نامت لثلاث ساعات تقريباً، فيما لعب تومي الهوكي على الجليد، وتركها مع أمه.

"ببعض الألم والتصلب، لكنني أفضل حسبما أظن. خفت كثيراً حين وقعت. اعتقدت فعلاً أنني قتلت الطفل... لم يتحرك أبداً لبرهة... وكان تومي يصرخ في وجهي... كان الأمر مريعاً".

"كان خائفاً"، ابتسمت لها برفق وغطتها مجدداً. "كنتما خائفين. لن يدوم ذلك طويلاً. سبعة أسابيع إضافية، حسبما قال الدكتور ماكلين، أو ربما ستة". إنها مسؤولية كبيرة عليها، الاهتمام بكائن آخر موجود داخل





جسمها. "كنت أتحمس كثيراً قبل ولادة طفليّ... أحضرّ كل شيء"، ثم شعرت ليز فجأة بالحزن عليها، مدركة أن كل شيء سيكون مختلفاً جداً في حالتها. "أنا آسفة"، قالت والدموع في عينيها، لكن ماريبيث ابتسمت ولمست يدها.

"لا بأس... شكراً لك على السماح لي بالبقاء هنا... أحب هذه الغرفة... هذا مضحك، لأننا لم نلتقِ أبداً، لكنني أحبها فعلاً. أحلم بها أحياناً، وكل الأمور التي قالها تومي عنها. أشعر دوماً أنها لا تزال موجودة هنا... في قلوبنا وعقولنا...". أملت ألا تنزعج ليز كثيراً من قولها هذا، لكن المرأة الكبيرة ابتسمت، وأومأت برأسها.

"أشعر بذلك أنا أيضاً. إنها دوماً قربي". بدت أكثر هدوءاً مما كانت عليه طوال وقت طويل، وكذلك جون. ربما اقتنعا أخيراً بما حصل. ربما سيتغلبان على ذلك. "يقول تومي إنك تظنين أن الأشخاص المميزين يمرون في حياتنا ليجلبوا لنا النعَم... أحب هذه الفكرة... جاءت إلى هنا لوقت قصير جداً... خمس سنوات تبدو قليلة جداً الآن، لكنها كانت هدية... أنا مسرورة لأنني عرفتها. علمتني الكثير من الأمور... عن الضحك، والحب والعطاء".

"هذا ما أقصده"، قالت ماريبيث بهدوء، فيما أمسكت المرأتان بيدي بعضهما بقوة، عبر الأغطية. "لقد علّمتك أشياء... حتى إنها علّمتني عن تومي، وأنا لم أعرفها أبداً... وسيعلّمني طفلي شيئاً أيضاً، بالرغم من أنني سأبقى معه لأيام قليلة فقط... أو لساعات قليلة". امتلأت عيناها بالدموع حين قالت ذلك. "وأريده أن يكون أفضل هدية للجميع... للأشخاص الذين سيحبونه". أغمضت عينيها، وانهمرت الدموع على وجنتيها، وانحنت ليز لتقبيل جبينها.

"ستفعلين. والآن حاولي النوم لبعض الوقت... أنت والطفل بحاجة إلى ذلك". أومأت ماريبيث برأسها، عاجزة عن قول المزيد، وغادرت ليز الغرفة بهدوء. عرفت أن ماريبيث ستواجه وقتاً صعباً، ووقتاً رائعاً أيضاً، والكثير من النعِم.

لـم يعد تومي إلى المنزل إلا في وقت متأخر من بعد الظهر، وسأل عنها ما إن دخل. إلا أن أمه أسرعت إلى طمأنته. "إنها بخير. إنها نائمة". ألقى نظرة عليها حينها، وكانت نائمة في سرير آني، تمسك بإحدى الدمى. بدا ناضجاً فجأة حين غادر الغرفة ونظر إلى أمه.

"تحبها كثيراً، بنيّ، أليس كذلك؟".

"سأتزوجها يوماً ما، أمي"، قال وهو أكيد من قوله.

"لا تحسم خططك الآن. لا يعرف أي منكما ماذا تخبئ له الحياة".

"سأعثر عليها. لن أسمح لها أبداً بالذهاب. أحبها... والطفل..."، قال وهو يبدو مصمماً.

"سـيكون صـعباً علـيها، التخلي عنه"، قالت ليز. إنها قلقة عليهما، خصوصاً أنهما تحمّلا الكثير. ماريبيث بالصدفة، وتومي بدافع الحنان.

"أعرف أمي". ولو كان في وسعه إبداء رأيه في الموضوع، لما سمح لها بفعل ذلك.

حـين خرجت ماريبيث ببطء من غرفة آني وقت العشاء، كان تومي أمـام طاولة المطبخ، ينجز فروضه. "كيف تشعرين؟". سألها وهو يبتسم. بدت منتعشة وأكثر جمالاً من أي وقت مضى.

"كمـا لـو أنني كنت كسولة كثيراً". نظرت إلى أمه باعتذار فيما أنهـت العـشاء. باتت ليز تطهو الطعام غالباً هذه الأيام، وحتى تومي أحب ذلك.

"اجلسي أيتها الشابة. لا يفترض بك التجول. سمعت ما قاله الطبيب. الـسرير، أو علـى الأقل كرسي. تومي، أحضر كرسياً لصديقتك. ولا، لا يمكـنك اصـطحابها إلـى التزلج غداً". ابتسما لها مثل ولدين صغيرين، وأعطـت لكل منهما قطعة حلوى بالشوكولاته مخبوزة حديثاً. تحب وجود أشـخاص في المنزل مجدداً. إنها سعيدة لأن تومي أحضرها إلى المنزل. مـن الممـتع وجود فتاة شابة معهم. تذكّرت أنها لن ترى أبداً آني كبيرة، لكـنها اسـتمتعت بوجودها مع ماريبيث، وكذلك فعل جون. كان مسروراً



لوجودهم جميعاً في المطبخ حين عاد إلى المنزل بعد عمل غير متوقع في المكتب بعد ظهر يوم السبت.

"مـاذا يجري هنا؟ اجتماع؟"، مازحهم، وهو مسرور بالجو الاحتفالي في مطبخه الذي شهد صمتاً طويلاً.

"توبيخ. حاول تومي قتل ماريبيث اليوم، إذ أخذها للتزلج".

"آه يا الله... ولِمَ لم يجعلها تلعب كرة القدم؟". نظر إليه، وتذكر مجدداً كم هما صغيران. لكن يبدو أنها نجت.

"فكرنا أننا سنجرب كرة القدم غداً أبي، بعد الهوكي".

"خطـة ممتازة". ابتسم لهما، وهو مسرور لأنه لم يحدث أي خطب. وبعد العشاء تلك الليلة، لعبوا جميعاً السكرابل. ابتكرت ماريبيث كلمتين من سـبعة أحرف، وأطلعتها ليز على موقف المدرسة من فروضها. يرغبون بمنحها المعادلة، وإذا أرادت السماح لليز بإعطائها الامتحانات الأربعة في نهايـة الـسنة، لـن يكتفوا فقط بمعادلة السنة الثانوية الأولى، وإنما أيضاً نصف السنة الثانوية الثانية. فالعمل الذي أنجزته يعتبر من الطراز الأول، وإذا أبلت بلاءً حسناً في امتحاناتها، يمكنها إنهاء الفصل قبل التخرج.

"فعلـتها أيتها الصغيرة"، هنأتها، وهي فخورة بها، تماماً مثلما تكون فخورة بأحد تلامذتها.

"لا لـم أفعلهـا"، قالت ماريبيث وهي تبتسم. "أنت فعلتها". ثم أطلقت صرخة صغيرة سعيدة وذكّرت تومي أنها الآن في الصف الثاني ثانوي.

"لا تتفاخـري كثيـراً بنفسك. تعرفين أن أمي تستطيع جعلك تعيدين الـصف إذا أرادت. قد تفعل ذلك أيضاً، لأنها قاسية جداً مع تلاميذ الصف الثاني ثانوي". كانوا جميعاً يتمتعون بمزاج جيّد، حتى الطفل تلك الليلة. فقد استعاد طاقته بانتقام وكان يركل ماريبيث بوضوح كل خمس دقائق.

"إنـه غاضب منك"، قال تومي لاحقاً، فيما جلس على السرير قربها، وأحس بالطفل وهو يركل. "أظن أن هذا من حقه. كان فعلاً تصرفاً أحمق من قبلي... أنا آسف...".

"لا تفعل. أحببت ذلك"، قالت ماريبيث وهي تبتسم ابتسامة عريضة. لا تزال فرِحَة من خبر ترقيتها إلى الصف الثاني ثانوي.

"يعني ذلك الكثير لكِ، أليس كذلك؟ أقصد المدرسة"، قال فيما راقب وجهها حين تحدثا عن المدرسة وعدم حاجتها إلى العودة إلى الصف الأول ثانوي.

"أريد فقط العودة، والتحرك بأسرع ما يمكن. حتى ستة أشهر ستبدو وكأنها طويلة جداً".

"هل ستأتين للزيارة؟"، سألها بحزن. لا يحب التفكير في موعد رحيلها.

"طبعاً"، قالت، لكنها لم تكن مقتنعة. "سأحاول. يمكنك أنت زيارتي أيضاً". لكنهما شكّا في أن يمنحه والدها الترحيب الدافئ الذي تستمتع به من والديه. تماماً مثلما فعل تومي، وقعا في حبها. فهما بسهولة سبب حب تومي لها. "قد آتي للزيارة في الصيف المقبل، قبل أن أذهب إلى شيكاغو".

"لماذا شيكاغو؟"، قال بتذمر إذ لم يعد يكتفي بمجرد صيف. "لماذا لا تأتين إلى الجامعة هنا؟".

"سأتقدم بطلب"، اعترفت له. "سنرى إن كان سيتم قبولي".

"مع علاماتك، سيتوسلونك".

"ليس تماماً"، قالت مبتسمة، وقبّلها، ونسيا أمر العلامات والمدرسة والجامعة وحتى الطفل، بالرغم من أنه ركلها بقوة فيما كان تومي يضمّها بين ذراعيه.

"أحبك ماريبيث"، ذكّرها. "أحبكما معاً. لا تنسي ذلك أبداً". أومأت برأسها حينها، وأمسك بها لوقت طويل، فيما جلسا جنباً إلى جنب على سرير أخته الضيق، يتحدثان بهدوء عن كل الأمور المهمة بالنسبة إليهما. أصبح والداه في السرير، وعرفا أنه هناك. لكنهما يثقان به. وفي النهاية، عندما بدأت ماريبيث تتثاءب، ابتسم لها تومي، ثم عاد إلى غرفته، متسائلاً عن مستقبلهما.



# الفصل الثامن

دعت ليز ماريبيث لمشاركتهم مناسبة الشكر، في وقت متأخر من بعد ظهر ذات يوم كانت تعمل معها على إعداد فرض تاريخ. إنه فرض مهم أعطته لها ليز كي تحصل على معادلة الصف الثاني ثانوي. أصبحت ماريبيث تدرس لساعات طويلة كل ليلة، بعدما تنتهي من العمل، وتبقى مستيقظة أحياناً حتى الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. إلا أنها أحست الآن بالجانب الملحّ في كل ذلك. تريد إنجاز كل المواد الممكنة قبل أن تعود إلى المدرسة. والعمل الذي تعطيه لها ليز سيكون تذكرتها إلى الحرية. تنوي إنهاء الثانوية في شهر يونيو، ومن ثم تحاول شق طريقها في الجامعة. لن يحب والدها ذلك طبعاً، ولهذا السبب تريد الذهاب إلى شيكاغو.

إلا أن ليز استكشفت مجدداً احتمال عودتها إلى غرينيل والدخول إلى الجامعة هناك. أينما أرادت ماريبيث الذهاب، ترغب ليز بكتابة توصية بشأنها. فحسب العمل الذي رأته، عرفت أن الفتاة مؤهلة للدخول إلى أي مؤسسة. إلا أنها صدمت بعدم رغبة عائلتها بمساعدتها للحصول على تعليم.

"يظن والدي أن هذا غير مهم للفتيات"، قالت فيما وضعتا الكتب بعيداً، وساعدت ماريبيث ليز على إعداد العشاء. إنه يوم إجازتها، وقد ساعدت ليز على تصحيح بعض المسابقات البسيطة للصف الأول ثانوي. "لم تذهب أمي أبداً إلى الجامعة. أظن أنه كان يجدر بها ذلك. تحب القراءة،

تحب التعرف إلى الأشياء. لكن والدي لا يحب أن يراها حتى وهي تقرأ الجريدة. يقول إن النساء لسن بحاجة إلى معرفة هذه الأمور، لأنها تربكهنّ. كل ما يحتجن إليه هو الاهتمام بالأولاد وإبقاء المنزل نظيفاً. يقول دوماً إن المرأة ليست بحاجة إلى شهادة جامعية لتغيير حفّاض".

"لا شك في أن هذا بسيط وصريح"، قالت ليز وهي تحاول ألا تظهر غضبها نتيجة سماعها ذلك. برأيها، ما من سبب يمنع النساء من فعل الأمرين معاً، التحلي بالذكاء والحصول على التعليم، والاهتمام بالأزواج والأولاد. إنها مسرورة لأنها عادت إلى العمل هذه السنة. نسيت كم هذا مكافئ، وكم استمتعت به. بقيت في المنزل لوقت طويل جداً بحيث خفتت متعة التعليم نوعاً ما. لكن الآن، وبعد رحيل آني، ملأ ذلك فراغاً لا تستطيع ملئه بأي طريقة أخرى. فراغ الوقت على الأقل، لكنها تحب أيضاً رؤية تلك الوجوه المشعّة والمتحمسة. يخفف ذلك من ألمها أحياناً، بالرغم من أن الألم العميق الناجم عن خسارتها الكبيرة لابنتها لا يفارقها أبداً.

ما زالت تتفادى التحدث عن الموضوع هي وجون. يتحدثان قليلاً جداً هذه الأيام. ما من شيء لقوله، لكن الكلمات التي يتبادلانها بدت أقل حدة على الأقل، وقد لمس يدها أكثر من مرة، أو طلب منها شيئاً بصوت ناعم ذكّرها بالوقت الذي عرفته قبل موت آني، وقد خسرا بعضهما نتيجة لذلك. بدا في الآونة الأخيرة أنه يعود إلى المنزل أبكر مما فعل لوقت طويل، وتبذل ليز جهداً لتحضير العشاء مجدداً. بدا وكأن التعرف إلى ماريبيث جعلهم جميعاً أكثر ليونة، وقرّبهم قليلاً من بعضهم. إنها هشة كثيراً، وصغيرة جداً، وهي وتومي مغرمان جداً ببعضهما. تبتسم ليز أحياناً لمجرد مراقبتهما.

كررت الدعوة لقضاء مناسبة الشكر معهم فيما كانتا تحضران العشاء.

"لا أريد التطفل"، قالت ماريبيث، وهي تقصد ذلك فعلاً. لقد خططت أصلاً للعمل في المطعم وخدمة الزبائن القلائل الذين يأتون لتناول الحبش.



معظم الأخريات لديهنّ عائلات أو أولاد، ويرغبن بالتواجد معهم في المنزل. لا تملك ماريبيث أي مكان لتذهب إليه، وفكرت أنها تستطيع العمل لمساعدة الأخريات الباقيات. تشعر الآن بالقليل من الذنب لأنها تركتهنّ لمجرد التواجد مع تومي وأهله، وأخبرت ليز بذلك في أثناء ترتيب الطاولة.

"لقد تقدّم حملك كثيراً لتعملي بهذا الكدّ على أي حال"، وبختها ليز فيما وضعت طبق الحساء على الطاولة. "لا يجدر بك الوقوف على قدميك طوال الوقت". يفترض أن يولد الطفل بعد شهر تقريباً، لقد أصبحت ماريبيث ضخمة الحجم الآن.

"لا أبالي"، قالت بهدوء، وهي تحاول ألا تفكر كثيراً في الطفل مثلما تريد. يصعب عدم التفكير فيه. تستطيع الإحساس بتحرك ذراعيه وساقيه داخلها، وتبتسم أحياناً لمجرد الإحساس بذلك.

"لكم من الوقت ستعملين في المطعم؟"، سألتها ليز، فيما جلستا للاستراحة بضع دقائق.

"حتى النهاية، حسبما أظن". هزّت ماريبيث كتفيها، فهي تحتاج إلى المال.

"عليك التوقف قبل ذلك"، قالت ليز بهدوء. "امنحي نفسك على الأقل أسبوعين للراحة. حتى في عمرك، يشهد جسمك الكثير من التغيرات. بالإضافة إلى ذلك، أريدك أن تمضي بعض الوقت الفعلي للتحضير لامتحاناتك قبل الخضوع لها". حددت ليز موعدها في منتصف شهر ديسمبر.

"سأبذل ما في وسعي"، وعدت ماريبيث، وتحدثت المرأتان عن أمور أخرى فيما تشاركتا مهامّ تحضير العشاء. كانت ليز تخفف النار لإبقاء الطعام ساخناً حين وصل تومي ووالده، فجاء وصولهما في التوقيت المناسب وكانت معنوياتهما مرتفعة. يساعد تومي والده في العمل بعد المدرسة، واتصل جون بالمنزل للمرة الأولى منذ أشهر، للسؤال عن موعد حضورهما إلى المنزل لتناول العشاء.

"مــرحبا أيــتها الفــتاتان، ماذا تفعلان؟"، سأل جون بمرح فيما قبّل زوجته بحذر، ثم نظر إلى وجهها ليرى ردّ فعلها. في الآونة الأخيرة، بدا أنهما يتقربان أكثر من بعضهما، لكن الأمر أخافهما قليلاً. فقد انفصلا عن بعــضهما لوقت طويل جداً، بحيث إن أي حميمية بينهما تبدو غريبة وغير اعتيادية. نظر أيضاً إلى ماريبيث مع ابتسامة حنونة، ولاحظ أن تومي كان يمسك بيدها ويتحدث إليها بهدوء أمام طاولة المطبخ.

لقــد أمضوا جميعاً يوماً جيداً، وأعطت ليز تومي مهمة التحدث إلى ماريبيث لإقناعها بالانضمام إليهم في مناسبة الشكر. إلا أن الموافقة جاءت بــسهولة، حــين اصــطحبها إلى المنزل بعدما أنجزا فروضهما في غرفة الجلــوس، وجلــسا في الشاحنة يتحدثان. شعرت بالكثير من الحنين لتلك الأيام، وبالكثير من الحساسية تجاه العديد من الأمور، وبالكثير من الخوف أحياناً. أرادت فجأة التشبث به، والتعلق به بطرائق لم تتوقعها أبداً. أرادت أن تكون معه أكثر من قبل، فهي تشعر دوماً بالارتياح والسعادة حين يدخل إلى المطعم، أو غرفتها، أو مطبخ أهله.

"هل أنت بخير؟"، سألها برفق فيما رأى الدموع في عينيها حين قالت إنها ستأتي للمشاركة في مناسبة الشكر.

"نعــم، أنــا بخير". بدت محرجة فيما مسحت دموعها. "مجرد غباء، حــسبما أظن. لا أعرف... لكن الأمور تجعلني أبكي الآن... إنهما لطيفان جــداً معي، بالرغم من أنهما لا يعرفانني. ساعدتني أمك في المدرسة، في كل شيء... لقد فعلا الكثير لي، ولا أعرف كيف أشكرهما".

"تزوجيني"، قال بجدية، وضحكت.

"نعم، طبعاً. سيكون ذلك ممتازاً. سيشكرانني فعلاً على ذلك".

"أظن أنهما سيفعلان. أنت أفضل شيء حدث لعائلتي منذ سنوات. لم يــتحدث والــداي إلــى بعضهما طوال سنة، إلا حين كانا يصرخان على بعــضهما، أو يقــولان شيئاً حقيراً بسبب عدم تعبئة الوقود في السيارة أو نسيان إخراج الحيوان الأليف. إنهما يحبانك ماريبيث. جميعنا نحبك".



"لكــن هذا ليس سبباً لتحطيم حياتكم، لمجرد أنني أحدثت فوضى في حياتي. إنهما شخصان رائعان فعلاً".

"وأنــا أيــضاً"، قــال لها وهو يمسكها بشدة، ويرفض إفلاتها، فيما ضحكت. "ستحبينني أكثر حين نتزوج".

"أنت مجنون".

"نعــم"، ابتسم ابتسامة عريضة. "مجنون بك. لا يمكنك التخلص مني بهذه السهولة".

"لا أريــد ذلك"، قالت له وامتلأت عيناها بالدموع مجدداً، ثم ضحكت على نفسها. بدت عواطفها تتفجر بسهولة، لكن الدكتور ماكلين أخبرها أن هذا طبيعي. إنها في الشهر الأخير، وستحصل الكثير من التغيرات المهمة. خــصوصاً فــي عمرها، وفي وضعها، يُتوقّع حصول الكثير من التقلبات العاطفية.

أوصلها تومي ببطء إلى الباب، ووقفا لوقت طويل على الدرج. إنها ليلة باردة وصافية وحين قبّلها أحسّ بالطفل يتحرك وعرف أنه يريدها إلى الأبــد. رفــض تقبل فكرة عدم زواجها به أبداً، أو إنجاب طفل منه. أراد مــشاركة الكثير معها، وعرف أنه لن يسمح لها أبداً بالرحيل، فقبّلها مجدداً ثم تركها أخيراً فيما نزل الدرج مسرعاً وهو يبدو وسيماً وأشعث الشعر.

"لماذا تبدو بهذه السعادة؟"، سألته أمه حين عاد بعدما أوصل ماريبيث إلى المنزل.

"ســتأتي إلى حفل مناسبة الشكر"، لكنها لاحظت أن هناك أمراً آخر غيــر هــذا. إنه يعيش على الأحلام والآمال، وحماس الحب الأول. يكون مسروراً جداً أحياناً حين يتواجد برفقتها لدرجة أنه يصبح مجنوناً.

"هــل قالــت شيئاً آخر؟". راقبته أمه بعناية. تقلق عليه أحياناً، لأنها تعــرف كــم هو مغرم بها. لكنها تعرف أيضاً أن ماريبيث تواجه مشاكل أكبر. فالتخلي عن طفلها سيؤثر فيها إلى الأبد. "كيف تتأقلم مع الأمور؟ لقد اقترب موعد ولادتها كثيراً". إنها بصحة سليمة، لكن ليست هذه المشكلة في

حالتها. عليها مواجهة الولادة، من دون زوج وعائلة، وعليها التخلي عن الطفل، إذا فعلت ذلك فعلاً، ومواجهة وضع عائلي صعب حين تعود إلى المنزل. إنها مصرّة على مغادرتهم في شهر يونيو، إذا استطاعت البقاء حتى ذلك الوقت، وهذا أمر تشك فيه ليز. لقد غابت عنهم خمسة أشهر، وأصبحت مستقلة تماماً عنهم. لن تكون العودة سهلة عليها الآن، وتحمّل سوء معاملة والدها لها.

"هل هي جدية فعلاً في مسألة التخلي عن الطفل؟"، سألت ليز فيما انتهت من تجفيف الصحون، وتناول تومي بعض قطع الحلوى. يحب التحدث إلى أمه لأنها تعرف الكثير عن الأمور والفتيات والحياة. لم يتحدثا كثيراً خلال العام الماضي، لكنها عادت الآن تلك المرأة التي كانت عليها قبل موت آني.

"أظن ذلك. أعتقد أنها مجنونة لتصرفها هذا. لكنها تقول إنها تعرف أنها لا تستطيع الاهتمام به بالشكل الصحيح. لا أظن أنها تريد فعلاً التخلي عنه، لكنها تظن أنه يجدر بها فعل ذلك، من أجل الطفل".

"التضحية القصوى"، قالت ليز بحزن، وهي تفكر أنه ما من شيء أسوأ في العالم يمكن أن تواجهه أي امرأة، وتمنت لو أنها تستطيع إنجاب طفل آخر.

"أقول لها دوماً إنه لا يجدر بها فعل ذلك، لكنها لا تصغي إليّ".

" ربما هي محقة. من أجلها هي. ربما تعرف ما تستطيع ولا تستطيع فعله الآن. إنها يافعة جداً، ولا تملك أحداً لمساعدتها. يبدو أن عائلتها لن تفعل أي شيء لها. سيكون عبئاً ثقيلاً، وقد ينعكس ذلك سلباً على الطفل. قد يدمّر ذلك حياتهما معاً إذا احتفظت به". لا تستطيع تخيل ذلك، لكن عليها الاعتراف أن وضع ماريبيث ليس سهلاً أبداً.

"هذا ما تقوله. تقول إنها تعرف أن هذا ما يجدر بها فعله. أظن أنه لهذا السبب لا تتحدث عن الطفل كثيراً، ولم تشترِ له الكثير من الأشياء. لا تريد التعلق به". إلا أنه لا يزال يريد الزواج بها والاحتفاظ بالطفل. بالنسبة



إليه، هذا هو الشيء الصحيح الواجب عليه فعله. يريد تحمل مسؤولياته، ومسؤوليات شخص آخر. لقد ربّاه أهله تربية جيدة، وهو شخص محترم واستثنائي.

"عليك الاستماع إلى ما تريده، توم"، حذّرته ليز. "تعرف ما هو ملائم لها، مهما بدا الأمر بالنسبة إليك. لا تحاول إجبارها على شيء آخر...". نظرت إليه مباشرة حينها وتابعت: "... أو تجبر نفسك بشيء لا تستطيع تحمله. أنتما صغيران جداً، واعلم أن الزواج والأبوّة ليسا أمرين يمكن الاستخفاف بهما، أو يمكن فعلهما لمجرد مساعدة شخص آخر. إنه تفكير نبيل، لكنه يتطلب الكثير من التضحية. إذا لم تسِر الأمور على ما يرام، ويحصل ذلك أحياناً، عليكما أن تكونا قويين جداً لتساعدا بعضكما. لا يمكنكما فعل ذلك في عمر الستة عشر عاماً..."، أو حتى في الأربعين أو الخمسين... لم تساعد هي وجون بعضهما كثيراً خلال العام الماضي. أدركت الآن كم كانا وحيدين، وعاجزين عن دعم بعضهما. لقد تاها تماماً عن بعضهما.

"أحبها ماما"، قال بصراحة، وهو يشعر ببعض الألم في قلبه. "لا أريدها أن تعيش هذه التجربة لوحدها". إنه صريح معها، وهي تعرفه جيداً. عرفت ما يريد فعله من أجل ماريبيث، ومهما كانت نواياه جيدة، أو مهما كانت ماريبيث لطيفة، لا تريدهما أن يتزوجا. ليس الآن على الأقل، وليس من أجل الأسباب غير المناسبة.

"ليست وحيدة. أنت موجود لمساعدتها".

"أعرف. لكن الأمر مختلف"، قال بحزن.

"تحتاج إلى الخروج من هذه المحنة. إنها حياتها أيضاً. دعها تعثر على الطريق الملائمة بنفسها. إذا كان هذا مناسباً لكما، ستكونان معاً مجدداً في يوم من الأيام".

أومأ برأسه، وهو يريد إقناعهم جميعاً أنه يجدر بها الاحتفاظ بالطفل والزواج به، لكن حتى ماريبيث لا توافق على ذلك، ولا أهله. يكشفون جميعاً عن عناد مذهل.

في مناسبة الشكر، بدوا جميعاً مثل عائلة واحدة سعيدة، فيما جلسوا حول الطاولة. استخدمت ليز أفضل غطاء للطاولة مطرز عندهم كان يخص جدة جون، وكان هدية زواجهما، والخزفيات التي تستعملها في المناسبات الخاصة. ارتدت ماريبيث فستاناً من الحرير الأخضر الداكن اشترته للمناسبات، وتدلى شعرها الأحمر الكثيف في شلالات متموجة على كتفيها. جعلتها عيناها الخضراوان الكبيرتان تبدو مثل فتاة صغيرة، بالرغم من بطنها الكبير جداً، بدت أنيقة جداً. ارتدت ليز فستاناً باللون الأزرق الساطع، ووضعت القليل من مساحيق التجميل، فكانت في طلة لم يعتد عليها أحد منذ زمن طويل. ارتدى الرجلان بدلتين رسميتين، وبدا المنزل دافئاً وفي جو احتفالي.

أحضرت ماريبيث الأزهار إلى ليز، وهي عبارة عن أزهار أقحوان ذهبية كبيرة، وعلبة من الشوكولاته، كان تومي يلتهمها. بعد الغداء، حين جلسوا جميعاً أمام الموقد، بدوا مثل عائلة واحدة أكثر من أي وقت مضى. إنها أول مناسبة رئيسية من دون آني، وكانت ليز خائفة كثيراً. فكرت كثيراً في هذا اليوم، لكن مع وجود ماريبيث وتومي معها، لم تكن المناسبة مؤلمة كثيراً. وبعد ظهر ذلك اليوم، ذهب جون وليز في نزهة طويلة، وأخذ تومي ماريبيث في السيارة. بالرغم من أنها عرضت العمل، أعطوها في المطعم إجازة من العمل في عطلة نهاية الأسبوع، وستبقى مع تومي وأهله.

"لا تـزلج، أنتما الاثنان!"، صرخت لهما ليز فيما مرّا أمامها، وكانت تتنزه هي وجون مع الحيوان الأليف. سيزوران بعض الأصدقاء، واتفق الأربعة على الالتقاء مجدداً في المنزل بعد ساعتين والذهاب لحضور السينما.

"ماذا تريدين أن تفعلي؟"، سأل تومي فيما توجها نحو البحيرة، لكن ماريبيث طلبت أمراً غريباً. تفاجأ به، لكنه شعر بالارتياح نوعاً ما. أراد الذهاب إلى هناك طوال اليوم، وفكر في أنها قد تظن أن هذا غريب ومجنون إذا طلب هو ذلك.



"هل تمانع إذا توقفنا أمام المقبرة لبضع دقائق؟ فكرت... شعرت وكأنني آخذ مكانها اليوم، لكنني لست كذلك. تمنيت كثيراً لو كانت هناك معنا، كي يكون والداك سعيدَين مجدداً. لا أعرف... أريد فقط المرور وإلقاء التحية عليها".

"نعم"، قال تومي. "وأنا أيضاً". هذا ما شعر به بالضبط، لكنه أحس أن والديه تحسنا كثيراً عما كانا لفترة طويلة، خصوصاً مع بعضهما.

توقفا واشتريا الأزهار في الطريق. اشتريا وروداً صغيرة صفراء ووردية مع أزهار قرنفل صغيرة، مربوطة كلها بأشرطة وردية طويلة، وضعاها برفق أمام قبرها، قرب الحجر الرخامي الأبيض الصغير.

"مرحبا صغيرتي"، قال تومي بهدوء، وهو يفكر في العينين الزرقاوين اللتين تلألأتا دوماً. "حضّرت أمي حبشاً رائعاً اليوم. كنت ستكرهين الحشوة لأنها اشتملت على الزبيب".

جلسا معاً هناك لوقت طويل، يمسكان بيدي بعضهما، يفكران فيها، ولا يتحدثان. يصعب التصديق أنها رحلت منذ عام تقريباً. بدا الوقت نوعاً ما أشبه بلحظات، لكنه بدا أيضاً دهراً طويلاً من نواحٍ أخرى.

"وداعاً آني"، قالت ماريبيث بهدوء فيما غادرا، لكنهما عرفا أنهما يأخذانها معهما. تذهب معهما إلى كل مكان، في الذكريات التي يحملها تومي معه، في الغرفة التي تقيم فيها ماريبيث، في نظرة عيني ليز حين تتذكرها.

"كانت طفلة رائعة"، قال مع غصّة في صوته فيما ابتعدا. "ما زلت لا أصدق أنها رحلت".

"لم ترحل"، قالت ماريبيث بهدوء. "لا يمكنك رؤيتها الآن، تومي. لكنها دائماً معك".

"أعرف". هزّ كتفيه، وهو يبدو فعلاً ابن ستة عشر عاماً، ثم أضاف "لكنني أشتاق إليها".

أومأت ماريبيث برأسها، واقتربت منه. جعلتها هذه المناسبة تفكر في عائلتها، والتحدث عن آني جعلها تشتاق إلى نويل. لم تستطع التحدث إليها

منذ أن تركت المنزل، وأخبرتها أمها قبل أشهر عبر الهاتف أن والدها لن يسمح لنويل بقراءة رسائل مارييبث. على الأقل، ستراها قريباً... لكن ماذا لو حصل خطب لها... مثل آني... مجرد التفكير في ذلك جعلها ترتجف.

كانت مارييبث هادئة حين عادا إلى المنزل، وعرف تومي أنها منزعجة من أمر ما. تساءل ما إذا كان السبب اصطحابها إلى قبر آني. قد يكون الأمر مزعجاً جداً في هذه المرحلة من الحمل.

"هل أنت بخير؟ هل تريدين الاستلقاء؟".

"أنا بخير"، قالت له وهي تحبس دموعها مجدداً. لم يعد والداه إلى المنزل بعد. لقد عاد هو ومارييبث في وقت مبكر. ثم فاجأته تماماً. "هل تظن أن والديك يمانعان إذا اتصلت بمنزلي؟ فكرت أنه ربما... ربما في مناسبة الشكر... فكرت في أن أقول لهم مناسبة شكر سعيدة".

"طبعاً... هذا جيد". إنه واثق من أن والديه لن يمانعا. وإذا فعلا، سيدفع ثمن الاتصال بنفسه. تركها لوحدها فيما أعطت عاملة الهاتف رقمها وانتظرت.

كانت أمها أول من أجاب على الاتصال. بدت أنها تلهث ومشغولة، وهناك الكثير من الضجيج حولها. عرفت مارييبث أن عمتيها وعائلتيهما تأتيان دوماً إلى منزلها للاحتفال بمناسبة الشكر، وتملكان أطفالاً صغاراً. كان هناك الكثير من الصراخ، ولم تستطع أمها سماعها.

"من؟... توقفوا! لا أستطيع أن أسمع. من هذا؟".

"هذه أنا ماما"، قالت مارييبث بصوت أعلى قليلاً. "مارييبث. أردت أن أتمنى لكم مناسبة شكر سعيدة".

"آه يا الله"، قالت وانفجرت فوراً في البكاء. "سيقتلني والدك".

"أردت أن أقول مرحباً، ماما". أرادت فجأة لمسها والإمساك بها ومعانقتها. لم تدرك حتى الآن كما اشتاقت إليها. "اشتقت إليك ماما". ملأت الدموع عينيها، وكادت مارغريت روبرتسون تركع فيما استمعت إليها.



"هل أنت بخير؟"، سألت بصوت خافت، وهي تأمل ألا يسمعها أحد.

"هل أنجبته؟".

"ليس قبل شهر". لكن فيما أجابت، صدر فجأة صوت قوي في الطرف الآخر، وحصل جدال، ثم سُحب الهاتف من يد أمها، وصدر صوت قوي عبر الهاتف.

"من هذا؟"، صرخ بصوت عالٍ. عرف من دموع زوجته من يتصل.

"مرحبا بابا. أردت فقط أن أتمنى لكم مناسبة شكر سعيدة". ارتعشت يدها بقوة، لكنها حاولت أن تبدو طبيعية.

"هل انتهى الأمر؟ تعرفين ماذا أقصد؟". بدا عديم الشفقة وفظاً فيما حبست هي دموعها.

"ليس بعد... فقط... أردت أن...".

"قلت لك ألا تتصلي بنا قبل أن ينتهي الأمر. عودي إلى المنزل بعدما تعالجين كل شيء وتتخلصين منه. ولا تتصلي بنا قبل ذلك الحين. هل تسمعين؟".

"أسمع. أنا... بابا، أرجوك...". سمعت أمها تبكي، وظنت أنها سمعت نويل تصرخ عليه، وتقول له إنه لا يستطيع فعل ذلك، لكنه فعل، وفيما بكت مارييبث، أغلق سماعة الهاتف، وعادت عاملة الهاتف إلى الخط لتسألها إذا انتهى الاتصال.

كانت تبكي بقوة لتجيبها. وضعت السماعة مكانها، وجلست هناك، تبدو مثل طفلة تائهة، وراحت تبكي بقوة. عاد تومي إلى الغرفة، وذعر لرؤيتها بالحال التي هي فيها. "ماذا حصل؟".

"لم... لم يسمح لي... بالتحدث إلى ماما..."، بكت بقوة، "وطلب مني عدم الاتصال مجدداً قبل أن أتخلص منه. هو... أنا...". لم تستطع حتى إخباره بما تشعر، لكن من السهل ملاحظة ذلك. وكانت لا تزال منزعجة حين عاد والداه إلى المنزل بعد نصف ساعة. جعلها تستلقي، لأنها كانت تبكي بقوة فظن أنها ستنجب الطفل.

"ماذا حصل؟"، سألت أمه وهي تبدو قلقة حين أخبرها.

"اتــصلت بأهلها، وأقفل والدها السماعة في وجهها. أظن أنها كانت تــتحدث إلى أمها، وأمسك بالهاتف، وطلب منها عدم الاتصال بهم قبل أن تتخلص من الطفل. يبدون مريعين، أمي. كيف تستطيع العودة إلى هناك؟".

"لا أعــرف"، قالت ليز وهي تبدو قلقة. "لا شك في أنه لا يبدو كثيراً مثل أب. لكن تبدو هي متعلقة كثيراً بأمها... سيستمر ذلك حتى شهر يونيو فقط...". لكن ليز فهمت بوضوح أن الأمر سيكون صعباً جداً على ماريبيث حين تعود إلى أهلها.

دخلــت بهدوء إلى غرفة آني، وجلست على السرير قرب ماريبيث التي كانت لا تزال تبكي.

"لا تدعــيه يــزعجك هكذا"، قالت بهدوء وهي تضع يد ماريبيث في يــدها، وتــربّت برفق على أصابعها، مثلما كانت تفعل مع آني. "ليس هذا جيداً لك أو للطفل".

"لمــاذا يتصرف بهذه الحقارة؟ لماذا لا يسمح لي على الأقل بالتحدث إلى نويل وأمي؟". لا تهتم إذا لم تتحدث إلى راين، لأنه مثل والدها.

"يظــن أنــه يحميهما من أخطائك. لا يفهم. ربما هو محرج مما حصل".

"وأنا أيضاً. لكن هذا لا يغير شعوري تجاههم".

"لا أظن أنه يفهم ذلك. أنت فتاة محظوظة، وتملكين عقلاً رائعاً وقلباً كبيراً. لديك مستقبل ماريبيث. أما هو، فلا".

"وأي مــستقبل لــي؟ كــل من في البلدة سيتحدث دوماً عما حصل. ســيعرفون. حتــى لــو ذهــبت بعــيداً، سيتحدث الناس. سيخبرهم أحد. وســيكرهونني. ســيظن الــشباب أنني سهلة المنال، وستظن الفتيات أنني رخيــصة. لن يسمح لي أبي أبداً بالذهاب إلى الجامعة حين أنهي المدرسة. ســيحاول إجــباري على العمل معه، أو البقاء في المنزل ومساعدة أمي، وسأدفن مثلها تماماً".



"لست مضطرة إلى فعل ذلك"، قالت ليز بهدوء. "لست مضطرة إلى فعل أي شيء مثلها. وأنت تعرفين من تكونين. تعرفين أنك لست سهلة أو رخيصة. ستنهين المدرسة ثم تقررين ماذا تريدين... وستفعلين ذلك".

"لــن يسمح لي بالتحدث إليهما مجدداً. لن أتمكن أبداً من التحدث إلى أمي مجدداً". بدأت تبكي بقوة مجدداً، مثل طفلة صغيرة، وأمسكتها ليز بين ذراعــيها وعانقــتها بقوة. هذا كل ما تستطيع فعله، مجرد التواجد لأجلها. تحطــم قلبها لرؤية هذه الفتاة الرائعة تعود إلى أولئك الأشخاص البائسين. تفهم الآن لماذا يريد تومي الزواج بها. هذا كل ما يستطيع فعله لمساعدتها. أرادت ليــز إبقاءهـــا هنا، إبقاءها بمأمن عنهم. لكن من جهة أخرى، إنهم عائلــتها، وعرفت ليز أنها تشتاق إليهم بطريقتها الخاصة. تتحدث ماريبيث دوماً عن العودة إلى المنزل بعد إنجاب الطفل. لا تعرف ربما ما يجدر بها فعله، لكنها أرادت دوماً رؤيتهم.

"سيتحــسن الوضع حين تعودين إلى المنزل"، قالت ليز، وهي تحاول تشجيعها، لكن ماريبيث هزّت رأسها ومسحت أنفها بمنديل ليز.

"لا، لن يتحسن. سيصبح أسوأ. سيذكرني والدي بذلك طوال الوقت، مــثلما يفعــل مع عمتيّ. يتحدث دوماً كيف أجبرتا نفسيهما على الزواج، وتشعران هما بالإحراج. أو على الأقل واحدة منهما تفعل ذلك. كانت تبكي طــوال الوقت. العمة الأخرى طلبت منه أن يخرس، وقالت له إن زوجها سيــشبعه ضــرباً إذا ذكر الأمر مجدداً. وبالفعل، لا يقول أي شيء عنها الآن".

"ربما هناك درس يجب تعلمه"، قالت ليز وهي تفكر في الأمر. "يجدر بــك ربما التوضيح أنك لن تقبلي ذلك". لكنها مجرد فتاة عمرها ستة عشر عامــاً. كــيف تستطيع مواجهة والدها؟ لحسن حظها أنها عثرت على آل ويتاكر. لولاهم، لكانت وحيدة تماماً وهي تنجب هذا الطفل.

ساعدتها ليز على النهوض بعد برهة، وحضّرت لها كوباً من الشاي، فيما تحدث الرجلان بهدوء، وجلسا أمام المدفئة. وفي النهاية، ذهبوا جميعاً

إلى السينما وكانت معنويات ماريبيث أفضل حين عادوا. لم يذكر أحد أهلها مجدداً، وحين وصلوا إلى المنزل، خلدوا جميعاً إلى النوم باكراً.

"أشعر بالكثير من الأسى عليها"، قالت ليز لجون حين أصبحا في السرير. أصبحا ودودين مجدداً مع بعضهما، ويتحدثان الآن بصراحة أكبر عن الأمور. لم يعد الصمت المدوي يخيم في غرفة نومهما.

"يشعر تومي بالأسى عليها أيضاً"، قال. "من المؤسف أنها حملت". هذا جلي من دون شك، لكن ليز غاضبة أيضاً من أهلها.

"أكره رؤيتها تعود إلى المنزل إليهم، لكن المضحك أنها تريد ذلك".

"إنهم كل ما لديها. وهي صغيرة جداً. لكن هذا لن يدوم طويلاً. تريد ارتياد الجامعة، ولن يستطيع والدها رفض ذلك".

"يبدو مثل طاغية حقيقي. لكن ما من أحد لتوبيخه. ربما لو تحدث أحد إليه..."، قالت ليز وهي تفكر. "تحتاج إلى مخرج، إلى بديل، بحيث إذا لم تنجح الأمور هناك، تستطيع الذهاب إلى مكان آخر".

"لا أريدها أن تتزوج تومي"، قال بحزم. "على الأقل ليس الآن. إنهما صغيران جداً، وقد ارتكبت هي خطأ كبيراً وتحتاج إلى تجاوز ذلك. هذا كثير عليه ليتحمله الآن، حتى لو أراد ذلك".

"أعرف ذلك"، صرخت في وجه جون. لا يزال يزعجها أحياناً. لا يريد أي منهما أن يتزوج تومي الآن، لكنها غير مستعدة للتخلي عن ماريبيث أيضاً. لقد جاءت إليهم لسبب ما، وهي فتاة مميزة. لن تخذلها ليز أو تفشل في مساعدتها.

"أظن أنه عليك البقاء بعيدة عن الموضوع. ستنجب الطفل وتعود إلى المنزل إليهم. إذا واجهت مشكلة، تستطيع الاتصال بنا. أنا واثق من أن تومي سيبقى على اتصال بها. إنه مفتون بالفتاة. لن ينساها حين تغادر". بالرغم من أن المسافة الفاصلة بين منزليهما ستوفر نوعاً من التحدي ليتابعا قصة حبهما.

"أريد التحدث إليهم"، قالت ليز، ونظرت إليه لكنه هزّ رأسه.

"أقصد أهلها".



"لا تتدخلي في شؤونهم".

"ليست هذه شؤونهم. إنها شؤونها. لقد تركها أولئك الأشخاص لوحدها لتحلّ مشاكلها في الوقت الذي تحتاج فيه إليهم فعلاً. لقد تركوها فعلاً لوحدها. ومثلما أرى، فقدوا حقهم في فرض شروطهم عليها، لأنهم أخفقوا في توفير الدعم لها".

"قد لا يرون الأمر بهذه الطريقة". ابتسم. يحب أحياناً طريقة تدخلها في الأمور، واهتمامها البالغ بكل شيء، مما يدفعه أحياناً للجنون. إلا أنها لم تهتمّ بأي شيء منذ وقت طويل، وأحب فكرة قيام ماريبيث بإشعال هذه الشرارة فيها مجدداً. لقد أشعلت شرارة الكثير من الأمور فيهم جميعاً. يشعر نوعاً ما بالأبوة تجاهها. "أبلغيني بقرارك"، قال وابتسم مجدداً فيما أطفأت الضوء.

"هل تأتي معي إذا ذهبتُ لرؤيتهم؟"، سألت فجأة. "أريد رؤيتهم بنفسي قبل أن تعود إلى هناك"، قالت ليز وهي تشعر بأمومة غريبة تجاه ماريبيث ربما في يوم ما، قد تصبح زوجة ابنها، لكن سواء أحصل ذلك أم لا، لن تتخلى عنها لأهل عديمي الرحمة.

"في الواقع، أودّ ذلك". ابتسم لها في الظلمة. "أظن أنني سأستمتع بمراقبتك وأنت تلقين عليه العظة". قهقه وضحكت هي. "أبلغيني فقط متى تريدين الذهاب"، قال بهدوء وأومأت برأسها.

"سأتصل بهم غداً"، قالت بحزم، ثم استدارت إلى جنبها ونظرت إلى زوجها. "شكراً جون". أصبحا صديقين مجدداً، ولا شيء أكثر. لكن هذا شيء على الأقل.

# الفصل التاسع

مع الكثير من الندم، قدمت ماريبيث استقالتها من المطعم يوم الاثنين الـــذي تلا مناسبة الشكر. تحدثت هي وليز عن الموضوع مجدداً، ووافقت على أنها تحتاج إلى الوقت للاستعداد كما يجب لامتحاناتها، علماً أن الطفل ســـيولد مباشـــرة بعد الميلاد. ستترك العمل في الخامس عشر من الشهر، ويـــريدها آل ويتاكـــر أن تأتي إلى منزلهم وتبقى معهم حتى ولادة الطفل. قالـــت ليز إنه لا يجدر بها البقاء لوحدها، في حال حصل شيء ما. وأكدوا لها أنهم يرغبون فعلاً بتواجدها معهم.

فـــرحت كثيراً باللطافة التي غمروها بها، وأحبت فكرة البقاء عندهم. بـــدأت تـــشعر الآن بالعـــصبية من فكرة الولادة. وبقاؤها معهم يعني أنها تـــستطيع إنجاز المزيد من الفروض مع ليز، والحصول ربما على المزيد من المعادلات في المدرسة. من دون ذكر التقرب أكثر من تومي. يبدو هذا تـــرتيباً مثالـــياً، ونجحت ليز في إقناع جون بأن وجودها معهم حتى ولادة الطفل سيكون شيئاً مميزاً يقومان به من أجل تومي.

"وهـــي تحـــتاج إلى وجود شخص معها بعد ذلك"، شرحت ليز. "سيكون الوضع صعباً جداً عليها عند إبعاد الطفل". عرفت مقدار الألم الـــذي سيـــسببه ذلـــك. فقد خسرت طفلتها، وتفهم تماماً بماذا ستشعر ماريبـــيث حـــين تتخلـــى عن طفلها. سيكون الألم كبيراً، وأرادت ليز الـــتواجد معها. من دون التفكير في الأمر، أصبحت تحب الفتاة، وكبر الرابط بينهما في أثناء عملهما معاً. تملك ماريبيث ذكاء حاداً، ولا تكلّ

أبداً في جهودها لتحسينه. إنه أمر ترغب به بشدة. إنه أملها الوحيد للمستقبل.

حزن كل من في المطعم لرحيلها. لكنهم تفهموا الموضوع. قالت لهم إنها ستعود إلى عائلتها لتنجب الطفل لكنها لم تخبر أحداً أنها لم تتزوج أبداً، أو أنها لا تنوي الاحتفاظ بالطفل. وفي يومها الأخير هناك، أقامت لها جولي حفلة صغيرة، وأحضر لها الجميع هدايا صغيرة للطفل. كانت عبارة عن أحذية صغيرة وكنزة حاكتها إحدى الفتيات لها، وبطانية وردية وزرقاء مع بطات صغيرة عليها، ودب صغير، وبعض الألعاب، وعلبة حفّاضات من أحد العاملين، وأحضر لها جيمي كرسياً للطفل.

فيما نظرت إلى الأشياء الصغيرة التي أعطوها إياها، شعرت مارييث بالكثير من العاطفة. فالتعاطف الحقيقي معها مزّق قلبها، لكنها تألمت أكثر من حقيقة عدم رؤيتها أبداً لطفلها وهو يستعمل أياً من هذه الأغراض وأدركت للمرة الأولى ما يعنيه فعلاً التخلي عن الطفل. أصبح الطفل فجأة حقيقياً بالنسبة إليها أكثر من أي وقت مضى. أصبح لديه ملابس وجوارب وقبعات وحفّاضات ودب وكرسي صغير. لكنه لا يملك أماً وأباً، وحين عادت إلى غرفتها بعد ظهر ذلك اليوم، اتصلت بالدكتور ماكلين، وسألته عن التقدم الذي أحرزه في العثور على أهل لتبني الطفل.

"أفكر في ثلاثة أزواج"، قال بحذر، "لكنني لست أكيداً من أن أحدهم مناسب أصلاً". فقد اعترف الوالد أنه مدمن على الشراب وتردد أفيري ماكلين في منحهما الطفل. "اكتشف الثنائي الثاني أن المرأة أصبحت حاملاً فعلاً. أما العائلة الثالثة فلا تريد التبني. لم أتحدث إليها بعد. ما زال لدينا بعض الوقت".

"أسبوعان، دكتور ماكلين... أسبوعان...". لا تريد إحضار الطفل إلى المنزل ومن ثم التخلي عنه. سيكون ذلك عذاباً كبيراً. وعرفت أنها لا تستطيع العودة إلى منزل أل ويتاكر مع طفل. سيكون ذلك تطفلاً كبيراً.



"سنعثر على أحد، مارييث، أعدك. وإلا، يمكنك ترك الطفل في المستشفى لأسبوعين. سنعثر على الثنائي المناسب. لا نريد ارتكاب خطأ، أليس كذلك؟". وافقته الرأي لكن كرسي الطفل في زاوية غرفتها بدا فجأة طاغياً بقوة. وعدتهم جميعاً بأن تتصل بهم وتخبرهم بجنس الطفل، وأكدت لهم أنها ستفعل ذلك. ومجرد إدراكها بأنها كذبت عليهم جعل الوداع صعباً جداً، خصوصاً وداع جولي.

"اعتني بنفسك، هل تسمعين؟"، قالت لها جولي. "ما زلت أرى أنه يجدر بك الزواج بتومي". ستفعل ذلك ربما بعد ولادة الطفل، هكذا قالوا جميعاً بعدما غادرت. وكان الدكتور ماكلين يفكر في الشيء نفسه حين أقفل الخط. لا يريد مساعدتها على التخلي عن الطفل، لتكتشف بعد ذلك أنها نادمة هي وتومي على ذلك لاحقاً. فكر في مناقشة المسألة مع ليز، لمعرفة رأيها في الموضوع، إذا كانوا جديين فعلاً في التخلي عن الطفل، لكنه يجهل شعور الثنائي الشاب عند تحدثه مع أهل تومي. إنه وضع حساس. لكنه أحس بإلحاح مارييث الآن. من الواضح أنها تريد حسماً للموضوع، ووعدها، ووعد نفسه، بأنه سيجري بحثاً جدياً للعثور على أهل للتبني.

في اليوم الذي تلا تركها المطعم، ساعدها تومي على نقل كل أغراضها إلى غرفة آني. وضعت أغراض الطفل التي أعطوها إياها في علب داخل المرأب، وقالت إنها سترسلها إلى المستشفى لأهل التبني. ما زالت تشعر بالاختناق كلما نظرت إليها. إنها تجعل الأمور تبدو حقيقية جداً.

صباح يوم السبت، شرحت ليز أنها مضطرة هي وجون إلى التغيّب عن البلدة حتى اليوم التالي. يريد زيارة بعض أسواق المحاصيل عند حدود الولاية، ولن يعودا قبل يوم الأحد. شعرت بالقليل من الانزعاج لتركهما لوحدهما، لكنها ناقشت الأمر هي وجون مطولاً وعرفا أنه يمكن الوثوق بهما.

شعر تومي وماريبيث بالامتنان لقضائهما الوقت لوحدهما، وأرادا التصرف جيداً وعدم خذل أهله. ونظراً إلى تقدّم حمل ماريبيث، لا توجد الكثير من الإغراءات.

بعد ظهر يوم السبت، ذهبا لشراء هدايا الميلاد. اشترت لأمه دبوساً صغيراً مزخرفاً، كان باهظاً عليها، لكنها رأت أنه جميل جداً ويبدو مثل شيء تضعه ليز، واشترت لوالده غيلوناً خاصاً للطقس السيّئ. وفيما تجولا عبر المتاجر، نظرت إلى بعض أغراض الأطفال، لكنها أجبرت نفسها دوماً على إعادتها وعدم شرائها.

"لماذا لا تشترين له شيئاً منك؟ مثل دب، أو قلادة صغيرة أو ما شابه؟". تساءل ما إذا كان فعلُ ذلك سيساعدها، وسيكون شيئاً منها تستطيع إرساله مع الطفل إلى حياته الجديدة وأهله الجدد، لكن عينيها امتلأتا بالدموع فيما هزّت رأسها. لا تريد أي أثر منها مع الطفل. قد تميل إلى البحث عنه حينها، أو النظر إلى كل طفل تراه يضع قلادة.

"عليّ التخلي عنه تومي. تماماً. لا أستطيع التشبث به". برزت غصة في حنجرتها فيما قالت ذلك.

"هناك بعض الأمور التي لا يمكنك التخلي عنها"، قال وهو ينظر إليها بتمعن، وأومأت برأسها. لا تريد التخلي عنه، أو عن الطفل، لكن الحياة تجبرنا على التخلي أحياناً عن أكثر الأشخاص الذين نحبهم. لا توجد أحياناً أي مساومات أو مفاوضات. إنه يعرف ذلك أيضاً. فقد خسر هو أكثر مما أراد. ولا يريد التخلي عن ماريبيث أو طفلها.

عادا إلى المنزل مع أغراضهما، وحضّرت له العشاء. لن يعود أهله إلا بعد ظهر اليوم التالي. وكان ذلك أشبه بالزواج، لناحية الاهتمام به، وتنظيف الأطباق بعد ذلك، ومن ثم الجلوس لمشاهدة التلفزيون. شاهدا *استعراض الاستعراضات* ومن ثم *أفضل الأغاني*. وجلسا هناك جنباً إلى جنب مثل عروسين جديدين، ونظرت إليه ماريبيث وضحكت، فيما شدّها إلى حضنه وقبّلها.



"أشعر وكأنني متزوج بك"، قال وهو يحب ذلك، وأحسّ بالطفل يتحرك فيما أمسكها ولامس بطنها.

ثم نهضت ومشت في الغرفة، وفركت ظهرها الذي كان يؤلمها. لقد مشيا كثيراً بعد ظهر اليوم، ويبدو في الآونة الأخيرة أن الطفل أصبح منخفضاً جداً. لا شك في أنه سيولد قريباً، وسيكون طفلاً كبيراً جداً. إنها فتاة طويلة، لكن وركيها ضيقان، ولطالما كانت نحيلة. بدأت ماريبيث تشعر بالذعر كلما فكرت في إنجابها الطفل.

اعترفت له بالأمر تلك الليلة، وشعر بالأسف عليها. أمل ألا يكون الأمر سيئاً بقدر ما يخشيان.

"لن تشعري ربما بأي شيء"، قال وهو يعطيها طبقاً من الآيس كريم تشاركاه بملعقتين.

"أتمنى ذلك"، وافقته الرأي، محاولة نسيان مخاوفها.

في تلك الليلة، حين خلدت إلى النوم في غرفة آني، جلس تومي قربها لوقت طويل، ثم استلقى قربها على السرير الضيق الذي كان سرير آني. "يمكننا النوم في غرفة أهلي إذا أردنا. لدينا مساحة كبيرة هناك ولن يعرفا أبداً". لكنهما وعدا بأن يحسنا التصرف، وأرادت ماريبيث الوفاء بوعدها.

"بلى سيعرفان"، قالت بحزم. "الأهل يعرفون كل شيء".

"هذا ما تعتقده أمي"، قال مبتسماً. "هيا ماريبيث. لن نحصل على فرصة أخرى. فهما يغيبان عن المنزل مرة كل خمس سنوات".

"لا أظن أن أمك ترغب بأن ننام في سريرها"، قالت بإصرار.

"حسناً، إذاً، فلننم في سريري. إنه أكبر من هذا"، قال متذمراً ووقع على الأرض للمرة العاشرة فيما ضحكت هي عالياً.

"أريد فقط أن أكون معك لبقية حياتي"، قال وهو يشعر بالنعاس، "ويوماً ما سيكون الطفل الذي في أحشائك طفلنا نحن، ماريبيث... هذا ما أريده...".

"وأنا أيضاً...". تريد ذلك فعلاً لكنها تريد أموراً أخرى أيضاً، تماماً مثلما فعلت أمه قبل أن تتزوج والده.

"لا أستطيع انتظارك. أبي انتظر أمي. لكن ليس لوقت طويل"، قال وهو يفكر كم أن الإحساس رائع حين تمسك به. "مثل سنة أو سنتين"، قال لها مبتسماً، ثم قبّلها. "يمكننا الزواج والذهاب إلى الجامعة معاً".

"ونعيش من أي مدخول؟".

"يمكننا العيش هنا"، قال لها. "يمكننا ارتياد الجامعة هنا والعيش مع أهلي". لكنها لم تحب هذه الفكرة، مهما أحبت أهله.

"حين نتزوج، إذا فعلنا"، قالت بصرامة فيما تثاءبت، "أريد أن نكون ناضجين ونتحمل بأنفسنا مسؤولياتنا، ومسؤولية أولادنا، مهما كان عمرنا".

"نعم ربما في عمر الستين"، قال وهو يتثاءب أيضاً، فيما ابتسم لها ثم قبّلها. "أريدك فقط أن تعلمي أنني سأتزوجك يوماً ما، ماريبيث روبرتسون. اعتادي على الفكرة. هذا كل ما في الأمر".

لم تعارض، وإنما ابتسمت فقط، فيما استلقت بين ذراعيه، وخلدت إلى النوم تفكر في آني وتومي وطفلها.



# الفصل العاشر

نهضا باكراً في صباح اليوم التالي وذهبا لشراء الزينة. وحين عادا إلى المنزل، أمضيا معظم فترة بعد الظهر وهما يزيّنان. بعض الزينة جعلت الدموع تتلألأ في عينيه حين نظر إليها، خصوصاً تلك التي حضّرتها أمه مع آني.

"هل تظن أنه يجدر بنا إبقاء هذه الزينة بعيداً؟"، قالت ماريبيث بالكثير من الاهتمام، وتناقشا. رؤية هذه الزينة قد تزعج أمه فعلاً، لكن عدم وجودها سيجعل الجميع يشعرون بالحزن أيضاً. ما من حلٍّ سهل. في النهاية، قررا تعليق الزينة لأن إخفاءها بعيداً سيكون مثل إنكار آني. إنها موجودة في هذه الزينة، وتشاركها جميع الذكريات. من الأفضل الاعتراف بها بدلاً من محاولة الادعاء أنها لم توجد أبداً. وفي الساعة الثالثة، وافقا على أن الزينة تبدو جميلة، وقد انتهيا منها.

حضّرت له سندويشات الطون للغداء، وفيما وضعا بقية الزينة بعيداً، احتفظ تومي بعلبة صغيرة جانباً ونظر إلى ماريبيث بطريقة غريبة.

"هل من خطب ما؟".

هزّ رأسه. لاحظت أنه يفكر في شيء ما. "لا. أريد الذهاب إلى مكان ما. هل تريدين المجيء معي أم أنك متعبة كثيراً؟".

"أنا بخير. ما الأمر؟".

"سترين". أحضر معطفيهما، وقد بدأ الثلج يتساقط حين توجها إلى شاحنته، وأخذ معه علبة الزينة الصغيرة. لم تكن واثقة مما يفعله في

البداية، لكن ما إن وصلا إلى هناك، عرفت ما جاء يفعله. ذهبا إلى المقبرة، وأراد وضع زينة صغيرة لآني.

أخرج علبة الزينة من الجهة الخلفية لشاحنته. إنها تحتوي على زينة بالغة الصغر، تلك التي كانت آني تحبها، مع دببة صغيرة، وجنود دمى ينفخون الأبواق، ثمة حبل من الخرز وشريط فضي مبهرج. كان أمراً مؤلماً جداً واحتاجا فقط إلى بضع دقائق للانتهاء منه، ثم وقفا ينظران، فيما تذكر هو كم كانت تحب الميلاد. أحبت آني كل شيء فيه. أخبر ماريبيث عن ذلك قبلاً، لكنه لم يستطع قول أي شيء هذه المرة. وقف هناك، وانهمرت الدموع على وجنتيه، متذكراً كم أحبها وكم تألم حين خسرها.

نظر إلى ماريبيث، عبر الزينة، ورأى بطنها الكبير المغطى بمعطفها، وعينيها الرقيقتين، وشعرها الساطع المنبثق من تحت الوشاح الصوفي الذي وضعته. لم يحبها يوماً أكثر مما فعل الآن.

"ماريبيث"، قال بهدوء، وهو يعرف أن آني ستوافق على ما يفعله. من الملائم فعل ذلك هنا. فقد أرادت أن تكون جزءاً من حياته ومن مستقبله. "تزوجيني... أرجوك... أحبك...".

"وأنا أحبك أيضاً"، قالت واقتربت منه أكثر، وأخذت يده في يدها فيما نظرت إليه، "لكنني لا أستطيع... ليس الآن... لا تطلب مني فعل ذلك...".

"لا أريد خسارتك...". نظر إلى القبر الصغير حيث هي أخته، مباشرة تحتهما، قرب الزينة التي أحضراها لها. "لقد خسرتها... لا أريد خسارتك... أرجوك، فلنتزوج".

"ليس الآن"، قالت بهدوء، وهي ترغب بمنحه كل شيء، لكنها تخاف أيضاً إيذاءه إذا أخفقت معه. إنها أكثر حكمة من عمرها، وبطريقة ما، أكثر حكمة منه هو.

"هل تعدينني بالزواج بي لاحقاً؟".

"أعدك علناً في هذا اليوم، توماس ويتاكر، أنني سأحبك إلى الأبد". وكانت تقصد فعلاً كل كلمة قالتها. عرفت أنها لن تنسى أبداً ما فعله لها





منذ أول لحظة رأته فيها. لكن لا يستطيع أحد المعرفة أو التوقّع بما هو مقدّر لهما أو ما ستفضي إليه حياتهما. أرادت أن تكون جزءاً من حياته إلى الأبد، لكن من يعرف ماذا تخبئ الحياة لهما؟

"هل تعدينني بالزواج بي؟".

"إذا كان هذا مناسباً، وإذا كان هذا ما نريده نحن الاثنان". إنها دوماً صادقة.

"سأكون دوماً لك"، قال برصانة، وعرفت أنه يقصد ذلك فعلاً.

"وسأكون دوماً لك. سأكون دوماً صديقتك، تومي... سأحبك دوماً". وإذا كانا محظوظين، ستصبح زوجته يوماً ما. أرادت ذلك هي أيضاً، الآن، في عمر الستة عشر عاماً، لكنها حكيمة كفاية لتدرك أن الأمور قد تصبح مختلفة في يوم من الأيام. أو ربما لا، وقد يكبر حبهما مع الوقت، ويصبح في يوم ما أقوى أكثر من أي وقت مضى. أو يكون ربما مثل الأوراق، فتقذف بهما رياح الحياة إلى أبعد أقاصي الأرض وتفرقهما إلى الأبد، لكنها أملت ألا يحصل ذلك.

"سأكون مستعداً للزواج بك، متى أردت"، قال لها.

"شكراً"، أجابته، وتمددت لتقبيله. قبّلها، متمنياً لو أنها تعده بكل شيء، لكنه رضي بأنها أعطته ما تستطيعه في الوقت الحاضر.

وقفا بصمت، ينظران إلى الزينة الصغيرة ويفكران في أخته. "أظن أنها تحبك هي أيضاً"، قال بهدوء. "أتمنى لو أنها هنا"، ثم وضع يد ماريبيث تحت ذراعه، وقادها إلى الشاحنة. أصبح الطقس أكثر برودة منذ وصولهما، وكانا هادئين جداً في طريق العودة إلى المنزل. ثمة شيء مسالم كثيراً بينهما الآن، شيء قوي جداً ونقي جداً وصادق جداً. وعرفا أنهما قد يكونان معاً في يوم ما، أو ربما لا. سيحاولان، وسيكونان حاضرين لبعضهما قدر المستطاع. في عمر الستة عشر عاماً، هذا كثير، وأكثر مما يستوعبه بعض الأشخاص بعد عمر طويل. يملكان الأمل والوعد والأحلام. إنها طريقة جيدة للانطلاق. إنها هدية قدّماها لبعضهما.

جلسا يتحدثان بهدوء في غرفة الجلوس ينظران إلى ألبومات الصور القديمة، ويضحكان على صور الطفولة الخاصة به وبآني. أخّرت ماريبيث العشاء في انتظار وصول والديه من رحلتهما. سرّ أهله بالعودة إلى المنزل وسعدا برؤيتهما، وتحمسا لرؤية الزينة، وتوقفت ليز ونظرت إليها مطولاً حين رأت الزينة المألوفة، ثم نظرت إلى ابنها وابتسمت.

"أنا مسرورة لأنك وضعت هذه الزينة. كنت سأشتاق إليها لو لم تكن هنا". كان ذلك أشبه بمحاولة نسيان وجودها أصلاً، ولا تريد ليز نسيان ذلك.

"شكراً ماما". إنه مسرور لأنهما فعلا الشيء الصحيح، وذهبوا جميعاً إلى المطبخ لتناول العشاء. سألتهما ماريبيث عن رحلتهما، وقالت ليز إنها كانت جيدة. لم تكن متحمسة كثيراً، لكن جون أومأ برأسه دليل الموافقة. لقد جرت الأمور بأفضل ما يمكن، نظراً إلى الظروف. لكنهما بدوا مسرورين وساد جوّ احتفالي بينهم جميعاً لبقية السهرة. إلا أن ليز لاحظت شيئاً مختلفاً فيهما. كانا أكثر جدية من أي وقت مضى، وأكثر هدوءاً، ونظرا إلى بعضهما برابط أكبر من ذلك الذي لاحظته ليز بينهما قبلاً.

"لا تعتقد أنهما فعلا أي شيء في أثناء غيابنا، أليس كذلك جون؟"، سألته تلك الليلة، في غرفتهما، وبدا مسروراً.

"إذا كنت تقصدين ما أظن أنك تقصدينه، حتى شاب عمره ستة عشر عاماً لا يستطيع تخطي حاجزاً مثل هذا. أقول إن مخاوفك لا أساس لها من الصحة".

"لا تظن أنهما تزوجا، أليس كذلك؟".

"يحتاجان إلى إذننا لفعل ذلك. لماذا؟".

"يبدوان مختلفين لي. أقرب نوعاً ما، أشبه بواحد وليس اثنين، مثلما يكون الأشخاص المتزوجون، أو يفترض بهم أن يكونوا". كانت الرحلة جيدة لهما أيضاً. فالتواجد لوحدهما في غرفة فندق جعلهما أقرب إلى



بعضهما مما كانا طوال سنوات، واصطحبها لتناول العشاء خارجاً. وكانا قد أنجزا تقريباً ما أراداه قبل ذلك.

"أظن أنهما مغرمان كثيراً ببعضهما. علينا قبول ذلك"، قال جون بهدوء.

"هل تعتقد أنهما سيتزوجان فعلاً يوماً ما؟".

"لن يكون هذا أسوأ شيء بالنسبة إليهما. وقد اختبرا الكثير من الأمور معاً. قد يتبين لهما في النهاية أن هذا كثير عليهما أو أن التجربة صقلتهما. وحده الوقت كفيل بإخبارنا بذلك. إنهما رائعان، وأتمنى أن يبقيا معاً".

"إلا أنها تريد الانتظار"، قالت ليز، وهي تفهم ذلك جيداً، وابتسم لها بحزن.

"أعرف هذا النوع من النساء". لكنه نوع جيد، مثلما أثبت له الوقت. ليس نوعاً سهلاً دوماً، وإنما هو نوع جيد. "إذا كان هذا قدرهما، فسيعثران على طريقة لإنجاح الأمر في النهاية. وإلا، يكونان قد حصلا على شيء لا يحصل عليه معظم الأشخاص أبداً طوال الحياة. أحسدهما نوعاً ما". ثمة شيء يروق له في فكرة البدء مجدداً، وعيش حياة جديدة وانطلاقة نظيفة. يودّ الانطلاق مجدداً مع ليز. لكن بالنسبة إليهما، تأخر الوقت الآن نوعاً ما.

"لا أحسدها على ما ستعيشه"، قالت ليز بحزن.

"هل تقصدين الولادة؟". بدا متفاجئاً. لم تتذمر ليز أبداً من الولادة.

"لا، أقصد التخلي عن الطفل. لن يكون هذا سهلاً". أومأ برأسه، وهو يشعر بالأسف عليها. شعر بالأسف عليهما معاً، على الآلام التي سيعيشانها، للنضوج، لكنه حسدهما على ما تشاركاه وما يتطلعان إليه، معاً أو منفصلين.

بقيت ليز بالقرب من جون تلك الليلة، فيما نام، وجلست ماريبيث مع تومي وتحدثا لساعات في غرفة الجلوس.

كانا تماماً مثلما لاحظت أمه، أكثر قرباً من بعضهما، وأشبه بشخص واحـد بدلاً من شخصين. كان كل منهما أكثر نضجاً مما كان قبلاً. وللمرة الأولى في حياتها، شعرت ماريبيث أنها تملك مستقبلاً.

أيقظهـم المنـبه جميعاً في صباح اليوم التالي، واستحمت ماريبيث، وارتـدت ثـيابها في الوقت المناسب لمساعدة ليز على تحضير الفطور. تدبـرت ليز مسألة خضوع ماريبيث لامتحان خاص لإعفائها من النصف الأول مـن السنة الثانوية الثالثة. وسيخضع تومي للامتحانات النهائية هذا الـيوم أيـضاً. تحدثـوا عن الامتحانات في أثناء الجلوس حول الطاولة. سمحت لها إدارة المدرسة باصطحابها إلى غرفة خاصة، في مبنى الإدارة، حيث لن يراها أحد من التلاميذ، وستلاقيها ليز هناك لبقية الامتحانات ذلك الـصباح. كانـت إدارة المدرسة محترمة جداً معها، وتبذل ما في وسعها لمساعدتها، بفضل ليز التي تدعمها. وحين ودّعا بعضهما خارج المدرسة، تمنى لها تومي التوفيق ثم أسرع إلى صفوفه.

مـرّ بقية الأسبوع بسرعة كبيرة، وكانت عطلة نهاية الأسبوع التالية الأخيـرة قبل الميلاد. انتهت ليز من تسوق أغراض الميلاد، وفي طريقها إلى المنزل، ترددت لبرهة، ثم استدارت وقررت الذهاب لزيارة قبر آني. إنها تؤجل الأمر منذ أشهر، لأنه مؤلم جداً بالنسبة إليها، لكنها شعرت اليوم أنه عليها فعل ذلك.

عبـرت بوابات المقبرة، وعثرت على المكان الذي تركوها فيه. وفـيما اقتربت، توقفت وشهقت حين رأت المشهد أمامها. رأت الزينة الصغيرة، المنحنية قليلاً إلى جانب واحد، والزينة المتطايرة في الهواء، وتذكـرت الآن أمهـا كل كلمة، وكل صوت، وكل لحظة، وكل حزن صامت من العام الماضي، إلا أنها شعرت فجأة بنوع من الألم الممزوج بالفرح فيما أحست بالبوابات تفتح لملاقاتها. وقفت هناك بصمت لوقت طـويل، تبكـي على ابنتها الصغيرة، وتنظر إلى الزينة التي أحضرها تومي وماريبيث لها.



"أحبك، فتاتي الصغيرة... سأحبك دوماً... حبيبتي، حبيبتي آني...". لـم تستطع قول وداعاً لها، وعرفت أنها لن تفعل ذلك أبداً مجدداً، وذهبت إلى المنزل وهي تشعر بالحزن، وإنما بسلام كبير.

لـم يكـن هـناك أحد في المنزل حين وصلت، وشعرت بالارتياح، جلـست ليـز لـوحدها في غرفة الجلوس لوقت طويل، تنظر إلى الزينة المألوفة هناك. سيكون صعباً قضاء الميلاد من دونها. إنه صعب كل يوم. مـن الـصعب تناول الفطور والغداء والعشاء والقيام بنزهات إلى البحيرة وإلى كل مكان من دون الفتاة الصغيرة. من الصعب الاستيقاظ في الصباح والإدراك أنها لن تكون موجودة. لكنها عرفت أنه عليهم المضي قدماً. لقد جـاءت لـزيارتهم، لوقت قصير، لكنهم لم يعرفوا أن الأمر سيكون بهذه الطريقة. لكن ماذا كان في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك؟ هل كانوا سيحبونها أكثـر؟ يعطونها المزيد من الأشياء؟ يمضون المزيد من الوقت معها؟ لقد فعلـوا جمـيعاً كل ما في وسعهم، وفيما جلست ليز تحلم بها، عرفت أنها مستعدة لتقديم حياة كاملة من أجل الحصول على قبلة أخرى، وعناق آخر، ولحظة أخرى مع ابنتها.

كانت لا تزال جالسة هناك، تفكر فيها حين عاد الولدان إلى المنزل، وهمـا يضجّان بالحياة، ووجهاهما باردان جداً، ووجنتاهما حمراوان وهما يحملان الكثير من القصص عن حيث كانا وماذا فعلا.

ابتسمت لهما، ولاحظ تومي أنها كانت تبكي.

"أريـد فقط أن أشكركما أنتما الاثنين"، قالت وهي تختنق في كلماتها، "لأنكمـا أخذتما الزينة إلى... شكراً..."، قالت بهدوء ومشت بعيداً بسرعة. لم يعرف تومي وماريبيث ماذا يقولان لها، وبدأت ماريبيث تبكي هي أيضاً فـيما خلعـت معطفهـا وعلّقت أغراضهما. تتمنى أحياناً لو تستطيع جعل الحياة أفضل لهم جميعاً. ما زالوا يتألمون جميعاً من خسارة آني.

عـاد والـده إلى المنزل بعد فترة قصيرة، وكانت ذراعاه محمّلتين بالعلب، وكانت ليز في المطبخ حينها تحضّر العشاء. ابتسمت حين نظرت

إلــيه. هــناك المزيد من الدفء بينهما هذه الأيام، وشعر تومي بالارتياح لأنهمــا تــوقفا عن الصراخ في وجه بعضهما مثلما كانا يفعلان قبلاً. إنهم يتحسنون جميعاً، رويداً رويداً، بالرغم من أن الميلاد ليس سهلاً عليهم.

ذهــبوا جميعاً للاحتفال عشية الميلاد، وشخر جون بهدوء في حرارة دار العــبادة الــصغيرة ورائحة البخور. تذكرت ليز آني حين كانت تأتي معهم، وتنام غالباً بينهما، خصوصاً العام الماضي، حين بدأت تمرض ولم يعرفوا ذلك. حين عادوا إلى المنزل، خلد جون مباشرة إلى النوم، وانتهت ليز من ترتيب الهدايا. الأمر مختلف هذه السنة، بالنسبة إليهم جميعاً.

فــيما استدارت لمغادرة الغرفة، رأت ليز ماريبيث آتية في الممشى وتحمل بين ذراعيها الكثير من الهدايا، فذهبت لمساعدتها. أصبحت غريبة المظهــر الآن، وحــركتها أبطــأ بوضوح. شعرت بالانزعاج خلال الأيام القليلة الماضية، وأصبح الطفل منخفضاً جداً، وشعرت بالسرور لأنها أنهت امتحاناتها. رأت ليز أن الطفل لن ينتظر طويلاً.

"هــيا، دعيني أساعدك"، قالت لها وساعدتها على وضع الهدايا على الأرض. يصعب على ماريبيث الانحناء.

"بالكاد أستطيع التحرك"، تذمرت بطيبة خاطر، فيما ابتسمت ليز. "لا أســتطيع الجلــوس، لا أستطيع النهوض، لا أستطيع الانحناء، لا أستطيع رؤية قدميّ على الإطلاق".

"ســينتهي كل ذلك قريباً"، قالت ليز بنبرة تشجيعية، وأومأت ماريبيث بــصمت. ثــم نظرت إليها. أرادت ماريبيث التحدث إلى ليز منذ أيام، من دون وجود تومي أو والده.

"هل أستطيع التحدث إليك لبضع دقائق؟"، سألتها ماريبيث.

"الآن؟". بــدت ليز متفاجئة. "طبعاً". جلستا في غرفة الجلوس، قرب الــزينة، علــى مسافة ذراع واحدة من كل زينة آني. تشعر ليز بالتحسن حــيالها الآن. تحب رؤيتها كل يوم. فهذا أشبه برؤيتها هي، أو رؤية شيء لمسته قبل زمن غير بعيد. الأمر أشبه بزيارة من آني.



"فكــرت كثيــراً في هذا الموضوع"، قالت ماريبيث بقلق. "لا أعرف مــاذا ستظنين، أو تقولين، لكن... أنا... أريد منحك طفلي". كادت تحبس أنفاسها بعدما قالت ذلك.

"ماذا؟". حدّقت ليز إليها، كما لو أنها لم تستوعب الأمر. ضخامة ما قالــته للــتو يتخطى أي خيال. "ماذا تقصدين؟"، حدّقت ليز إليها. فالأطفال ليسوا أشياء تعطى للأصدقاء كهدايا.

"أريدك أن تتبنيه أنت وجون"، قالت ماريبيث بصرامة.

"لماذا؟". كانت ليز مذهولة. لم تفكر أبداً في تبني طفل. إنجاب طفل، نعــم، ولكن ليس تبني واحد، ولا تستطيع حتى تخيل رد فعل جون. تحدثا عــن الموضوع قبل أعوام عدة، قبل ولادة تومي. لكن جون لم يرغب أبداً بذلك.

"أريد أن أعطيك الطفل، لأنني أحبك، وأنتما رائعان"، قالت ماريبيث بهــدوء. إنها أكبر هدية يمكن أن تعطيها لهما أو لطفلها. لا تزال ترتجف لكــنها بــدت أكثر هدوءاً. إنها واثقة تماماً مما تفعله. "لا أستطيع الاهتمام بــولد. أعــرف أن الجميع يظنون أنني مجنونة للتخلي عنه، لكنني أعرف أننــي لا أســتطيع منحه ما يحتاج إليه. أما أنت، فبلى. ستحبينه وستكونين موجــودة لأجله، وستهتمين به، تماماً مثلما فعلت مع آني وتومي. سأتمكن من فعل ذلك أنا أيضاً يوماً ما، لكنني لا أستطيع الآن. لن يكون ذلك عادلاً لكليــنا، مهما قال تومي. أريدك أن تحصلي عليه. لن أطلب استرداده أبداً، لن أعود أبداً لإزعاجكم، إذا لم تريدوا أنتم ذلك... أعرف كم سيكون الطفل ســعيداً معكــم، وكــم ســتكونون أنتم رائعين معه. هذا ما أريده لطفلي". أصبحت تبكي حينها، وكذلك ليز، فيما اقتربت منها وأمسكت بذراعيها.

"ليست هذه هدية تعطينها لأحدهم، ماريبيث. مثل دمية أو غرض ما. إنها حياة. هل تفهمين؟". أرادت التأكد من أنها تفهم ما تقوم به.

"أعــرف ذلك. أعرف كل شيء. هذا كل ما فكرت فيه خلال الأشهر التــسعة الماضــية. صدقيني، أعرف تماماً ما أفعله". بدت وكأنها تعرف

فعلاً، لكن ليز كانت مصدومة. ماذا لو بدّلت رأيها؟ ماذا عن ابنها؟ ماذا سيكون شعوره إذا تبنوا طفل ماريبيث، أو أي طفل آخر؟ وجون؟ كان عقل ليز يدور مثل الدوامة.

"ماذا عنك أنت وتومي؟ هل أنت جدية معه؟". كيف يمكن لها أن تعرف في عمر الستة عشر عاماً؟ كيف يمكنها أن تتخذ مثل هذا القرار؟

"نعم، أنا جدية. لكنني لا أريد أن أبدأ بهذه الطريقة. لم يكن هذا الطفل أبداً مناسباً لي. لا أشعر حتى أنه مخصص لي. أشعر وكأنه كُتب لي أن أكون له، لوقت معين، لأجلبه إلى المكان المناسب والأشخاص المناسبين. لست الشخص المناسب. أريد الزواج بتومي يوماً ما، وإنجاب أولاد لنا، ولكن ليس هذا الطفل. لن يكون عادلاً له، حتى لو كان لا يعرف ذلك". وافقتها ليز الرأي، لكنها تأثرت لسماع ماريبيث تقوله. فكرت في أنهما يحتاجان إلى انطلاقة جديدة في يوم ما، إذا كان هذا مفيداً لهما، وما من طريقة ليعرف أحد كيف سيكون ذلك. لكن الانطلاق في عمر الستة عشر عاماً، مع طفل من رجل آخر، هو عبء كبير. "حتى لو تزوجنا، لن أحاول إبعاد الطفل عنك. لن يعرف حتى إنني كنت أمه". كانت تتوسلها، ترجوها لأخذ طفلها، لمنحه الحب والحياة اللذين يستحقهما، وعرفت أنهما يستطيعان منحه إياهما. "أشعر وكأن هذا الطفل هو لكم، ولهذا السبب جئت إلى هنا، لأنه يفترض به... بسبب ما حصل...". اختنقت عند قولها الكلمات وامتلأت عينا ليز بالدموع، "بسبب آني".

"لا أعرف ماذا أقول لك ماريبيث"، قالت ليز بصراحة، فيما انهمرت الدموع على وجنتيها. "إنها أجمل هدية يمكن أن يمنحني إياها أي شخص. لكنني لا أعرف إذا كانت مناسبة. لا يمكنك أخذ طفل امرأة أخرى".

"ماذا لو أرادت هي ذلك، ماذا لو كان هذا كل ما تستطيع منحه إياه؟ كل ما أريد منحه لهذا الطفل هو مستقبل، حياة مع أشخاص يستطيعون منحه الحب. ليس من العدل أن تخسري ابنتك الصغيرة، وليس من العدل ألا يحصل طفلي على حياة، أو مستقبل، أو أمل، أو



منزل، أو مال. ماذا سأعطيه أنا؟ لن يسمح لي أهلي بإحضاره إلى المنزل. لا أستطيع الذهاب إلى أي مكان. كل ما أستطيع فعله هو العمل في مطعم جيمي دي لبقية حياتي، ولا أستطيع حتى دفع أجرة مربية الأطفال من راتبي إذا احتفظت به". كانت تبكي فيما نظرت إلي عينيّ ليز، تتوسلها لتأخذ طفلها.

"يمكنك البقاء هنا"، قالت ليز بهدوء. "إذا لم يكن لديك مكان آخر تذهبين إليه، يمكنك البقاء معنا. لست مضطرة إلى التخلّي عن هذا الطفل، ماريبيث. لا أريدك أن تفعلي ذلك. لست مضطرة إلى التخلّي عنه كي يحصل على حياة جيدة. يمكنك البقاء معنا، مثل ابنتنا، إذا أردت، وسنساعدك". لا تريد إجبار هذه الفتاة على التخلي عن طفلها، لمجرد أنها لا تستطيع إعالته. يبدو هذا خطأً بالنسبة إليها، وإذا أخذت الطفل، ستفعل ذلك لأن ماريبيث تريد منها فعلاً القيام بذلك، وليس لأنها تعجز عن تحمّل مصاريفه.

"أريد أن أعطيك إياه"، قالت ماريبيث مجدداً. "أريدك أن تأخذيه. لا أستطيع فعل ذلك، ليز"، قالت، وهي تبكي بهدوء، وأخذتها ليز بين ذراعيها وأمسكت بها. "لا أستطيع... لست قوية كفاية... لا أعرف كيف... لا أستطيع الاهتمام بهذا الطفل... أرجوك... ساعديني... اجعليه طفلك... لا يفهم أحد ذلك، وأنا أريد الشيء المناسب للطفل. أرجوك". نظرت إليها بيأس، وكانتا تبكيان.

"يمكنك دوماً العودة إلى هنا على أي حال، وتعرفين ذلك. لا أريدك أن تبقي بعيدة إذا فعلنا ذلك. لن يعرف أحد أن الطفل منك... لا حاجة إلى أن يعرف الطفل ذلك... فقط نحن... نحن نحبك ماريبيث، ولا نريد خسارتك". وعرفت تماماً كم تعني بالنسبة إلى تومي. لا تريد إفساد أي شيء له، بدافع الأنانية، أو توقها إلى طفل آخر. إنها فرصة نادرة، وهدية لا يمكن تخيلها، وهي بحاجة إلى الوقت لاستيعابها. "دعيني أتحدث إلى جون"، قالت بهدوء.

"أرجوك أخبريه كم أرغب بشدة بذلك"، قالت وهي تتشبث بيديّ ليز.

"أرجـوك... لا أريد أن يكون طفلي مع غرباء. سيكون رائعاً فعلاً لو بقي معك... أرجوك ليز...".

"سـنرى"، قالت بهدوء، وهي تمسك بها وتحاول تهدئتها ومواساتها. انهارت أعصابها وهي تتوسل ليز لتبني طفلها.

حـضّرت لهـا ليـز بعـض الحلـيب الفاتر بعد ذلك، وتحدثتا عن الموضـوع أكثر، ثم وضعتها ليز في سرير آني وقبّلتها وعادت إلى غرفة نومها.

وقفت جامدة لبرهة طويلة، تنظر إلى جون، متسائلة عما سيقوله لها، وإذا كانـت الفكرة كلها مجنونة قليلاً. يجب التفكير في تومي أيضاً، وماذا لو رفض هذه الفكرة؟ هناك ألف اعتبار يجب أخذه في الحسبان. لكن حتى التفكيـر فـي الأمر جعل قلبها يخفق بطريقة لم تعهدها منذ أعوام... إنها هدية كل الأزمنة... هدية الحياة التي لا تستطيع إنجابها... هدية طفل آخر.

تململ جـون قلـيلاً حين استلقت في السرير قربه، وتمنت لو أنه يستيقظ لتسأله، لكنه لم يفعل. بدلاً من ذلك، طوقها بذراعيه، وشدّها بالقرب منـه، مـثلما فعـل طـوال أعوام، إلى أن ضربتهما المأساة خلال العام الماضي. لكن فيما استلقت هناك بين ذراعيه، راحت تفكر في ما تشعر به، ومـا تـريده، وما هو ملائم لهم جميعاً. تملك ماريبيث حجة قوية لمنحهم الطفـل، لكـن تـصعب معرفة ما إذا كان القيام بهذا الأمر صحيحاً أم أن الفكرة راقت لها لأن هذا ما تريده.

استلقت هناك لوقت طويل، عاجزة عن النوم، متمنية لو يستيقظ، إلى أن فتح عينيه أخيراً ونظر إليها، كما لو أنه رآها في لاوعيه. كان أكثر من نـصف نائم حين فتح عينيه وتحدث إليها. "هل من مشكلة؟"، همس لها في الظلام.

"ماذا تقول إذا سألتك عن شعورك حيال الحصول على طفل جديد؟"، سألته وهي مستيقظة تماماً، متمنية لو أنه واعٍ مثلها.





"أقول إنك مجنونة"، ابتسم وأغلق عينيه مجدداً وخلد إلى النوم في أقل من دقيقة. لكن ليس هذا هو الجواب الذي تريده.

اسـتلقت مستيقظة قربه طوال الليل، ولم تغفُ إلا قبل نصف ساعة فقط من انبلاج الفجر. كانت متأثرة جداً، وقلقة جداً، وعصبية جداً، ومليئة بالأسئلة والمخـاوف والهموم والتوق. ثم نهضت أخيراً، وذهبت إلى المطبخ في لباس نومها، وحضّرت لنفسها كوباً من القهوة. جلست هناك تحدق إليه لوقت طويل، وترتـشفه ببـطء، وفي تمام الثامنة عرفت ما تريده. لقد عرفت ذلك قبل وقت طـويل، لكنها لم تكن تعرف أنها تملك الشجاعة للقيام بذلك. عرفت أنه عليها فعـل ذلك الآن، ليس فقط من أجل ماريبيث والطفل، وإنما أيضاً لأجلها هي، وجون، وربما حتى تومي. عُرضت الهدية عليهم، ولا مجال أبداً لترفضها.

أخذت كوب قهوتها، وعادت إلى غرفة نومها وأيقظته. تفاجأ لرؤيتها مـستيقظة. لا داعي للاستيقاظ على عجلة هذه السنة، لا سبب للهروع إلى غـرفة الجلـوس ورؤية ما تركه سانتا. يمكنهم النهوض جميعاً في الوقت المناسب، ولم يتحرك تومي وماريبيث بعد.

"مـرحبا"، قالت وهي تبتسم له. إنها ابتسامة صغيرة خجولة لم يرها منذ وقت طويل، وذكّرته بالمرحلة التي كانا فيها أكثر شباباً.

"تبدين مثل امرأة مع مهمة". ابتسم واستدار على ظهره وتمدد.

"فعلاً. تحدثنا أنا وماريبيث طويلاً الليلة الماضية"، قالت فيما اقتربت مـن السرير وجلست قربه، متمنية ألا يخذلها. لا مجال لتأخير المسألة أو تأجيلها. عرفت أنه عليها إخباره، وكانت خائفة كثيراً من ذلك. الأمر مهم لها كثيراً. ترغب بذلك بشدة، وتريده أيضاً أن يرغب به بشدة، وخشيت ألا يفعل ذلك. "تريدنا أن نحتفظ بالطفل"، قالت بهدوء.

"جميعـنا؟". بدا مذهولاً. "تومي أيضاً؟ تريد الزواج به؟". جلس جون على السرير، وبدا قلقاً فعلاً. "خشيت أن يحصل ذلك".

"لا، لـيس جميعـنا. ولا تريد الزواج به، ليس الآن على الأقل. أنت وأنا. تريدنا أن نتبنى الطفل".

"نحن؟ لماذا؟". بدا أكثر من مصدوم. بدا غير متوازن.

"لأنها تظن أننا شخصان جيدان".

"لكن ماذا لو بدلت رأيها، وماذا سنفعل بالطفل؟". بدا مذعوراً وابتسمت له ليز. لقد وجهت إليه بلا شك ضربة قوية في الصباح.

"تماماً مثلما فعلنا مع الولدين الآخرين. نبقى مستيقظين طوال الليل لمدة سنتين، ونتوق إلى الأيام التي نحصل فيها على بعض النوم، ثم نستمتع بكل ذلك لبقية حياتنا... أو حياته"، قالت بحزن، وهي تفكر في آني. "إنها هدية، جون... للحظة، لسنة، لقدر ما ستبقيها الحياة معنا. ولا أريد رفضها. لا أريد التخلي عن أحلامي مجدداً... لم أفكر أبداً في أننا سنحصل على طفل آخر، وقال الدكتور ماكلين إنني لا أستطيع الإنجاب... لكن الآن هذه الفتاة جاءت إلى حياتنا، وعرضت علينا استعادة أحلامنا".

"ماذا لو أرادت استعادته بعد بضع سنوات، حين تكبر وتتزوج أو حتى تتزوج بتومي؟".

"أفترض أننا نستطيع حماية أنفسنا قانونياً، وهي تقول إنها لن تفعل ذلك. لا أظن أنها ستفعل. أظن أنها تعتقد بشدة فعلاً أن الطفل سيحصل على حياة أفضل إذا تخلّت عنه، وهي تقصد ذلك. إنها تعرف أنها لا تستطيع الاهتمام به. تتوسلنا للاحتفاظ به".

"انتظري حتى تراه"، قال بسخرية. "ما من امرأة تستطيع حمل طفل لتسعة أشهر ومن ثم التخلي عنه هكذا".

"بعضهن يفعلن ذلك"، قالت ليز بطريقة بديهية. "أظن أن ماريبيث تفعل، ليس لأنها لا تهتم، وإنما لأنها تهتم كثيراً. إنه أعظم تصرّف حب تجاه هذا الطفل، التخلي عنه ومنحنا إياه". ملأت الدموع عينيها وانهمرت على وجنتيها فيما نظرت إلى زوجها. "جون، أريده. أريده أكثر مما أردت يوماً أي شيء آخر... أرجوك، لا تقل لا... أرجوك دعنا نقبل بذلك". نظر إليها مطوّلاً فيما حاولت ألا تقول لنفسها إنها ستكرهه إذا لم يسمح لها بفعل ذلك. لا تصدق أنه يعرف ربما كل ما عاشته واختبرته، وكم أرادت بشدة



هذا الطفل، ليس لاستبدال آني التي لن تعود أبداً إليهم، وإنما للمضي قدماً، لمنحهم السعادة مجدداً، والضحك والحب، وليكون نوراً ساطعاً في ضبابهم. إنه كل ما تريده ولا تصدق أنه لا يفهم ذلك. عرفت أنه إذا لم يسمح لها بالقيام بذلك، فستموت.

"حسناً، ليز"، قال بهدوء وهو يأخذ يديها بين يديه. "لا بأس صغيرتي... أفهم..."، قال لها، فيما انهمرت الدموع على وجنتيها وتشبثت به، مدركة كم كانت غير عادلة معه. لا يزال الرجل نفسه الذي كان عليه دوماً، وهي تحبه أكثر من أي وقت مضى. لقد عاشا الكثير من التجارب، وصمدا. "سنقول لها إننا سنفعل ذلك. لكن أظن أنه يجدر بنا التحدث إلى تومي. عليه أن يشعر مثلنا حيال الموضوع".

وافقت على ذلك، وبالكاد استطاعت انتظاره حتى يستيقظ. مضت ساعتان، واستيقظ قبل ماريبيث. ذهل حين شرحت له ما عرضته عليهم ماريبيث. لكنه فهم في الآونة الأخيرة حقيقة شعور ماريبيث بشأن التخلي عن الطفل، وبأنها تشعر أن هذا ملائم لها، وللطفل، وتريد فعل ذلك ومنحه حياة أفضل. وشعر الآن أنه قد لا يخسرها في النهاية، وأصبح خائفاً أقل من إجبارها على الزواج به وتحمل مسؤولية الطفل. في الواقع، رأى أنه الحل الأمثل. أمل أن يتمكن يوماً ما هو وماريبيث من إنجاب أطفال لهما، لكن بالنسبة إلى هذا الطفل، يعتبر الحل المثالي. ولاحظ في عيني أمه كم يعني الأمر بالنسبة إليها. بدا أهله أقرب إلى بعضهما حين تحدثا معه عن الموضوع، وبدا والده قوياً وهادئاً، فيما جلس قرب ليز وأمسك بيدها. الأمر مثير نوعاً ما. إنهم على وشك مشاركة حياة جديدة.

حين نهضت ماريبيث، كانوا جميعاً في انتظارها لإخبارها بقرارهم. وافقوا جميعاً على تبني الطفل. نظرت إليهم وبدأت تبكي بكاء الارتياح، ثم شكرتهم جميعاً وعانقتهم، وبكت أكثر قليلاً. بكوا جميعاً، وكان وقتاً عاطفياً بالنسبة إليهم جميعاً. كان وقتاً من الأمل والحب، ووقتاً من العطاء والمشاركة. وقتاً للانطلاق مجدداً، مع الهدية التي قدمتها لهم.

"أنت أكيدة؟"، سألها تومي بعد ظهر ذلك اليوم حين ذهبا للقيام بنزهة، فأومأت برأسها، وبدت واثقة تماماً. فتحوا هداياهم قبلاً، وتناولوا غداء كبيراً. إنها أول فرصة لهما للتحدث مع بعضهما وحيدين منذ الصباح.

"هذا ما أريده"، قالت وهي تشعر بهدوء كبير وقوة كبيرة. شعرت بطاقة كبيرة لم تعهدها منذ وقت طويل. ومشيا كل الطريق نحو بركة التزلج ثم عادا، وامتدت المسافة أميالاً عدة. لكنها قالت إنها تشعر بحال ممتازة. شعرت وكأنها تستطيع فعل أي شيء الآن. شعرت وكأنها فعلت ما جاءت لتقوم به هنا. لقد أعطتهم الهدية التي كان يفترض بها منحهم إياها. وحين تفعل، ستكون كل حياتهم أكثر غنى نتيجة النعمة التي يتشاركونها مع بعضهم.

حاولت أن تشرح له الأمر فيما عادا إلى المنزل، وظن أنه فهمها. لكن يصعب الإصغاء إليها أحياناً. تكون جدية جداً ومتوترة جداً، وجميلة جداً بحيث تصرف انتباهه. حين توقفا على الدرج الأمامي بعد أن وصلا إلى المنزل، قبّلها، وشعر بتوترها ثم أمسكت بيده، وانحنت إلى الأمام فيما حاول الإمساك بها.

"آه يا الله! آه يا الله!..."، قال وشعر فجأة بالذعر فيما أجلسها برفق على الدرج الأمامي، وأمسكت ببطنها المنخفض، وحاولت التقاط أنفاسها وسط الألم القوي للمخاض. ركض إلى الداخل لمناداة أمه، وحين خرجت، كانت ماريبيث مستلقية هناك وتبدو خائفة. إنها في المخاض. وبدأ بقوة أكثر مما توقعت.

"لا بأس. لا بأس". حاولت ليز تهدئتهما، وطلبت من تومي مناداة والده. أرادت إدخال ماريبيث إلى المنزل والاتصال بطبيب. "ماذا فعلتما أيها الولدان؟ مشيتما إلى شيكاغو؟".

"فقط إلى البركة ذهاباً وإياباً"، قالت ماريبيث ولهثت. إنها تشعر بالألم مجدداً. كان الألم طويلاً وقوياً ولم تستطع فهمه. لا يفترض أن يبدأ هكذا، قالت لليز، فيما ساعدتها هي وجون للدخول إلى المنزل ووقف تومي قربهم



بعصبية. "شعرت بألم في معدتي هذا الصباح، ثم اختفى"، قالت وهي تعجز عن تصديق ما يحصل معها. لم يكن هناك أي إنذار.

"هل شعرت بأي تشنجات؟"، سألت ليز برفق. "أو بألم في الظهر؟". يسهل أحياناً إساءة فهم أولى أعراض المخاض.

"شعرت بألم في ظهري الليلة الفائتة، وبتشنجات هذا الصباح مع ألم المعدة، لكنني ظننت أنه بسبب الطعام الذي تناولته الليلة الماضية".

"ربما كنت في المخاض منذ الليلة الماضية "، قالت ليز بهدوء، ما يعني أنه لا يجدر بهم تبديد الوقت في أخذها إلى المستشفى. لا شك في أن النزهة على القدمين عجّلت المخاض القوي. موعد ولادتها هو في اليوم التالي، وهي بالتالي على الوقت، ولا يريد طفلها أن يبدد أي دقيقة. بدا وكأنه يعرف الآن أن آل ويتاكر سيأخذونه، ولذلك قرر المجيء. ما من رادع الآن.

ما إن أدخلوها إلى المنزل، باشرت ليز بتوقيت آلامها، وذهب جون للاتصال بالطبيب. جلس تومي قربها، يمسك بيدها، ويشعر بالأسى عليها. يكره رؤيتها تتألم هكذا، لكن والديه لم يكونا قلقين. كانا حنونين ومتعاطفين معها، ولم تتركها ليز دقيقة واحدة. كانت الآلام متباعدة مدة ثلاث دقائق، وكانت طويلة وقوية، وجاء جون ليقول لهم إن الدكتور ماكلين قال بضرورة الذهاب فوراً إلى المستشفى. سيلاقيهم هناك بعد خمس دقائق.

"هل علينا الذهاب الآن؟"، سألت ماريبيث، وهي تبدو صغيرة جداً وخائفة جداً، فيما نظرت إلى ليز وتومي وجون. "ألا نستطيع البقاء هنا لبعض الوقت؟". كانت على وشك البكاء، وأكدت لها ليز أنها لا تستطيع تأجيل ذلك أكثر. لقد حان وقت الذهاب الآن.

وضع تومي بعض الأغراض لها في حقيبة، وبعد خمس دقائق كانوا في طريقهم إلى المستشفى. جلست ليز وتومي على المقعد الخلفي معها، وثبتاها بينهما، فيما قاد جون بأسرع ما يمكن على الطرقات الجليدية. وما إن وصلوا إلى المستشفى، كان الدكتور ماكلين وممرضة

في انتظارها. أجلساها على كرسي متحرك ودفعاها بعيداً، وأمسكت بتومي مذعورة.

"لا تتركني"، توسلته وهي تمسك بيديه وتبكي، وابتسم الدكتور ماكلين لهما. ستكون بخير. إنها شابة وبصحة سليمة، وكل شيء جيد معها الآن.

"سترين تومي بعد برهة"، طمأنها الطبيب، "مع طفلك". لكنها بدأت تبكي حينها، وقبّلها تومي برفق.

"لا أستطيع الذهاب معك ماريبيث. لن يُسمح لي. عليك أن تكوني شجاعة الآن. سأكون معك في المرة المقبلة"، قال وهو يفلتها ليتمكّنا من أخذها بعيداً. إلا أن ماريبيث استدارت بذعر نحو ليز وسألتها إذا كانت تستطيع الدخول معها، ووافق الطبيب على ذلك. شعرت ليز بقلبها يخفق فيما لحقت بهم إلى المصعد، ومن ثم إلى غرفة الولادة، حيث نُزعت الثياب عن ماريبيث وتمّ فحصها لمعرفة أين أصبحت. باتت ماريبيث بحالة هستيرية حينها، وأعطتها الممرضة حقنة لتهدئتها. أصبحت أفضل بعد ذلك، بالرغم من أنها تألمت كثيراً، لكن حين فحصها الطبيب، قال إن الأمر لن يدوم طويلاً. رحمها متسع تماماً وجاهز للطلق الآن.

أُدخلت إلى غرفة الولادة حينها، وأمسكت ماريبيث بيد ليز، ونظرت إليها بعينين تثقان بها تماماً. "عديني بأنك لن تبدلي رأيك... ستأخذينه، أليس كذلك، ليز؟ ستحبينه... ستحبين دوماً طفلي...".

"أعدك"، قالت ليز وهي مغمورة بالثقة والحب اللذين تتشاركانهما.

"سأحبه دوماً... أحبك ماريبيث... شكراً..."، قالت ثم عادت الآلام للسيطرة عليها مجدداً، وكانت الساعات التالية صعبة جداً عليها. استدار الطفل بطريقة غير مناسبة لبعض الوقت، وتوجب عليهم استعمال الكلاّب. وُضع قناع على وجه ماريبيث وأُعطيت نوعاً من الغاز. كانت مترنحة ومرتبكة ومتألمة، لكن ليز أمسكت بيدها. وكانت الساعة بعد منتصف الليل حين



صدر صراخ خفيف أخيراً في غرفة الولادة، ونزعت الممرضة قناع المخدر حتى تتمكن ماريبيث من رؤية طفلتها. كانت لا تزال نصف نائمة، لكنها ابتسمت حين رأت الوجه الوردي الصغير، ثم نظرت إلى ليز بعينين مليئتين بالارتياح والسعادة.

"لديك فتاة صغيرة، قالت لليز. حتى في حالتها المترنحة، لم تنسَ أبداً لمن أصبحت الطفلة الآن.

"إنها فتاتك الصغيرة"، صحح الطبيب، وهو يبتسم لماريبيث، ثم أعطى الطفلة لليز. كانت ماريبيث مترنحة جداً للإمساك بها، وفيما نظرت ليز إلى الوجه الصغير جداً، رأت شعراً أشقر وعينين مليئتين بالبراءة والحب فارتجفت ليز حين أمسكت بها.

"مرحبا"، همست فيما حملت الطفلة التي ستكون لها، وهي تشعر تماماً مثلما فعلت حين ولد طفلاها. عرفت أنها لحظة لن تنساها أبداً، وتمنت لو أنها تشاركتها مع جون. من المهم كثيراً رؤية الطفلة تولد، وهي تخرج فجأة وتبكي، كما لو أنها تناديهم وتقول لهم إنها فعلتها. انتظروها جميعاً لوقت طويل جداً. تم إعطاء ماريبيث حقنة أخرى وعادت للخلود إلى النوم، وسُمح لليز باصطحاب الطفلة إلى غرفة الحضانة حيث تمّ قياس وزنها وتنظيفها. بقيت ليز لمراقبة كل شيء فيما أمسكت بالأصابع الصغيرة في يدها. وبعد بضع دقائق، رأت جون وتومي يصلان إلى نافذة غرفة الحضانة ووقف الرجلان يحدقان إلى الداخل.

سمحت لها الممرضة بحمل الطفلة مجدداً وأمسكتها عالياً لتريها لجون. بدأ يبكي لحظة رأى ابنتهما. "أليست رائعة؟"، قالت بصوت هادئ، وفجأة لم يعد يرى سوى زوجته وكل ما عانياه معاً. من الصعب عدم التفكير في ولادة آني، لكن هذه الطفلة مختلفة، وهي لهم الآن.

"أحبك"، همس لها من الجهة الأخرى، وأومأت له ليز برأسها، وهمست له الكلمة نفسها. إنها تحبه أيضاً، وأدركت الآن بذعر وامتنان

أنهما كانا على وشك تفويت الفرصة. لكنهما فعلاها الآن، بفضل ماريبيث، والهدية التي قدمتها لهما، والحب الذي تشاركاه دوماً، وإنما نسياه تقريباً.

بدا تومي متحمساً حين رأى الطفلة، وشعر بالارتياح حين انضمت ليز إليهما ليتمكن من سؤالها عن حال ماريبيث. طمأنته ليز أنها بخير، وأنها كانت شجاعة جداً، وأنها نائمة الآن.

"هل كان الأمر مريعاً أمي؟"، سألها وهو يبدو قلقاً عليها وإنما متأثراً بما فعلته. وزن الطفلة ثمانية باوندات وخمس عشرة أونصة، وهي طفلة كبيرة بالنسبة إلى أي امرأة، فكيف بالنسبة إلى فتاة عمرها ستة عشر عاماً لم تعرف ما يجب توقعه. شعرت ليز بالأسف عليها أكثر من مرة، لكن الطبيب كان كريماً في المخدر. سيكون الأمر أسهل عليها في المرة المقبلة. وستكون المكافأة أعظم بالنسبة إليها.

"إنه عمل صعب، بنيّ"، قالت ليز بهدوء، متأثرة بكل ما حصل. خصوصاً إذا كانت تفعل ذلك لشخص آخر، من دون الاحتفاظ بالطفل.

"هل ستكون بخير؟". طرحت عيناه ألف سؤال لم يفهمها تماماً. لكن أمه طمأنته.

"ستكون بخير. أعدك".

أحضرت ماريبيث إلى غرفتها بعد ساعة تقريباً، وكانت نصف نائمة، لكنها رأت تومي على الفور وأمسكت بيده، وأخبرته كم تحبه وكم الطفلة جميلة. وفجأة، فيما راقبتهما، شعرت ليز بموجة ذعر تجتاحها ولا تشبه أي شيء آخر شعرت به قبلاً. ماذا لو غيرت ماريبيث رأيها، وقررت الزواج بتومي والاحتفاظ بالطفلة؟

"هل رأيتها؟"، سألت ماريبيث تومي بحماس، فيما نظرت ليز إلى جون وأخذ يدها في يده لطمأنتها. عرف في ماذا كانت تفكر، وشعر بالذعر هو أيضاً.



"إنها جميلة"، قال تومي، وقبّلها، وقلق كثيراً على شحوبها. لا تزال زرقاء اللون تقريباً نتيجة المخدر. "إنها تشبهك"، قال لها لكنها تملك شعراً أشقر بدلاً من الشعر الأحمر الملتهب.

"أظن أنها تشبه أمك"، ابتسمت ماريبيث لليز، وهي تشعر برابط معها عرفت أنها لن تشعر به مجدداً مع أي كان. لقد تشاركتا ولادة طفلتها. وعرفت أنها ما كانت لتنجح لولاها.

"ماذا ستسمينها؟"، سألت ماريبيث ليز، وهي تعود رويداً إلى النوم، فيما أحست ليز بالارتياح مجدداً. ربما لا تريد تغيير رأيها في النهاية. ستكون هذه الطفلة لها فعلاً في النهاية. يصعب تصديق ذلك، حتى الآن.

"ما رأيك باسم كايت؟"، سألت ليز ما إن أغلقت ماريبيث عينيها مجدداً.

"أحبه"، همست وخلدت إلى النوم وهي لا تزال تمسك بيد تومي.

"أحبك ليز..."، قالت وقد أغمضت عينيها.

"أنا أحبك أيضاً ماريبيث"، قالت ليز وقبّلتها على وجنتها، وأشارت للآخرين بضرورة الخروج. واجهت ليلة صعبة وتحتاج إلى النوم. إنها الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. فيما مشوا ببطء في الممر، توقفوا أمام نافذة غرفة الحضانة. كانت مستلقية هناك، وردية ودافئة ومغطاة ببطانية، تحدق إليهم، وتنظر مباشرة إلى ليز كما لو أنها تعرف أنها انتظرتها لوقت طويل. بدا وكأنها جاءت خصيصاً لهم. هدية من شاب لم يعرف أبداً أياً منهم، ومن فتاة دخلت حياتهم مثل قوس قزح. وفيما وقفوا يحدقون إليها بإعجاب، نظر تومي إلى أهله وابتسم. عرف أن آني ستحبها.

# الفصل الحادي عشر

كـــان الـــيومان التاليان صعبين على الجميع، وأكثر من مربكين. أخرج جون وتومي مهد آني القديم وأعادا طلاءه، وبقيت ليز مستيقظة طوال الليل وهي تلفه بأميال من الشاش الوردي وأشرطة الساتان. رموا الأشياء القديمة واشتروا أخرى جديدة، وفي خضم كل ذلك، ذهب تومي إلى قبر آني، وجلس هناك لوقت طويل، ينظر إلى الزينة التي أحضرها هــو وماريبــيث، ويفكــر في الطفلة. لا يحب فكرة مغادرة ماريبيث وعــودتها إلى منزلها مجدداً. لقد حان الوقت بسرعة نوعاً ما. بدا أن الكثيــر من الأمور تحصل دفعة واحدة. معظم هذه الأمور سعيدة، لكن بعضها مؤلمة.

إلا أن أمـــه كانت أكثر سعادة مما رآها طوال العام الماضي، وحين رأى ماريبــيث، كانت جدية وهادئة. لقد تحدثت مطولاً مع ليز وجون بعد ولادة الطفلــة، وأكــدا لها أنهما سيتفهمان إذا بدلت رأيها. إلا أنها أصرت على أنها لا تريد ذلك. تريد التخلي عن الطفلة، لكنها تعرف الآن أكثر من أي وقــت مضى أن قرارها صحيح. في اليوم التالي، اتصل جون بمحاميه وطلب تحضير الأوراق اللازمة لتخلي ماريبيث عن الطفلة.

تم تجهيز أوراق التبني وإحضارها لها، وشرح لها المحامي الشروط مطوّلاً، ثم وقّعت على الأوراق بعد ثلاثة أيام من ولادة كايت. وقّعت على الأوراق بيد مرتجفة، ثم عانقت ليز بقوة، وطلبت من الممرضة ألا تحضر الطفلة لها هذا اليوم. تحتاج إلى الوقت لنسيانها.

جلـس تومـي معها تلك الليلة. كانت هادئة جداً حيال قرارها وإنما حزينة أيضاً. تمنيا لو أن كل شيء كان مختلفاً. إلا أن ماريبيث شعرت هذه المـرة أنهـا لا تملك فعلاً أي خيار. لقد فعلت الشيء الصحيح، خصوصاً بالنسبة إلى الطفلة.

"سـيكون الأمر مختلفاً في المرة التالية، أقسم لك"، قال تومي بهدوء وقبّلها. لقد عاشا الكثير معاً وعرفا أنّ بينهما رابطاً لا يمكن فسخه أبداً. إلا أنهـا تحـتاج إلى الوقت لالتقاط أنفاسها والتعافي من كل ما حصل معها. سـمح لهـا الطبيب بمغادرة المستشفى يوم رأس السنة، مع الطفلة، وجاء تومي لاصطحابها مع أهله.

حملـت ليز الطفلة إلى السيارة، والتقط جون الصور. أمضوا جميعاً بعـد ظهـر هادئ في المنزل، وكلما بكت الطفلة، كانت ليز تذهب إليها، وحاولـت ماريبـيث عدم سماعها. لا تريد الذهاب إليها. ليست أمها الآن. علـيها إجبار نفسها على وضع مسافة بينهما. عرفت أنه سيكون لها دوماً مكـان في قلبها، لكنها عرفت أنها لن تكون أبداً أمها، ولن تكون أبداً معها فـي ظلام الليل، أو في الزكام السيّئ، لتقرأ لها قصة. في أفضل الأحوال، إذا تقاطعـت حـياتهما، سـتكونان صديقتين ولكن ليس أكثر. حتى الآن، أصبحت ليز أمها، وليست ماريبيث.

وفـيما جلـست ليز تحمل الطفلة في وقت متأخر من الليل، تراقبها وهـي تـنام، راقبهما جون. "لطالما أحببتها، أليس كذلك؟". أومأت برأسها بسعادة، عاجزة عن التصديق أنه كان يرغب بالسماح لها بفعل ذلك. "هناك سنتان من عدم النوم حسبما أظن".

"هذا مفيد لك"، قالت مبتسمة ثم مشى عبر الغرفة لتقبيلها. لقد قربتهما الطفلة كثيراً من بعضهما. أعطتهما الأمل، وذكرتهما كم تكون الحياة جميلة حين تبدأ وكم أنّ مشاركتها مهمة.

كمـا أن مجيء كايت قرّب تومي وماريبيث أكثر من بعضهما. بدت أنها بحاجة إليه أكثر من قبل، وكل ما استطاعت التفكير فيه الآن هو الألم



الذي ستشعر به حين تتركه. شعرت بضعف كبير، كما لو أنها لا تستطيع مواجهة العالم من دونه. فكرة العودة إلى المنزل من دونه أرعبتها، وجرّت قدمـيها بـصعوبة للاتـصال بأهلهـا وإخبارهم أن الطفلة ولدت. أرادت الاتصال بهم طوال الأسبوع، لكنها لم تستطع إجبار نفسها على فعل ذلك. ليست مستعدة للعودة إلى المنزل بعد.

"هـل تريدين أن أتصل أنا؟"، سألتها ليز بعد يومين من عودتها إلى المنـزل. "لا أسـتعجلك، لكنني أظن أن أمك تريد الاطمئنان بأن كل شيء على ما يرام. لا بد أنها قلقة".

"لمـاذا؟"، قالـت ماريبـيث بحزن. لقد فكرت كثيراً خلال الأسبوع الماضي، وخصوصاً في أهلها. "ما الفرق الذي سيحصل الآن إذا لم يسمح لهـا بابا بالتحدث إليّ طوال السنة؟ لم تكن موجودة حين احتجتُ إليها. أما أنـتِ، فبلى"، قالت ماريبيث بفظاظة، ولا مجال لإنكار حقيقة ذلك. لم تعد تشعر الآن بما كانت تشعر به قبلاً تجاههم، ولا حتى أمها. وحدها نويل لم تتبدل في قلب ماريبيث.

"لا أظن أن أمك تستطيع فعل أي شيء"، قالت ليز بحذر، وهي تضع الطفلـة في مهدها. لقد أطعمتها للتو. "ليست امرأة قوية". وصفها أكثر دقة ممـا تعرف ليز. والدة ماريبيث خاضعة تماماً لطغيان والدها. "لست واثقة من أنها تفهم حتى كيف خذلتك"، قالت ليز بحزن.

"هـل تحدثتِ إليها؟"، سألت ماريبيث وهي تبدو مرتبكة. كيف تعرف ليـز كـل ذلك عنها؟ ترددت ليز لبرهة طويلة قبل أن تجيبها، ثم قررت إيضاح المسألة، لكن ماريبيث ذهلت بما قالته لها ليز.

"ذهبـنا أنا وجون لرؤيتهم بعد يوم الشكر. شعرنا أننا ندين بذلك لـك. لم نكن نعرف حتى إنك تريدين منحنا الطفلة حينها، لكنني أردت أن أرى نوع العائلة التي ستعودين إليها. ما زال بإمكانك البقاء هنا إذا أردت، علـى أي حـال. أريـدك أن تعرفي ذلك. أعتقد أنهم يحبونك ماريبـيث. لكن والدك رجل محدود جداً. لا يرى سبباً لحصولك على

التعليم. هذا هو بالضبط ما أردت التحدث معه بشأنه أردت التأكد من أنه سيسمح لك بارتياد الجامعة. لديك فقط بضعة أشهر حتى تنتهي من المدرسة وعليك التقدم بطلبات إلى الجامعات الآن. مع عقل مثل عقلك، عليك الحصول على تعليم عالٍ".

"وماذا قال والدي؟". ما زالت لا تستوعب أن ليز التقت بهم. لقد اجتازا مسافة مئتين وخمسين ميلاً لرؤية الأهل الذين نبذوها تماماً خلال الأشهر الستة الماضية.

"قال إنه كان جيداً كفاية لأمك البقاء في المنزل والاهتمام بأولادها. ويمكنك أنت فعل الشيء نفسه"، قالت ليز بصراحة. لم تخبرها أنه أضاف "إذا كان في وسعها الحصول على زوج الآن"، الأمر الذي يشك فيه بعد فضيحتها. "يبدو أنه لا يرى الفرق، أو كم أنت جوهرة نادرة". ابتسمت للفتاة التي أعطتها الكثير. وتريد فعل الشيء نفسه لها. لكنها تحدثت هي وجون عن الموضوع قبلاً. "يعتقد حسبما أظن أننا ملأنا رأسك بالكثير من الأفكار عن الذهاب إلى الجامعة. وأتمنى أن نكون قد نجحنا"، قالت مبتسمة. "وإلا سيخيب أملي كثيراً. في الواقع"، توقفت لبرهة فيما دخل جون إلى الغرفة، "نريد التحدث معك بشأن أمر ما. كنا خصصنا اعتماداً مالياً لآني، من أجل تعليمها، ونحتاج إلى فعل الشيء نفسه مع كايت الآن، لكننا نملك الوقت لذلك. بدأنا بادّخار اعتماد مالي لجامعة تومي قبل زمن بعيد، ولذلك نريد منحك المال الذي احتفظنا به جانباً لآني، ماريبيث، كي تتمكني من الذهاب إلى الجامعة. يمكنك العودة إلى هنا، أو التقدم إلى أي مكان آخر إذا أردت".

بدت ماريبيث مصعوقة فيما تابع جون الحديث. "ناقشنا أنا ووالدك الموضوع، واتفقنا على أن تعودي إلى المنزل الآن، وتنهي المدرسة هذا الربيع، ثم يمكنك الذهاب إلى أي مكان. يمكنك العودة إلى هنا والبقاء معنا". نظر إلى ليز، وأومأت له برأسها. وافقوا هم الثلاثة على أن ماريبيث ستخبر كايت دوماً أنها صديقتها، وليست أمها. في يوم ما ربما،



حين تنضج، سيخبرونها الحقيقة إذا احتاجت إلى ذلك. لكن في غضون ذلك، لا تحتاج ماريبيث إلى إخبارها بالحقيقة، ولا تريد إيذاء أحد، لا هم ولا الطفلة. "حصلت الآن على المال اللازم لتعليمك الجامعي ماريبيث. البقية عليك. لا أظن أن الأمور ستكون سهلة في منزلك، لأن والدك ليس رجلاً سهلاً، لكنني أعتقد أنه فكر في الموضوع أيضاً. أدرك أنك ارتكبت خطأ. لا أستطيع القول إنه سينسى ذلك، لكنني أظن أنه سيرحب بعودتك إلى المنزل. يمكنكما ربما عقد الصلح مع بعضكما خلال الأشهر القليلة المقبلة، قبل انتقالك إلى الجامعة".

"أكره فكرة العودة إلى المنزل"، اعترفت لهما، فيما انضم تومي إليها، وجلس قربها وأمسك بيدها. يكره ذهابها هو أيضاً، وقد وعدها بأنه سيزورها قدر المستطاع، بالرغم من أن المسافة بعيدة جداً. لكنهما يعرفان أن فترة الستة أشهر ليست إلى الأبد، بالرغم من أنها تبدو هكذا بالنسبة إليهما. لكن في عمر الستة عشر عاماً، يبدو الوقت لامتناهياً.

"لن نجبرك على العودة"، قالت لها ليز بوضوح. "لكنني أظن أنه يجدر بك العودة الآن لبعض الوقت، من أجل أمك وكي تحسمي الأمور في عقلك". ثم قالت لها شيئاً وعدت جون بألا تقوله لها. "لكنني لا أظن أنه يجدر بك البقاء هناك. سيدفنونك حية إذا سمحت لهم". ابتسمت ماريبيث على الوصف الدقيق. فالتواجد مع أهلها أشبه بالغرق.

"أعرف أنهم سيحاولون فعل ذلك. لكنهم لا يستطيعون فعل الكثير الآن، بفضلكم". وضعت ذراعيها حول ليز وعانقتها، وهي لا تزال عاجزة عن تصديق ما فعلاه لأجلها، لكنها فعلت الكثير لهم أيضاً. وفيما تحدثوا بهدوء، تحركت الطفلة واستيقظت وبدأت تبكي. راقبت ماريبيث ليز فيما رفعت الطفلة، ثم أخذها تومي. يحملونها أحياناً كأنها دمية صغيرة، بحيث يحبها الجميع ويعانقونها ويلعبون معها. هذا هو بالضبط ما تحتاج إليه، وهذا هو بالضبط ما أرادته ماريبيث لها. عند مراقبتهم، عرفت ماريبيث أن كايت ستعيش حياة رائعة. هذا ما أرادته لها بالضبط.

حملها تومي لبعض الوقت ثم أعطاها لماريبيث، وترددت لبرهة طويلة، ثم بدلت رأيها وفتحت ذراعيها. شمّتها الطفلة بطريقة غريزية وبحثت عن ثديها. لا يزال ثديا ماريبيث مليئين بالحليب الذي لم ترضعه طفلتها أبداً. وكانت رائحة الطفلة نظيفة وحلوة فيما حملتها ماريبيث، ثم أعادتها إلى تومي، وهي تشعر بالكثير من الحزن. ما زال صعباً التواجد قربها. عرفت أنه في يوم ما سيصبح الأمر أسهل، حين تمضي قدماً في حياتها. ستكون كايت أكبر حينها ومألوفة أقل مما هي الآن.

"سأتصل بهم الليلة"، قالت عن أهلها. عرفت أنه حان وقت العودة إلى المنزل، على الأقل للوقت الحاضر. تحتاج إلى عقد الصلح مع أهلها، لتصبح من بعدها حرة في حياتها الخاصة. لكن حين اتصلت بهم، لم يتغير أي شيء. كان والدها فظاً وغير لطيف وسألها إذا "تخلصت منه وعالجت الموضوع".

"أنجبت الطفل أبي"، قالت ببرود. "إنها فتاة".

"لا يهمني. هل تخلصت منها؟"، قال بحدة، فيما شعرت ماريبيث أن كل ما شعرت به قبلاً تجاهه تحول إلى رماد.

"تبناها أصدقاء لي"، قالت بصوت مرتجف، وهي تبدو ناضجة أكثر من عمرها فيما شدّت على يد تومي. لا تخفي عنه أي أسرار، وتحتاج إلى دعمه أكثر من أي وقت مضى. "سأعود إلى المنزل خلال أيام قليلة". لكن فيما قالت ذلك، شدّت على يد تومي مجدداً، عاجزة عن تحمل فكرة تركهم جميعاً. هذا مؤلم كثيراً. وفجأة بدت العودة إلى عائلتها خطأ كبيراً. عليها تذكير نفسها بأن الأمر لن يدوم طويلاً. لكن والدها فاجأها.

"سنأتي أنا وأمك لاصطحابك"، قال بصرامة، وذهلت ماريبيث. لِمَ يزعجان نفسيهما؟ لم تعرف أن آل ويتاكر شدّدا كثيراً على ذلك. رأيا أنه لا يجدر بها العودة إلى المنزل لوحدها في الباص بعد إنجاب الطفل. ولمرة واحدة، وقفت أمها ضده وتوسلته لفعل ذلك. "سنأتي في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة، إذا كان هذا مناسباً".



"هل ستأتي نويل أيضاً؟"، سألت بتفاؤل.

"سنرى"، قال من دون أي التزام.

"هل أستطيع التحدث إلى أمي؟". لم يقل أي شيء آخر، وإنما أعطاها السماعة، وانفجرت أمها بالبكاء حين سمعت صوت ابنتها. أرادت أن تعرف إذا كانت بخير، وإذا كانت الولادة مريعة، وإذا كانت الطفلة جميلة وتشبهها.

"إنها جميلة أمي"، قالت فيما انهمرت الدموع على وجنتيها، ومسحها تومي بأصابعه الرقيقة. "إنها جميلة جداً". بكت المرأتان لدقائق قليلة ثم استلمت نويل الهاتف، وبدت متشوقة لسماع صوتها. كانت المحادثة عبارة عن مجموعة من التعجبات والمعلومات غير المترابطة. لقد بدأت الثانوية، وتنتظر بفارغ الصبر عودة ماريبيث إلى المنزل. تأثرت كثيراً لأنها ستصبح في الصف الثالث ثانوي. "عليك أن تحسني التصرف. سأبقي عيناً عليك"، قالت عبر دموعها، وهي سعيدة بالتحدث إليها مجدداً. قد تكون ليز محقة، وعليها العودة لرؤيتهم، مهما كان العيش مجدداً في منزل أهلها أمراً صعباً بعد كل ما حصل. أقفلت الخط في النهاية، وأخبرت تومي أنهم سيأتون في عطلة نهاية الأسبوع المقبلة لاصطحابها إلى المنزل.

مرت الأيام القليلة التالية بسرعة البرق، وأصبحت تقف على قدميها مجدداً، وباتت مستعدة للرحيل. أخذت ليز إجازة من عملها للاهتمام بالطفلة، وبدا أن هناك الكثير من الأمور الواجب فعلها معها، بين إطعامها وغسلها وغسل كومات من الملابس. شعرت ماريبيث بالإرهاق لمجرد مراقبتها، وأدركت أكثر فأكثر أنها كانت ستضيع وسط ذلك.

"لم يكن في وسعي فعل ذلك ليز"، قالت بصراحة، وهي مذهولة بمقدار العمل اللازم.

"بلى يمكنك، لو توجب عليك"، قالت لها ليز. "ذات يوم ستفعلين. ستنجبين أولاداً لك"، طمأنتها. "حين يكون الأمر سهلاً وصحيحاً، مع الزوج المناسب، وفي الوقت المناسب. حينها، ستكونين مستعدة".

"لـــم أكـــن مستعدة الآن"، أكدت لها. لو كان الطفل ربما من تومي، لاخـــتلف الأمر. لكن بدا غريباً التشبث بطفلة بول وبدء كل شيء بالطريقة غيـــر الـــصحيحة. تساءلت ما إذا كان في وسعها تحمّل ذلك. لكنها ليست مـــضطرة إلـــى التفكيـــر في ذلك الآن. كل ما عليها فعله هو ترك الطفلة والرحيل. هذا الجزء الأصعب. وفكرة ترك تومي مؤلمة جداً، تماماً مثلما هو ترك ليز وجون، من دون ذكر الطفلة.

بكـــت معظم الوقت، بسبب كل شيء تقريباً، وكان تومي يصطحبها فـــي نزهة كل يوم بعد المدرسة. ذهبا في نزهات طويلة، وتوجها بالسيارة نحـــو البحيـــرة، وضحكا وهما يتذكران حين دفعها في الماء واكتشف أنها حامـــل. عـــادا إلى المقبرة لاستعادة زينة آني. ذهبا إلى كل مكان كما لو أنهما أرادا حفر الذكريات في كل لحظة، وكل مكان، وكل يوم إلى الأبد.

"ســـأعود، وأنـــت تعـــرف ذلـــك"، وعدته، ونظر إليها متمنياً لو أنه يستطيع تحريك الوقت إلى الأمام أو الوراء، والابتعاد عن الحاضر المؤلم.

"ســـألحق بـــك إذا لم تفعلي. لم ينته الأمر، ماريبيث. لن ينتهي أبداً بيننا". إنهما يعتقدان بذلك في أعماق روحهما. حبهما هو حب عبر الماضي والمـــستقبل. كل ما يحتاجان إليه هو الوقت للنمو. "لا أريدك أن ترحلي"، قال لها فيما نظر في عينيها.

"لا أريـــد أن أتركك أنا أيضاً"، همست له. "سأتقدم إلى الجامعة هنا". وإلـــى جامعات أخرى أيضاً. ما زالت غير واثقة من شعورها إذا تواجدت قـــرب الطفلة. لكنها لا تريد خسارة تومي أيضاً. تصعب معرفة ما يخبئه لهمـــا المستقبل، وكل ما يعرفانه في الوقت الحاضر هو ما حصل معهما، وهو ثمين جداً.

"سأزورك"، أقسم لها.

"وأنا أيضاً"، قالت وهي تحبس دموعها للمرة الألف.

إلا أن الـــيوم الـــذي يخشيانه حلّ على غفلة. وصل أهلها في سيارة جديـــدة يعمل عليها والدها. جاءت نويل أيضاً، وبدت هستيرية وابنة أربعة



عـــشر عاماً مع جهاز تقويم جديد لأسنانها، وبكت ماريبيث وأمسكتها بقوة حـــين رأتهـــا. أمـــسكت الأختان ببعضهما، وارتاحتا للعثور على بعضهما مجـــدداً. بالـــرغم مـــن كل الأشياء التي تبدّلت، لم يتغير أي شيء بالنسبة إليهما.

دعـــاهم آل ويتاكـــر للبناء وتناول الغداء لكنّ والديها قالا إن عليهما العـــودة، وبـــدأت ماريبـــيث تنظر إلى ابنتها بعينين مليئتين بالحزن والندم بـــسبب عجـــزها عن تقديم أي شيء لها. لم تكن تملك الشجاعة، وشعرت الآن بالعار بسبب وجود شخص آخر لأجلها.

"هل أنت بخير؟"، سألت بحذر كما لو أنها تخاف لمسها.

"أنـــا بخيـــر أمي". بدت ماريبيث جميلة وفجأة أكبر سناً. بدت وكأن عمـــرها ثمانية عشر عاماً وليس ستة عشر عاماً. لقد نضجت. لم تعد فتاة صـــغيرة، إنها أم. "كيف حالك؟"، سألت وانفجرت أمها بالبكاء. إنها لحظة عاطفية، وسألتها إذا كانت تستطيع رؤية الطفلة. وبكت مجدداً حين رأتها. قالت إنها تشبه ماريبيث حين كانت طفلة.

وضعوا أغراض ماريبيث في السيارة، ووقفت هناك، تشعر بألم في معدتها. عادت إلى الداخل، إلى غرفة ليز وحملت كايت وأمسكتها بالقرب مـــنها فيما كانت الطفلة نائمة، غير مدركة لما يحصل، وأن شخصاً مهماً سيخرج من حياتها، ولن يعود أبداً بالطريقة نفسها مجدداً، إذا عاد. عرفت ماريبيث أنه لا توجد أي ضمانات في الحياة، وإنما فقط وعود وهمسات.

"ســـأتركك الآن"، همست للطفلة النائمة. "لا تنسي أبداً كم أحبك"، قالت لها فيما فتحت الطفلة عينيها وحدقت إليها كما لو أنها تركز على ما تقوله ماريبيث. "لن أكون أمك بعد الآن حين أعود إلى هنا... لست حتـــى أمك الآن... كوني فتاة جيدة... اهتمي بتومي نيابة عني"، قالت وقبّلتها، وشدّت على عينيها. لا يهم ما قالته عن عدم قدرتها على منحها أي شيء، أو الحياة التي تستحقها. في أحشائها، في قلبها، ستبقى دوماً طفلـــتها، وستحبها دوماً، وهي تدرك ذلك تماماً في صميمها. "سأحبك

دوماً"، همست في الشعر الناعم، ثم وضعتها في المهد مجدداً، ونظرت إليها للمرة الأخيرة، مدركة أنها لن تراها أبداً بهذه الطريقة مجدداً، أو تكون قريبة هكذا منها. إنها آخر لحظة لهما كأم وابنتها. "أحبك"، قالت وارتطمت بتومي فيما استدارت للخروج. لقد كان هنا، يراقبها، ويبكي بصمت على حزنها.

"لست مضطرة إلى التخلي عنها"، قال لها عبر دموعه. "أردت الزواج بك. وما زلت أريد".

"وأنا أيضاً. أحبك. لكن الأمور أفضل هكذا، وأنت تعرف ذلك. هذا جيد لهما... نحن نملك حياة كاملة أمامنا"، قالت وهي تتشبث به، وتمسك به وترتجف. "آه يا الله، كم أحبك. أحبها هي أيضاً لكنهما يستحقان بعض السعادة. وما الذي أستطيع فعله من أجل كايت؟".

"أنت شخص رائع"، قال لها وهو يمسك بها بكل قوته، ويرغب بحمايتها من كل ما حصل لها والبقاء معها إلى الأبد.

"وأنت أيضاً"، قالت له، ثم خرجا معاً ببطء من الغرفة، وتركت طفلتها وراءها. كان صعباً جداً الخروج من المنزل معه، وبكى كل من جون وليز حين قبلاها قبلة الوداع، وطلبا منها الاتصال بهما، وزيارتهما غالباً. تريد ذلك، لكنها ما زالت قلقة ألا يشعرا بأنها تتطفل على حياة كايت. إلا أنها تحتاج إلى رؤيتهما، وتومي. تحتاج إليهم أكثر مما يعرفون. ولا تزال تريد مستقبلاً مع تومي.

"أحبك"، قال تومي بقوة، مثل التوكيد النهائي. عرف كل مخاوفها، وترددها بشأن التطفل على حياتهم، لكنه لن يسمح لها بالهروب. وبالنسبة إليها، ارتاحت لمعرفة ذلك. عرفت أنه سيكون موجوداً لأجلها، إذا أرادت، وهي تريد ذلك في الوقت الحاضر. أملت أن يستمر ذلك دوماً. لكن الشيء الوحيد الذي تعلّموه جميعاً هو أن المستقبل غير أكيد. ما من شيء أرادوه أو خططوا له حصل مثلما كان متوقعاً. لم يتوقعوا أبداً أن تغادرهم آني بهذه السرعة أو الطريقة المفاجئة، أو وصول كايت، بهذه السرعة، أو



مرور ماريبيث في حياتهم. الشيء الوحيد الذي عرفوه هو أنهم يستطيعون الاعتماد على القليل فقط.

"أحبكم كثيراً جميعاً"، قالت ماريبيث وهي تعانقهم مجدداً، عاجزة عن تركهم، ثم شعرت بيد لطيفة على نحو غير متوقع فوق ذراعها. إنه والدها.

"هيا، ماريبيث، فلنعد إلى المنزل"، قال والدموع في عينيه. "اشتقنا إليك". ثم ساعدها على الصعود إلى السيارة. لم يكن ربما الوحش الذي تذكره، وإنما مجرد رجل له نقاط ضعفه. بطريقة ما، ربما قد كبروا جميعاً. ربما قد حان الوقت ليفعلوا كلهم ذلك.

وقف تومي ووالداه يراقبونها فيما ابتعدت في السيارة، على أمل أن تعود إليهم، وهم يعرفون أنه إذا كانت الحياة عادلة، ستعود أو تزورهم أو تبقى إلى الأبد. يشعرون بالامتنان لأنهم عرفوها، ولأنها أعطتهم هدايا ثمينة جداً، من الحب والحياة والتعلم. لقد أعادتهم إلى الحياة مجدداً، فيما أعطوها هم مستقبلاً.

"أحبكم"، همست ماريبيث فيما ابتعدوا في السيارة، وحدقت إليهم عبر النافذة الخلفية لسيارة والدها. راقبتهم وهم يلوّحون لها لأطول وقت ممكن، ووقفوا هناك، يفكرون فيها، يتذكرونها، إلى أن عادوا أخيراً إلى الداخل إلى الهدية التي تركتها لهم.